بنومرين بالمغرب وعلاقاتهم بإسبانيا القطلانيّة

في الثّلثين الأوّل والثّاني من القرن الرّابع عشر م.

دراسة ووثائق (رسائل ومعاهدات) وتعاليق وتحاليل

الأستاذ عمر سعيدان



منشورات سعيدان

سوسة - الجمهورية التونسية

نوفمبر 2002

بنو مرين بالمغرب وعلاقاتهم بإسبانيا القطلانيّة

في الثّلثين الأوّل والثّاني من القرن الرّابع عشر (م)

دراسة ووثائق (رسائل ومعاهدات) وتعاليق وتحاليل وفهارس

الأستاذ

عمر سعيدان

منشورات سعيدان

سوسة ـ الجمهوريّة التّونسيّة.

جانفي 2003

مكتبة الخير

القسم الأوّل

دراسة تاريخيّة

العلاقات القطلانيّة المرينيّة في الثّلثيْن الأوّل والثاني من القرن الرّابع عشر (م)



الباب الأوّل

نشأة الدّولة المرينيّة وأهمّ سلاطينها ووقائعها التّاريخيّة



ـ توطئة : الدّولة المرينيّة وأهمّ السّلاطين والأحداث

عرف المغرب في القرن الرّابع عشر دولـة عتيـدة أصيلـة البلاد وقبائل زناتة البربريّة حكمت بفاس وسيطرت على كامل المغرب الأقصى، هي الدّولة المرينيّـة. ولقد سيطرت لفترة طويلة على المغـرب الأوسط بتلمسـان وعلـى إفريقيّـة بتونس وبجاية خاصّة أيّام السّلطان الكبير أبي الحسن[1] علـيّ بن أبي سعيد وابنه أبي عنان في مدّة محدودة. وشكّلت هذه الدّولـة قـوّة عظمـى بالمنطقة جعلتها تكون الرّاعيـة للإسلام بالأندلس وبالثّغور الإسلاميّة بالسّاحل الإسباني المهدّدة دوما من الأجوار المسيحيّين بقشتالة وأراغون وقطلانية الإسبانيّة. وكانت الدّولة المرينيّة محترمة. مهابة. تخشاها الدّول المسيحيّة وتحرص على

---

(1) ـ أبو الحسن المريني (721 ـ 752): كان استولى على المغربين الأوسط والأدنى وأقام بتونس وبعث بخمسة آلاف جندي مع ابنه أبي مالك إلى بني الأحمر لمحاربة قشتالة. وكان توفّي بهنتاتة خارج مرّاكش بعد عودته من تونس في الثّالث والعشرين من ربيع الثّاني سنة 752هـ. وتولّى الحكم في 25 من ذي القعدة سنة 731هـ بعد موت أبيه السّلطان أبي سعيد.

التّعامل معها بحـذر وعلـى عـدم مواجهتهـا ومصادمتهـا لا سيّما المملكـة القطلانيّـة بـأراغون. وكـانت تهـبّ لنجـدة المسلمين بالأندلس عند الاستصراخ وتبدو الرّادعة والحاميـة بل الزّاحفة والمتربّصة.

وكـانت هـذه الـدّول المسـيحيّة الإسـبانيّة لا تـتردّد في مخاطبة ودّها وطلب مساعدتها ونجدتها عند الخطـر مثلما فعل ملك قشتالة ألفونس عندما ثار عليه ابنه سـنة 1323م، كما كانت أنجدت الحفصيّين بتونـس وبجايـة عنـد هجـوم بني عبد الواد على التّخـوم الحفصيّـة ومحاولـة اسـتيلائهم علـى قسـنطينة وبجايـة وكذلـك الدّولـة الزّيّانيّـة بتلمسـان بالمغرب الأوسط.

وكان ملك أرغون جاقمو الثّاني في عهد السّلطان العظيم يوسف طلب إقامة علاقات متميّزة وتحالف ضدّ القشـتاليّين وكذلك فعل ملـك قشـتالة نفسـه وملـوك غرناطـة مـن بـني الأحمـر. وربـط الحفصيّـون بـالمرينيّين علاقـات صداقـة وتحالف متينة منذ مصاهرة السّـلطان أبـي سـعيد للسّـلطان الحفصي أبي بكر وقبول السّلطان يوسف الدّعوة للحفصيّين دون الموحّدين في عهد الخليفة الحفصي أبي زكريّاء.

واتّسمت هذه العلائق دائما بالعِداء مع بـني عبد الواد بتلمسان وأحيانا مع بني الأحمـر المهدّديـن دومـا مـن قبل القشتاليّين والحذرين مـن المرينيّـين والمنافسـين لهـم لذلك كانوا لا يتردّدون في الدّسّ لهم والتّحالف مع أعدائهم كلّما كانت الفرصة سانحة. ومع ذلك كان المرينيّون يهبّون دائما لنجدتهم عند استصراخهم ويندفعون لحماية أرض الإسـلام المهدّدة.

وفي هذا الإطار حرص ملك أراغـون أن يعقـد حلفا مع أجواره المرينيّين ويهادنهم لتوفير الأمن لرعاياه بحـرا وبـرّا ولتشـجيعهم علـى الاتّجـار مـع المرينيّـين وضمـان الكسـب والثّراء للتّجّار القطلانيّين ومؤسّساتهم التّجاريّة التي تنامت في عهد جاقمو الثّاني ومهّدت للإمبراليّة التّجاريّة العصريّـة فكان طلب الرّبح الهمّ الأكبر لملك أراغون. وعمد عن طريـق التّجـارة إلى إيقـاف التّوسّع القشـتاليّ بـالأندلس والمغـرب وضمان توسّع أراغون علـى الضّفـاف الإسـبانيّة والأندلسـيّة المتوسّطيّة بصفة تدريجيّة لكن ثابتة وهادفة وذلـك بعد أن استطاع السّيطرة علـى جـزر البحـر الأبيـض المتوسّـط: ميورقـة، كورسـيكا، سـردانيا، صقلّيـة ثـمّ جربـة وقرقنـة بالسّاحل التّونسي. فلقد اتّبع التّاج الأراغوني مع المرينيّـين

مثلما كان فعل مع الحفصيّين سياسة هادئة حذرة مرنة مراوغة مشجّعة على التّجارة وعلى العمارة فكان همّه التّجارة وكراء المراكب وحماية الطّريق البّحريّة المتوسّطيّة.

ولتحقيق هذه السّياسة وللوصول إلى أهدافه عمل ملك أراغون جاقمو على أن يكون له أقوى أسطول بالبحر الأبيض المتوسّط وصناعة سُفن ببرشلونة بمختلف المراسي الأراغونيّة الهامّة مزدهرةٌ وناشطة فبفضل ذلك شكّل أكبر قوّة بحريّة في القرن الرّابع عشر م كانت عماد الإمبراليّة الأراغونيّة النّاشئة والمهيمنة بالمنطقة وحوض البحر الأبيض المتوسّط بأكمله. وكانت القوّة المقابلة والمتوازنة معها تتمثّل في الدّولة المرينيّة المتّسعة الأطراف والقويّة بجيشها وثروتها وانتصاراتها. وكان هذا الوضع سببا من أسباب التّحالف بين الدّولتين والتّعاون بينهما وتجنّب الاصطدام بل العمل على التّفاهم والتّراسل حتّى في فترات التّجافي والتّعادي بسبب القطع وإغارات القراصنة.

فكان عموما هذا هو الطّابع المميّز للعلاقات القطلانيّة المرينيّة وفي هذا المناخ تمّ تبادل الرّسائل والسُّفراء وإبرام العقود والمعاهدات التي تتمثّل في هذه الوثائق التي تُعرّف

بها وتعتمدها هذه الدّراسة.

ولتفهّم هذه العلاقات والتّعرّف على أصحابها وأغراضهم بدا لنا أنّه لا بدّ من التّعريف بالدّولة المرينيّة وبمراحل نشأتها وسلاطينها وشخصيّاتهم للنّفاذ إلى روح هذه المراسلات والمعاهدات ومعايشة أجوائها وتموّجاتها.

فنقدّم في القسم الأوّل مراحل نشأة الدّولة المرينيّة وأهمّ سلاطينها الذين لهم صلة بهذه الوثائق ثمّ خصائص العلاقات المرينيّة الإسبانيّة: القشتاليّة والقطلانيّة وأهمّ الأحداث التي طبعتها مع النّصارى والمسلمين بغرناطة والأندلس ثمّ النّتائج التي حقّقتها بالمغرب الأوسط وتلمسان. وفي قسم ثاني ننشر الوثائق بنصّها العربيّ محقّقة محلّلة مع ما بدا لنا من تعليق واستنتاج.

ونأمل أن نكون قد ساهمنا بذلك في خدمة تاريخنا المغاربيّ وتقديم مادّة خامٍ ثريّةٍ وأساسيّة تساعد على إعادة كتابة تاريخ بلادنا المغاربيّة وتفهّم حقبةٍ زمانيّة كان لها أبعدُ الأثر على مصير مغربنا العربي الكبير بل أمّتنا العربيّة الإسلاميّة بأكملها.

1 ـ نشأة الدّولة المرينيّة

أ ـ أصل المرينيّين

ذكر العلاّمة ابن خلدون في تاريخه[1] أنّ بني مرين من زناتة القبائل البربريّة الهامّة بالمغرب. وقسّم جيل زناتة إلى طبقتين: الطّبقة الأولى هي التي كان منها مِغراوة ملوك فاس وبنو يفرن ملوك سَلاَ والطّبقة الثّانية هي التي كان منهم بنو عبد الواد ملوك تلمسان والمغرب الأوسط وبنو مرين ملوك فاس والمغرب الأقصى، وكانوا رُحّلا يسكنون الخيام ويتّخذون الإبل ويركبون الخيل ويتقلّبون في الأرض ويتنقّلون بين إفريقيّة والمغرب.

فمنِ زناتة ببلاد النّخيل ما بين غدامِسْ والسُّوس الأقصى حتّى عامّة القرى الجريديّة بالصّحراء (جنوب تونس اليوم ببلاد الجريد) قبائل بالتّلول بجبال طرابلس وضواحي إفريقيّة وبجبل أوراس بقايا من هذه القبائل سكنوا مع العرب الهلاليّين لهذا العهد وأذعنوا لحكمهم

---

(1) ـ الجزء السّادس. فصل بني مرين. ط. بيروت.

والأكثر منهم بالمغرب الأوسط[1] حتّى أنّه ينسب إليهم ويعرف بهم فيقال وطن زناتة ومن هذه القبائل بالمغرب الأقصى بطون أُخر، فيقول ابن خلدون: "وكان بنو مرين منهم قبل استيلائهم على ملك المغرب أحياء ظواعن بمجالات القفر من فيجج إلى سجلماسة إلى ملوية وربّما يخطون في ظعنهم إلى بلاد الزّاب"[2].

ويذكر نسّابتهم أنّ الرّياسة كانت فيهم في تلك العصور لمحمّد بن ورزيز بن فكوس بن كرماط بن مرين ومرين يتّصل نسبه بزانا بن يحيى أبي الجيل.

ويؤكّد النّاصريّ في الاستقصاء[3] أنّ محمّد بن ورزيز هذا لمّا هلك قام بأمره في قومه ابنه حمامة بن محمّد وكان الأكبر من ولده ثمّ من بعده شقيقه عسكر بن محمّد ثمّ ابنه المخضّب بن عسكر الذي هلك سنة 546هـ في بعض الحروب التي كانت بين عبد المؤمن بن علي الخليفة

---

(1) ـ يعني المغرب الأوسط: الجزائر اليوم.

(2) ـ المرجع السّابق.

(3) ـ الاستقصاء في تاريخ ملوك المغرب الأقصى للنّاصري. ط. الدّار البيضاء بالمغرب سنة 1156م.

الموحّدي والمرابطين ثمّ قام بأمر بني مرين بعده المخضّب ابن عمّه أبو بكر بن محمّد بن حمامة بن محمّد إلى أن هلك فقام بأمرهم **ابنه أبو خالد محيو بن أبي بكر** ولم يزل مُطاعا فيهم إلى أن استنفرهم الخليفة الموحّدي يعقوب المنصور إلى غزوة الأرك بالأندلس فشهدوها وأبلوا فيها البلاء الحسن وأصابت محيو بن أبي بكر يومئذ جراحات هلك منها بصحراء الزّاب سنة 592هـ فخلفه على رئاسة بني مرين **ابنه عبد الحقّ** المؤسّس الحقيقيّ لمُلك بني مرين.

ب ـ دخول بني مرين أرض المغرب الأقصى

مَا هو **السّبب** في دخول بني مرين المغربَ الأقصى ؟

خاض الخليفة النّاصر الموحّدي معركة العُقاب بالأندلس سنة 609هـ وهُزم هزيمة نكراء وهلك جمهور كبير من حامية المغرب ورعاياه "حتّى خلت البلاد من أهلها" ثمّ حدث عقب ذلك الوباء العظيم الذي قضى على كثير من القوم. ولقد هلك النّاصر نفسه سنة 610هـ فبايع الموحّدون ابنه يوسف المنتصر وهو يومئذ صبيّ حدثٌ لا يُحسن التّدبير وانشغل باللذّات والمُتع وأهملَ شأن الرّعيّة فتضافرت هذه الأسباب على الدّولة المُوحّديّة فأضعفتها

لحينها وأمرضتها المرض الذي كان سببا في هلاكها.

وكان بنو مرين يومئذ موطّنين ببلاد القبلة من زاب إفريقيّة إلى سجلماسة يتنقّلون في تلك القفار والصّحاري لا يدخلون تحت حكم سلطان ولا تنالهم الدّولة ولا يُؤدّون لها ضريبة ولا يعرفون تجارة ولا حرثا إنّما شُغلهم الصّيد وطراد الخيل والإغارة على أطراف البلاد.

وكانت طائفة منهم ينتجعون تُخوم المغرب وتُلوله وقت الرّبيع والصّيف فيرعون فيها تلك المدّة ويتزوّدون بما يحتاجون حتّى إذا أقبل فصل الشّتاء اجتمع نجعُهمْ "بأكرسيف" ثمّ شدّوا الرّحلة إلى بلادهم فكان ذلك دأبهم على مرّ السّنين.

ويذكر ابن خلدون أنّه لمّا "كانت سنة 610هـ أقبل نجعُهم على عادتهم للارتزاق والارتفاق حتّى إذا أطلّوا على المغرب من ثناياه ألفوه قد تبدّلتْ أحواله وبادت خيلُه ورجاله وفنيتْ حُماتُه وأبطالُه وعريتْ من أهله أوطانُه ووجدوا مع ذلك البلاد طيّبة المنبت خصيبة المرعى غزيرة الماء واسعة الأكناف فسيحة المزارع متوفّرة العشب لقلّة راعيها وعدم غاشيها فأقامُوا بمكانهم وبعثوا إلى إخوانهم

فأخبروهم بحال البلاد وخصبها وأمّتها فاغتنموا الفرصة وأقبلوا بنجعهم وأهلهم وانتشروا في نواحي المغرب واكتسحوا بالغارت والنّهب سهولها وبسيطها". وتمّ لهم بذلك ما أرادوا من الاستيلاء على بسيط المغرب وسهله وكان الانتشار والاكتساح بقيادة أميرهم يومئذ عبد الحقّ بن محيو بن أبي بكر بن محمّد المرينيّ.

وبلغ الأمر إلى الخليفة الموحّدي بمرّاكش يوسف المنتصر الشّابّ اللاّهي فأمر بتجهيز الجيوش والتّصدّي للمرينيّين واتّصل الخبر ببني مرين وهم في جهات الرّيف وبلاد مطوية فتركوا أثقالهم وعيالهم بتازوطا بالرّيف وتوجّهوا إلى الموحّدين فالتقى الجمعان بوادي نكور[1] وتمّت المعركة بخفض الوادي ما بين رباط تازا والمقرمدة فتغلّب المرينيّون وقتّلوا المُوحّدين وشرّدوهم وسلبُوهم أمتعتهم وكلّ ما معهم وكان ذلك سنة 613هـ. ثمّ زحف الأميرُ عبد الحقّ بجموع بني مرين في ذي الحجّة من نفس السّنة إلى رباط تازا فخرج لهم العامل لقتالهم فقتلوه وهزموا جيوشه وجمع عبد

---

(1) ـ ابن بسّام: الذّخيرة السّنيّة في أخبار الدولة المرينيّة. طبعة الجزائر ص 27 وص 31.

الحقّ الأسلاب والخيل والسّلاح وقسّم ذلك كلّه في قبائل بني مرين ولم يأخذ هو شيئا ولم يسمح لبنيه أخذ شيء وقال لهم: "يكفيكم من كلّ ذلك الثّناء والظّهور على أعدائكم"، فازدادت مكانته وقويتْ شوكته. وكان هذا النّصر لبني مرين فاتحة العهد لملكهم وانتصاب دولتهم. ولمّا انتصر بنو مرين على الموحّدين اغتاظ بنو عمومتهم من بني عسكر وحسدوهم على هذه المكانة الجديدة وضاقت نفوسهم من استقلال بني مرين، بني عمّهم حمامة بن محمّد بالرّئاسة دونهم فجاهروا بمخالفة الأمير عبد الحقّ وعشيرته في معاداتهم للموحّدين وأوليائهم من عرب رياح وسليم، وكانت رياح يومئذ أشدّ قبائل المغرب العربيّة قوّة وأقواهم شوكة، فأغراهم الموحّدون يومئذ بالمرينيّين أبناء عمومة بني عسكر والتقوا معهم بوادي سبو قرب تافرطاست وكانت حربا شديدة قتل فيها غِيلَة الأميرُ عبد الحقّ وابنه.

ج - قيام الأمر للأمير أبي سعيد عثمان بن عبد الحقّ

ولما رأتْ بنو مرين ما وقع بأميرهم وابنه غضبوا وصمّموا عَلى الأخذ بثأرهما فاستأنفوا في الحين القتال وصارعوا العرب والموحّدين وصمدوا وصبروا حتّى انتصروا وهزموا

رياحا وقتلوا منهم خلقا كثيرا واحتلّوا مواقعهم واحتَوَوْا على ما كان في محلّتهم من السّلاح والخيل والأثاث وقام بأمر بني مرين بعد هلاك عبد الحقّ ابنه عثمان.

ثمّ ضعفت شوكة الموحّدين وتداعى أمرهم إلى الاختلال وكثر العسف والجَوْر فجمع الأمير أبو سعيد أشياخ مرين ودعاهم إلى القيام بأمر الدّين والنّظر في مصالح المسلمين فبادروا إلى تلبية دعوته. وسار أبو سعيد في نواحي المغرب يغزو البلاد ويدعو النّاس إلى طاعته والدّخول في عهده وحمايته فبايعته قبائل المغرب: هوادة وزكارة ثمّ تسول ومكناسة ثمّ مطوية وفشتالة، ثمّ فرض على أمصار المغرب مثل فاس ومكناسة وتازا وقصر كتامة ضريبة يؤدّونها كلّ حول على أن يكفّ الغارة عنهم ويُصلح سابلتهم فدخل جلّهم في طاعته وحمايته. وفي سنة 620هـ غزا بلاد فازاز ومن بها. وفي سنة 621هـ غزا عرب رياح فأثخن فيهم حتّى كاد يأتي عليهم.

ولم يزل ذلك دأبُه من تدويخ بلاد المغرب وأقطاره حتّى هلك. فلقد اغتاله عِلج له كان ربّاه صغيرا فسوّلت له نفسه الفتك به إذ طعنه بحربة في منْحره فمات لحينه سنة 638هـ.

وكان هذا الأمير أبو سعيد ذا نجدة وشجاعة وكرم ومحبّة للفقهاء وأهل الصّلاح فوَلِيَ الأمر بعده أخوه أبو معرّف محمّد بن عبد الحقّ فواصل عمله، وكانت له حرب مع جيوش الرّشيد بن المأمون انهزم فيها الموحّدون وقُتِل فيها قائد الفِرنجة بالجيش الموحّدي. وتراجع الموحّدون متثاقلين مهزومين. وهلك الرّشيد بن المأمون سنة 640هـ ووَلِيَ بعده أخُوه الخلافة وتلقّب بالسّعيد فجهّز جيشا لملاقاة المرينيّين وزحف إليهم فقتل في المعركة الأمير المرينيّ أبو معرّف بن عبد الحقّ بيد قائد من قوّاد الفرنجة وانهزم المرينيّون وولّوا عليهم أبا بكر بن عبد الحقّ وكان ذلك سنة 642هـ يوم الخميس التّاسع من جمادى الآخرة.

2 ـ دولة الأمير أبي بكر بن عبد الحقّ

أ ـ شخصيّته

كان هذا الأمير الثّاني المؤسّس الفعليّ للدولة المرينيّة فهو الذي رفع من راية بني مرين وسما بها إلى مرتبة المُلك وتكنّى بأبي يحيَى. وكان أوّل من جنّد الجنود منهم وضرب الطّبول ونشر البنُود وملك الحصون والبلاد. بايعه بعد مهلك أخيه بنو مرين جميعا فقسّم بلاد المغرب وقبائل جباينة من بني مرين وأنزل كلاّ منهم بناحية وحرص على أن يعمل الجميع على أن يستتبّ الأمن ويتوفّر الرّخاء فانقادت له القبائل والبطون.

ب ـ غزو مكناسة وبيعة أبي زكريّاء الحفصيّ

سار الأمير أبو بكر بألويته ونزل جبل زرهون قرب مكناسة ودعا أهلها إلى بيعة الأمير أبي زكريّاء بن أبي حفص صاحب افريقيّة لأنّ أبا بكر كان يومئذ على دعوته وفي ولايته، وحاصرها وضيّق عليها فأذعن أهلها لطاعته واقتحمها صُلحا بمساعدة أخيه يعقوب بن عبد الحقّ الذي أقنع زعيمها أبا العافية فبعثوا ببيعتهم إلى الأمير الموحّدي

أبي زكريّاء الحفصي بتونس الذي كان استقلّ عن الخليفة الموحّدي بمرّاكش بل صار الوريث والرّمز للدّعوة الموحّديّة.

ولَمّا تمّ الفتح أقطع أبو بكر أخاه يعقوب ثلث جباية مكناسة جزاء له على وساطته ومساعدته وكان ذلك سنة 643هـ. ولمّا علم السّعيد الخليفة الموحّدي بالأمر نهض سنة 645هـ في جيش كبير يريد مكناسة: بني مرين أوّلا ثمّ تلمسان ويغمراسن بن زيّان ثانيا ثمّ إفريقيّة وابن أبي حفص آخرا. فخرج أبو بكر من مكناسة حين علم عَظَمة الجيش الذي أعدّه السّعي وتراجع مع قومه إلى قلعة تازوطَا من بلاد الرّيف فتحصّنوا بها ودخل السّيعد مكناسة بدون قتال وتصالح مع الأمير أبي بكر فاطمأنّ وتقدّم السّعيد إلى تلمسان لغزو يغمراسن الزّيّاني الزّناتي والفتك به ونزل بقلعة تامَزَركت فهلك هنالك وانتهز الأمير أبو بكر الفرصة فهجم على الموحّدين وأثخن فيهم بـ"أكبر سيف" وتحوّلتْ للقتال معه كتيبة الفرنجة فأجدّ السّير إلى مكناسة فدخلها من جديد ثمّ نهض إلى الحصون المجاورة: ملوية وطاط فافتتحها ودوّخ جبالها وذلك أواخر صفر سنة 646هـ ثمّ توجّه إلى فاس فافتتحها برضا شيخها وعاملها أبي محمّد الفِشتالي يوم الخميس السّادس والعشرين من ربيع الآخر

سنة 646هـ بعد موت السّعيد صاحب مرّاكش بشهرين وأقطع أخاه يعقوب بن عبد الحقّ رباط تازا بعد افتكاكها من محمّد أخي أبي دبّوس الذي ولي الأمر بعد الخليفة المرتضى الذي كان خلف السّعيد وهلك في الحرب. وكان أبو دبّوس آخر خلفاء الموحّدين بمرّاكش.

وبعد انتصاره رجع الأمير أبو بكر إلى فاس فقدمت عليه الوفود وأمر القبائل بالنّزول في السّهول وعمارة القرى والمداشر وأَمِنَتْ الطّرقات ونشطتْ التّجارة ورخصتْ الأسعار وصَلُح أمر النّاس واغتبطوا بولايته وأصبحت فاس قاعدة حكم المرينيّين وعاصمة دولتهم. لكن ثارت عليه فاس بإيعاز من الخليفة المرتضَى الموحّدي فنهض لمحاربته واسترجع الرّباط وسَلا والتقى بجيشه سنة 653هـ في جبال بهلولة حوالي فاس فانهزم الموحّدون ونهض بعد ذلك إلى محاربة يغمراسن بن زيّان الذي كان ساعد المرتضى. والتقى الجيشان بأبي سنيط سنة 655هـ فانهزم يغمراسن وفرّ إلى سجلماسة صاحب تلمسان إليها فتراجع إلى الوراء. وعاد إلى تلمسان وسيطر أبو بكر على سجلماسة التي كان يمرّ منها طريق الذّهب وتزدهر بها تجارته. وعقد أبو بكر على سجلماسة لعامله يوسف بن بزكاسن ورجع إلى فاس

فوصلها عليلا متعبا وتوفّى بها أواسط رجب سنة 656هـ ودفن داخل باب الجيزين بفاس بإزاء الشّيخ أبي محمّد الفشتالي وقام بالأمر بعده ابنُه عمر الملقّب بأبي حفص وكان عمّه والي تازا يعقوب بن عبد الحقّ رابع إخوته أبناء السّلطان عبد الحق لم يحاول الفتنة ورضي بمبايعة عمر إلاّ أنّ سادة مرين جميعا لاموه وطلبوا منه تسلّم الأمر من ابن أخيه وبايعوه فاضطرّ إلى مواجهة ابن أخيه ودخول فاس سنة 657هـ وإسناد إمارة مكناسة إلى ابن أخيه أبي حفص عمر. فتولاّها هذا السّلطان الشّابّ المخلوع وبقي بها أيّاما ثمّ قتله بعض أهله فاستتبّ الأمر للسّلطان يعقوب فكان جليل القدر عظيم الشّأن ويعتبر سيّد بني مرين على الإطلاق.

3 ـ السّلطان يعقوب

أ ـ توطيد أركان الدّولة

كان صاحب تلمسان يغمراس بن زيّان، لمّا سمع بموت السّلطان أبي بكر، جمع الجيوش واستعان بقبائل تُوحين ومغراوة البربريّة بعد أن وعدهم ومنّاهم وأطمعهم ونهض إلى المغرب فالتقى بهم السّلطان يعقوب وردّهم على أعقابهم وتوجّه إلى مدينة سَلاَ التي استولى عليها نصارى الإسبنيول فأوقع بهم وطردهم. وعظُم من أجل ذلك شأنه وكان استبدّ بها ابنُ أخيه يعقوب بن عبد اللّه بن عبد الحقّ الذي كان يريد الأمر لنفسه وكان انتصاره في الرّابع من شوّال سنة 658هـ بعد أن كان هدمها النّصارى وقتلوا أهلها وسبوْا نساءها. فبادر هذا السّلطان الحازم والجدّي والقدير ببناء أسوار المدينة وكان ساهم بنفسه في إقامة السّور كما بنى دار صناعة السّفن التي صارتْ تُصنع بها الأساطيل البحريّة والمراكب الجهاديّة وكان يجلب لها الخشب من غابة المعمورة بالمغرب. والتقى بسلطان تلمسان يغمراسن وعقد معه المُهادنة ووضع أوزار الحرب فتحقّق السّلم واستتبّ الأمن وعمّ الرّخاء.

ب ـ القضاء على الدّولة الموحّديّة

لمّا فرغ السّلطان يعقوب من شأن الخارجين عليه من عشيرته أجمع رأيه لمنازلة المرتضى والموحّدين في دارهم وحضرتهم مرّاكش فسار إليهم سنة 660هـ فقتل ابنه الأمير عبد الله بن يعقوب بن عبد الحقّ وانهزم الموحّدون هزيمة شنعاء بواقعة أمّ الرّجلين خارج مرّاكش ثمّ ثار ابن عمّ المرتضى الموحّدي أبو دبّوس وهو قائد جنده وطلب الأمر لنفسه ولّما شعر بالخطر فرّ إلى فاس واتّصل بالسّلطان يعقوب وطلب منه المساعدة على أن يقسم معه الغنيمة[1] فكان الأمر كذلك وساعد السّلطان يعقوب أبا دبّوس فتغلّب على المرتضى وافتكّ مرّاكش وتحايَل على الخليفة المرتضى فقتله صهرُه وخلا الأمر لأبي دبّوس فتنكّر للسّلطان المرينيّ يعقوب بن عبد الحقّ ولم يف بوعده فنهض إليه السّلطان يعقوب وحاصره أيّاما ثمّ سار في الجهات يحتلّها الواحدة بعد الأخرى فشعر أبو دبّوس بالعجز فاستجاش عليه يغمراسن بن زيّان صاحب تلمسان ليفتّ في عضده ويشغله

---

(1) ـ ابن خلدون: التّاريخ. ج 6. فصل: بنو مرين.

عـن حربـه فاسـتجاب يغمراسـن وتناسـى المُهادنـةَ المبرمـة واعتقد أنّها فرصة سـانحة للنّيـل مـن بـني مريـن وإيقـاف تقدّمهـم وسـلطانهم فـأفرج السّلطان يعقـوب عـن مرّاكـش المحاصرة وتوجّه إلى يغمراسن بتلمسـان في منتصـف محـرّم سنة 666هـ. فـالتقى الجيشـان وقتـل أبـو حفـص عمر بـن يغمراسن بن زيّان وتمّت الواقعة بتلاَغ يـوم الاثنـين الثّـاني عشر من جمادى الأخيرة من سنة 666هـ. وفرّ يغمراسن ثـمّ رجـع إلى تلمسـان فتوجّـه السّلطان يعقـوب مـن جديـد إلى مرّاكش فحاصرها ثمّ أمر الجيوش بنهـب مناطقهـا والعبـث بنواحيها ومزارعها وبقي يقتل أهلها وفتيانها ويثخن فيهـم إلى آخر ذي القعدة من سنة 667هـ فاجتمع أشـياخ القبـائل بأبي دبّوس وطلبـوا منـه الخـروج إلى حربهـم حتّـى يكـفّ عنهم الأذى فاضطرّ إلى القبول برأيهم فخرج من مرّاكـش في جيوش ضخمة وجموع وافـرة والتقـى بـالمرينيّين فوضـع لـه السّلطان يعقوب خطّة جعلته يجري دومـا وراءه والمرينيّـون أمامه حتّى ابتعد ولم يَعد التّراجعُ ممكنا. ولا يمكن للنّجدة وصولها. وأمر عندئـذ يعقـوب الجيـوش بالالتحـام واحتـلّ

مصاف أبي دبّوس إليه وتراجع فارّا إلى مرّاكش فأدركته الخيول المرينيّة والرّماة[1] فصُرع واجتزّ رأسه وجيء به إلى السّلطان يعقوب وبذلك تمّ القضاء على الموحّدين يوم الأحد ثاني محرّم سنة 668هـ فتقدّم يعقوب إلى مرّاكش ودخلها ففرّ منها من تبقّى من الموحّين إلى تنملل وبايعوا إسحاق أخا المرتضى فبقي هنالك مخذولا إلى أن قبض عليه سنة 674هـ وقتل هو ومن معه. وكان السّلطان يعقوب خارج مرّاكش فدخلها من جديد في موكب فخم يوم الأحد التّاسع من محرّم سنة 674 وورث السّلطان يعقوب مُلك بني عبد المؤمن وقضى نهائيّا على دولتهم.

ج ـ التّهادن بين الحفصيّين والمرينيّين وتحالفهم

كان المرينيّون يدعون للحفصيّين ويحكمون في عهد أبي بكر بن عبد الحقّ باسمهم. فلمّا هلك الخليفة المستنصر الحفصي وبُويع ابنه أبو زكريّاء المدعو بالواثق اقتفى سنن أبيه في ذلك وعمد إلى إقرار التّحالف القائم بين الدّولتين وبعث إلى السّلطان يعقوب بهديّة فاخرة حافلة مع قاضي

---

[1] ـ الاستقصاء للنّاصري. ج 3.

بجاية أبي العبّاس الغماري سنة 677هـ فعظم موقعها من السّلطان يعقوب واحتفى أهل المغرب كثيرا بأبي العبّاس رسول الواثق رغم أنّ السّلطان يعقوب بادر بعد دخوله مرّاكش بقطع الدّعوة إلى الحفصيّين.

ورغم ذلك واصل الحفصيّون التّعاون مع المرينيّين والتّحالف معهم للتّهديد المتواصل الذي كانوا يلقونه من جيرانهم بني عبد الواد وللفتن الدّاخليّة التي شجّعها بنو زيّان من تلمسان بالتّعاون مع النّصارى والقطلانيّين بأراغون وصقلّيّة وميورقة التي سيطر عليها التّاج الأراغوني وأطرد منها ملوك بني غانية، الأعداء المستمرّين للحفصيّين.

د ـ غزواته بالأندلس ونجدته ابن الأحمر

وفد أهل الأندلس على السّلطان يعقوب يستصرخونه على العدوّ ملكِ قشتالة وقدمت عليه رُسل ابن الأحمر يسألونه الإعانةَ والنّصرَ، فتحرّكت همّته للجهاد وأغاثهم، وأفرج عن تلمسان التي كان يحاصرها، وهادَنَ يغمراسن صاحبَها، ورجع إلى المغرب فأقام بفاس ثمّ بمرّاكش، وتقدّم لفتح طنجة وسبتة بعد أن أخذ العهد لولاية ابنه أبي يعقوب. وبلغه عند وصول وفود الأندلس المستصرخة

استعداد الإفرنجة لغزو جلّ المدن الإسلاميّة[1] بالأندلس فاعتزم على الجهاد ثانية وعلى الغزو بنفسه فاجتاز إلى الأندلس لملاقاة النّصارى بعد أن احتاط من يغمراسن بن أبي زيّان ومكائده فبعث له حفيده تاشفين بن عبد الواحد في وفد من بني مرين لعقد الصّلح معه والتّفرّغ للجهاد فاستجاب يغمراسن بعد موافقة شيوخ بني عبد الواد وأبرم الصّلح مع المرينيّين وعبر السّلطان يعقوب بجيوشه من البربر والعرب وما بقي من الموحّدين الأندلس ونزل بساحة طريف والجزيرة الخضراء فدخلت مالقة في طاعته. وتردّد ابن الأحمر خوفا منه رغم استصراخه له. وتقدّم يعقوب لمحاربة النّصارى وقائدهم نُونه الذي ولاّه الملك القشتالي ألفونس على الجيش لمحاربة المسلمين فتغلّب عليهم السّلطان وهزمهم شرّ هزيمة بعد نكبة معركة العقاب التي أضعفت المسلمين بالمغرب والأندلس ومكّنت النّصارى من استرجاع ولايات ومدن وحصون أندلسيّة إسلاميّة وأقام السّلطان يعقوب بالجزيرة ثمّ قصد إشبيليّة وافتتحها وأذن ببناء مدينة جديدة بغرض المجاز من العدوة لنزول عسكره بها وكانت مُلاصقة للجزيرة اشتهرت بالبنية. ثمّ أجاز

---

[1] ـ الاستقصاء. ج 3. ص 32 ـ 38.

البحر إلى المغرب في رجب من سنة 674هـ كما أمر ببناء المدينة البيضاء المسمّاة اليوم بفاس الجديدة وعبر السّلطان يعقوب إلى الأندلس ثانية ونزل برندة وإشبيليّة. وقد دخلها ملك الجلالقة ابن ألفونس فاكتسحها وغنم منها وسبى ثمّ نهض إلى قرطبة في فاتح جمادى سنة 676هـ فالتقى ابن الأحمر صاحب غرناطة فحاصرتها جيوشهما ودخلوا حصن الزّهراء وخرّبوا ما حولها من حصون وعمران فجنح صاحب قرطبة وقتئذ ألفونْسُ إلى السّلم وبعث له الرّهبان يلتمسون الصّلح ودفع الجزية وذكر ابن خلدون أنّه لما نزل ببلاد النّصرانيّة من السّلطان يعقوب ما نزل من تدمير قراهم واكتساح أموالهم وسبْي نسائهم وإبادة مُقاتليهم وإنسافِ عمرانهم اجتمعوا إلى ملكهم سانجة متوجّعين متذلّلين راجين منه الضّراعة لأمير المسلمين في السّلم فاستجاب لهم وأوفد على السّلطان يعقوب وهو بالجزيرة الخضراء وفودا من بطارقتهم وشمامستهم يخطبون السّلم ويتضرّعون في المهادنة فأجابهم السّلطان إلى ما سألوه واشترط عليهم ما تقبّلوه من مُسالمة المسلمين كافّة من قومه وغير قومه ورفع الضّريبة عن التّجّار المسلمين ببلادهم وعقد الصّلح على هذا الأساس وذلك يوم الأحد العشرين من شعبان سنة 684هـ وطلب السّلطان من الملك صانشو القدوم بنفسه لإمضاء العقد فتم ذلك بحصن الصّخرات على مقربة من وادي لك وطلب

منه أن يبعث[1] إليه بكتب العلم التي بأيدي النّصارى منذ استيلائهم على مدن الإسلام فبعث إليه منها ثلاثة عشر جملا فيها جمل من مصاحف القرآن الكريم وتفاسيره كابن عطيّة والثّعلبي ومن كتب الحديث وشروحها كالتّهذيب والاستذكار ومن كتب الأصول والفروع واللّغة والعربيّة والأدب وغير ذلك فأمر السّلطان بحملها إلى فاس وتحبيسها على المدرسة التي أسّسها بها لطلبة العلم وأثناء رجوعه توفّي صاحب مالقة أبو محمّد بن أشقيلولة وكان ترجّاه أن يتسلّم مالقة بعد موته. ففعل وعقد عليها لابنه أبي زيّان منديل بن يعقوب ودخلها السّلطان يعقوب في يوم مشهود واحتفال[2] بهيج في السّادس من شوّال سنة 676هـ فاغتاظ لذلك ابن الأحمر الذي كان يطمع في الحصول على مالقة فتآمر وكاد المكائد وشجّع على الفتنة والحرب واجتاز السّلطان يعقوب الأندلس ثالثة مغيثا سنة 681هـ ملك الاسبنيول هرّاندة على ابنه سانجة الخارج عليه لضعفه وتقدّمه في السّن بقرطبة وطليطلة فنازل قرطبة ثمّ أفرج عنها بعد أن غنم منها وحاصر طليطلة فأثخن فيها وغنم وسبى

---

(1) ـ الاستقصاء. ج 3. ط. الدّار البيضاء. ص 48.

(2) ـ الاستقصاء للنّاصري. ط الدّار البيضاء. ج 3. فصل: بنو مرين.

وأطلق أيدي الجيش والمسلمين فيها فكان النّصر عظيما وقفل بعد ذلك راجعا إلى الجزيرة فالمغرب وفي هذه السّنة أي سنة 681هـ توفّي يغمراسن بن زيّان سلطان تلمسان وخلفه ابنه عثمان وكان أبوه أوصاه بأن لا يحارب بني مرين لقوّتهم واستفحال مُلكهم وأن يتحصّن كلّما هاجموه وأن يُهاجم أجواره الموحّدين أصحاب تونس الحفصيّين فعمل ابنه عثمان بوصيّته وأوفد أخاه محمّد بن يغمراسن على السّلطان يعقوب وهو بالأندلس في جوازه الرّابع سنة 684هـ في غرّة صفر لإنقاذ الحصون الإسلاميّة ونجدة إشبيليّة[1] فعقد معه السّلم على ما أحبّ وانكفأ راجعا إلى أخيه فطابتْ نفسه وتفرّغ لافتتاح البلاد الشّرقيّة ومناوأة السّلطان الحفصي بإفريقيّة.

وفي آخر ذي القعدة من سنة 684هـ مرض السّلطان يعقوب وتوفّي بقصره بالجزيرة الخضراء بالأندلس في ضحى يوم الثّلاثاء الثّاني والعشرين من المحرّم فاتح سنة 685هـ وحمل إلى رباط الفتح من بلاد العدوة فدفن بمسجد شالة وتولّى الأمر بعده وليّ عهده يوسف بن يعقوب بن عبد الحقّ الملقّب بالنّاصر لدين الله.

---

(1) - تاريخ ابن خلدون. ج 6. ط. بيروت.

4 ـ السّلطان يوسف

أ ـ الفتن وإخمادها

ثار أبو عامر عبد الله بن السّلطان يوسف مع محمّد بن عطوا عامل مرّاكش على والده وطمع في الملك لنفسه دون أبية فتوجّه إليه أبوه من فاس وقاتله وهزمه فالتجأ إلى تلمسان مع ابن عطوا ثمّ عفا عنه وأعاده إلى مكانه وطلب من عثمان بن يغمراسن تسليمه ابن عطوا فرفض وأغلظ القول فتوجّه إليه السّلطان يوسف ونازله وحاصر تلمسان.

ب ـ الجواز إلى الأندلس

ولمّا بلغه انتقاض الملك صانشو العهدَ ترك تلمسان وعبر إلى الأندلس لمقاتلة النّصارى فبعث ملك قشتالة أساطيله إلى الزّقاق واعترض سبيل السّلطان بمساعدة بني الأحمر ملوك غرناطة فأثخن فيهم وقتل قادة الأساطيل ببحر الزّقاق في شعبان من سنة 690هـ وتراجعت أساطيل النّصارى فالتحق بهم وأغار على شريش وإشبيليّة وفي فصل الشّتاء رجع إلى الجزيرة الخضراء ثمّ عبر إلى المغرب سنة 691هـ وتآمر صانشو مع ابن الأحمر الذي خشي على

مملكته من السّلطان يوسف فاستولى على طريف ثمّ نقض عهد ابن الأحمر نفسه فاضطرّ هذا الأخير إلى الرّجوع إلى السّلطان يوسف واستصراخه وطلب عقد الصّلح معه.

ج - محاصرة تلمسان وبناء المنصورة

ونهض السّلطان يوسف بعد ذلك إلى تلمسان حيث كان صاحبها عثمان بن يغمراسن يتربّص بالمرينيّين والحفصيّين فحاصرها وأدار سورًا جديدا حولها يمنع تلمسان عن العمران وحفر من ورائه خندقا ومنع النّاس من الدّخول إلى تلمسان واستمرّ كذلك مقيما عليها مائة شهرا واختطّ حولها مدينة لإقامته ومسجدا لصلاته وشجّع النّاس والعسكر على بناء المنازل الرّحبة والقصور الأنيقة فصارتْ مدينة عظيمة اتّسع عمرانها ونفقتْ أسواقها وسمّاها المنصورة فكانتْ من أعظم أمصار المغرب إلى أن خرّبها آل يغمراسن عند هلاك السّلطان يوسف وارتحال جيوشه عنها واستطاع السّلطان السّيطرة على كلّ الولايات والمدن المجاورة لها: ندرومة، وهران، وتشريش، مليانة، مستغانم، تنبس، وشرشال ثمّ جميع بلاد بني عبد الواد وبني توحين والجزائر التي كان بها ابن علاّن.

ولقد كانت وقتئذ دولة بني حفص بإفريقيّة قد انقسمت إلى قسمين فصار كرسي منها بتونس وآخر ببجاية فتنافس صاحب تونس وصاحب بجاية في مُصادقة السّلطان يوسف والتّقرّب إليه بالهدايا والتّحف.

وفي سنة 703هـ توفّي عثمان بن يغمراسن في الحصار عقب شربه لبنا يقال أنّه كان فيه سمّ افتعله بنفسه كمدا وخوفا من معرّة غلبة عدوّه عليه فاجتمع بنو عبد الواد وبايعوا محمّدا بن عثمان فهبّ كأبيه لقتال المرينيّين لكنّ السّلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحقّ عاجله الموت وقتله عبدٌ له خصي انتقاما لخصيان القصر الذين اعتقلهم السّلطان ونكّل بهم حين ارتاب فيهم وذلك يوم الأربعاء سابع ذي القعدة سنة 706هـ.

د ـ السّلطان أبو ثابت والسّلطان أبو الرّبيع

وتمّت البيعة من بعد السّلطان يوسف لأبي ثابت عامر بن عبد اللّه بن يوسف بن يعقوب بن عبد الحقّ فاحتطّ مدينة تطوان لنزول عسكره بها سنة 708هـ ولم يعمّر طويلا إذ توفّي ثامن شهر صفر سنة 708 فتمّت البيعة لأبي الربيع سليمان بن أبي عامر الذي ثار عليه الوزير عبد الرّحمان بن

يعقوب وحاول مع قائد الحرس الإفرنجي "قَنْصَالُو" إزاحته عن الحكم ومبايعة عبد الحقّ بن عثمان وكان ذلك سنة 710 يوم السّبت الثّالث والعشرين ربيع الآخر فجاهر المعارضون بخلعهم للسّلطان واستنجدوا بأبي حمّو موسى بن عثمان بن يغمراسن صاحب تلمسان بعد هلاك أبيه غير أنّ السّلطان نهض لهم وبدَّدَ شملهم ووطّد ملكه وحسم أمره ورجع إلى تازا فاعتلّ وتوفّي بها ليلة الأربعاء آخر جمادى الثّانية سنة 710هـ ودفن بصحن الجامع الأعظم وأخذتْ البيعة لأبي سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحقّ الذي كان من أهل العلم والحلم والعفاف متوقّفا عن سفك الدّماء فلُقّب بالسّعيد.

هـ ـ مبايعة أبي سعيد

وأجمع شيوخ بني مرين والوزراء عليه فاستقدموه وبايعوه ليلتئذ فتمّ أمره وبعث كُتُبَهُ إلى النّواحي والجهات باقتضاء البيعة وسرّح ابنه الأكبر الأمير أبا الحسن علي بن عثمان إلى فاس فدخلها غرّة رجب من سنة 710هـ وكان أبو الحسن العضد الأيمن لأبيه ساعده على القضاء على الفتن ودعم الدّولة وفتح ثغور الأندلس: الجزيرة ورندة وما إليهما من الحصون.

5 - السّلطان أبو سعيد وأعماله

أ - إخماد الفتن

لمّا استوثق السّلطان أبو سعيد ملكه وفرغ من شأن المغرب عزم على غزو تلمسان لنقض أبي حمّو بن عثمان بن يغمراسن العهد فدخل بلاد بني عبد الواد اكتسح نواحيها واصطلم نعمتها ثمّ نازل وجدة وقاتلها قتالا شديدا واستعصتْ عليه فحمل على تلمسان فنزل بالملعب من ساحتها وتحصّن أبو حمّو بالأسوار مثلما كان أوصى جدّه فحطّم السّلطان ضواحيها ودوّخ جبال بزناسِنْ وأثخن فيهم. ورجع السّلطان أبو سعيد إلى تازا فأقام بها وبعث ابنه الأمير أبا عليّ إلى فاس وكان أصغر ولديه من أمّ علجيّة فعيّنه وليَّ عهده واختار له رئيس وزارة وملّكه على الدّواوين والأمصار فحرّض بعضُ الحاشية أبا عليّ ليستبدّ بالأمر دون والده فأعلن خلعَ أبيه وحاصره وهزمه وتراجع إلى تازا فاشترط عليه ابنه أبو عليّ البقاء بها والاكتفاء بحكمها وبما حولها فرضيَ السّلطان بذلك مؤقّتا ولحق به الأمير أبو الحسن الذي كان بارًّا بأبيه ورجع أبو علي إلى فاس فاعتلّ واشتدّ وجعُه حتى أشرف على الهلاك فتوجّه خوّاصُّ الدّولة إلى السّلطانِ أبي سعيد وناشدوه القدوم وتلافي الأمر

وجمع جيوشه مستعينا بابنه أبي الحسن والتقى مع عسكر ابنه أبي عليّ الذي اختلّ أمره فسارع بمراسلة أبيه عارضا عليه الصّلح على أن يقطعه سجلماسة فكال له ذلك ودخل السّلطان أبو سعيد فاس من جديد ونزل بقصره وأصلح شؤون مُلكه وعيّن ابنه أبا الحسن رسميّا وليّا لعهده وأخذ له البيعة ومكّنه من الدّولة.

ب ـ نجدة أبي سعيد أهل الأندلس

كان توقّف بنو مرين عن غزو الأندلس لانشغالهم بحصار تلمسان وإخماد الحروب والفتن التي أثارها بعض الأمراء فتطاول الإفرنجة وراء البحر على المسلمين واستغلّ بترو بن صانشو ملك النّصارى القشتاليّين انشغال أبي سعيد بمحاربة ابنه أبي علي ومحاصرة تلمسان فزحف إلى غرناطة سنة 718هـ واستعان بالملك خوان وسبعة ملوك إفرنجيّين[1] من الأطراف من بينهم ملك البرتغال وكان جيشهم يشتمل على نحو خمسة وثلاثين ألفا من الفرسان ومائة ألف من الرّجّالة المقاتلة. ولمّا رأى أهل الأندلس هذا

---

[1] ـ ابن خلدون. الجزء السّادس. ط. بيروت. النّاصري. الاستقصاء. ج 3. ط. دار البيضاء.

الجيش العرمرم استصرخوا السّلطان أبا سعيد فقبل إنجادهم على شرط تسليمه عثمان بن أبي العلاء شيخ الغزاة بالأندلس والمساند لابنه أبي عليّ حتّى يستطيع العبور في أمان فتلكّؤوا في ذلك واغتنم شيخ الغزاة هذا يوم المهرجان في الخامس من جمادى الأولى من سنة 719هـ واختار مائتين من فرسان بني مرين وخالط جيش الإفرنجة الذي سمحَ لهم بالمخالطة ظانّين أنّهم قدِمُوا للمفاوضة فباغتوا الملك جوان وابنه صانشو فصرعوهما في جملة من الحاشية فانهزم الجمع واقتفى فرسان أبي عثمان شيخ الغزاة أثرهم فأثخنوا فيهم وقتلوا الكثير وأسّروا ونهبوا واستولوا على أموال عظيمة من الذّهب بَلغتْ ثلاثة وأربعين قنطارا[1] ومن الفضّة مائة وأربعين قنطارا ومن السّبي سبعة آلاف نفس وكان من بين الأسرى امرأة ملك الإفرنجة وأولاده ولاذ من تبقّى بالفرار وخلّوا سبيل غرناطة فنجا بذلك مُلكُ بني الأحمر بعد أن قُتل منهم خمسون ألفا وهلك منهم في الجبال والشّعاب مثل هذا العدد حسبما رواه

---

(1) ـ الاستقصاء. ج 3 للنّاصري. الإحاطة للسان الدّين الخطيب. ط. بيروت.

المؤرّخون ولم يقتل من المسلمين سوى ثلاثة عشر مقاتلا[1]. ولقد علّق جلدُ بطرو ابن صانشو على باب غرناطة وبقي معلّقا سنين وطلبت النّصارى الهدنة فعقدت لهم.

ج ـ تشجيع أبي سعيد العلماء وبناؤه المدارس

لقد اهتمّ السّلطان أبو سعيد بعد إخماد ثورة ابنه أبي عليّ من جديد وتغلّبه عليه وتمليكه ثانية سجلماسة بإعمار البلاد وترميم الثّغور والأسوار وبناء دور العلم والمدارس وتشجيع العلماء والفقهاء والدّارسين فبنى مدرسة فاس الجديدة ودور الطّلبة وأجرى الرّواتب على الفقهاء والمشايخ والمدرّسين وفي سنة 721هـ بنى وليُّ عهده بإذن منه أبو الحسن المدرسة التي بغربي جامع الأندلس بفاس وحوّلها فندقا لسكنى الطّلبة وسقايةً ودارَ وضوء وحَبّسَ رِباعا رتّب فيها فقهاء للتّدريس وأجرى عليهم الإنفاقَ والكسوةَ وفي سنة 723هـ أمر السّلطان ببناء المدرسة العظمى قرب جامع القروييّن بفاس وهي المعروفة بمدرسة العطّارين وبنى بها مسجدا ودُورا للطّلبة وأجرى الرّواتب على المدرّسين وطلبة العلم واشترى أملاكا عديدة أوقفها عليها وكذلك فعل ابنه

---

[1] ـ تاريخ ابن خلدون. ج 6. ط. بيروت.

ووليُّ عهده أبو الحسن، أعظم سلاطين بني مرين على الإطلاق بعد جدّه يعقوب.

د ـ علاقة أبي سعيد بالسّلطان الحفصي أبي بكر

اغتنم بنو عبد الواد فرصة انشغال السّلطان أبي سعيد بإخماد الفتن وحربه مع ابنه أبي علي واهتمامه بردّ هجمات نصارى الأندلس فجهّزوا الجيوش للإغارة على أحلاف المرينيّين الحفصيّين ببجاية وتونس وبدأ أبو تاشفين عبد الرّحمان بن أبي حمّو موسى عثمان بن يغمراسن صاحب تلمسان في مضايقة الحفصيّين واستولى على كثير من حصونهم سنة 729هـ وتحالف مع بعض أعقاب الحفصيّين، محمّد بن أبي عمران اللاّجئ بتلمسان وساعده للهجوم على سلطان تونس أبي بكر الذي خلف الواثق ونصّبه سلطانا على تونس فعلا بعد اقتحامه قصد قصبتها والاستيلاء عليها ففرّ السّلطان أبو بكر إلى بونة جريحا وأرسل إلى السّلطان أبي سعيد وفدا يتركّب من ابنه الأمير أبي زكريّاء ووزيره أبي محمّد عبد اللّه بن تافرجين فقدِمَا على أبي سعيد وبلّغاه رسالة أبي بكر الحفصي فأحسن قبولهما ووعد مع ابنه الأمير أبي الحسن وليّ عهده يبذل كلّ ما عنده لنجدته والسّيطرة على تلمسان وطرد

عدوّه أبي تاشفين.

ونهض السّلطان أبو سعيد فعلا إلى تلمسان سنة 730هـ ولمّا انتهى إلى وادي ملوية وعسكر بصبره جاءه الخبر بعودة الخليفة أبي بكر الحفصي إلى تونس وجلوسه على كرسيه فاستدعى أبا زكريّاء بن أبي بكر وأعلمه بالخبر السّعيد وحمّل الوفد هدايا سنيّة وأمره بالانصراف وبعث معهما القاضي بحضرته أبا عبد الله بن عبد الرّزّاق وحاجبه أبا عبد اللّه بن عبد الرزّاق يخطبون بنت السّلطان أبي بكر فاطمة لابنه ووليّ عهده أبي الحسن فوصلوا إلى الحفصي وأدّوا الرّسالة وانعقد الصّهر بينهم وزفّها السّلطان أبو بكر إليهم في أساطيله مع مشيخة الموحّدين فوصلوا إلى مرسى غساسة سنة 731هـ فسعد السّلطان أبي سعيد بذلك واحتفل احتفالا بهيجا وتحوّل بنفسه لملاقاة العروس فمرض في طريقه مرض موته فحمله ابنه أبو الحسن إلى الحضرة: فاس فأدركته المنيّة وهو في الطّريق إلى قصره وذلك في ذي القعدة سنة 731هـ وتمت البيعة من بعده إلى الأمير أبي الحسن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحقّ فعارضه أخوه علي الذي كان ثار على والده فتصدّى له وتغلّب عليه وقتله بسجلماسة وتفرّغ لمقاتلة الإفرنجة بالأندلس وبني عبد الواد بتلمسان.

6 ـ السّلطان أبو الحسن وأعماله وإنجازاته

أ ـ سيطرته على كامل المغرب وجوازه إلى الأندلس

بعد أن التقى أبو الحسن بجيوش القشتاليّين وهزمهم شرّ هزيمة واستولى على سبتة التفت إلى تلمسان فحاصرها انتقاما لصهره أبي بكر الحفصي فانقرضتْ الدّولة الأولى لبني زيّان بتلمسان ونزل بها السّلطان أبو الحسن واستولى على ما تحويه من ذخائر ونفائس وفاخر المتاع. وجمع أبو الحسن بذلك كلمة بني وَاسِين من بني مرين وبني عبد الواد وبني تُوجين وسائر زناتة وصاروا عَصَبًا واحدًا تحت لوائه وأجاز منهم قوّادا ورؤساء إلى ثغور عمله بالأندلس واندرجوا جميعا في جملته فاتّسع نطاق مملكته وأصبح أبو الحسن ملك زناتة كلّها بعد أن كان ملك بني مرين وسلطان العدوّتين المغرب والأندلس بعد أن كان سلطان المغرب فقط وضمّ إليهما فيما بعد سلطنة تونس وإفريقيّة إثر موت صهره أبي بكر وظهور الفتنة بين الأمراء الحفصيّين.

ب ـ وقعة طريف وهلاك زوجة أبي الحسن فاطمة الحفصيّة

كان السّلطان أبو الحسن كلّف ابنه الأمير أبا مالك سنة

740هـ أمير الثّغور بتجهيز الأساطيل والجيوش والتّوغّل في بلاد النّصارى فاكتسحها وهزم كلّ الذين اعترضوا سبيله وعاد بالسّبي والغنائم فترصّد له بعض الإفرنجة بمساعدة ملك غرناطة ابن الأحمر الخائف على ملكه وانقضّوا عليه وهو عائد على فرسه وغدروا به وقتلوه فاغتاظ السّلطان أبو الحسن واستجشّ أساطيل المسلمين من مراسي المغرب وبعث إلى أصهاره الحفصيّين وطلب منهم تجهيز الأساطيل لمقاتلة الإفرنجة وجاءتْ إلى سبتة من إفريقيّة تسعُ عشر أسطولا من طرابلس وقابس وجربة وتونس وبجاية والتقتْ هذه الأساطيل بسبتة فكانت تناهز المائة وعقد عليها لمحمّد بن على العزفي صاحب سبتة فزحفوا إلى أساطيل النّصارى واستلحمُوهم فقتلوا قائدهم الملند Alemande واستاقوا أساطيلهم إلى مرسى سبتة وكان الفتح عظيما وذلك يوم السّبت سادس شوّال سنة 740هـ واعتُبر هذا اليوم من أعزّ أيّام الإسلام ببلاد المغرب وبعد الاحتفال بالنّصر قفل السّلطان راجعا وأذن بالعبور لنحو ستّين ألفا من الجنْد ونزل بساحة طريف. وأناخ عليها سنة 741هـ فوافاه سلطان الأندلس أبو الحجّاج يوسف بن إسماعيل بن الأحمر في عسكر الأندلس وأحاطوا بطريف وأنزلوا بها أنواع القتال وبعث ملك النّصارى أسطولا آخر اعترض به الزّقاق لقطع

المرافق مِنْ عسكر المرينيّين وحـاصروا السـلطان أبـا الحسـن والمسلمين ففنيتْ أزوادهم. وقدمتْ جيوشٌ نصرانيّـة أخـرى من البرتغال أكمنها في طريـف قـرب جيـش السّـلطان أبـي الحسن وانقضُّوا عليـه ليـلا فهزموهـم هزيمـة نكـراء وسـبوا النّساء والحريم وقتلت في المعارك فاطمة زوجة السّلطان أبي الحسن لـمّا تصدّتْ لهم واعترضت سـبيلهم حـين دخولهـم خيمتها فكانتْ نكبة كبرى تـألّم لهـا أبـو الحسـن ازدادت فداحـة لّمـا اسـتبق النّصـارى الهجـوم وحـاصروا الجزيـرة الخضراء مستعينين بـالجيوش الـواردة عليهـم مـن إشـبيليّة وبمعـاضدة السّـلطان أبـي الحجّـاج بـن الأحمـر بعسـاكر الأندلس وأقام السّلطان أبو الحسن بسبتة بعد أن عبر إليها وبقي يبعث المـدد لصـاحب الجزيـرة الخضـراء محمّـد بـن العبّاس بـن تـافرجين الـذي قصّـر في الدّفـاع عـن الجزيـرة وفضّل الخلوص إلى السّـاحل وتسـليم الجزيـرة للعـدوّ فقـدم أهلها إلى المغرب وتمّ استيلاء النّصارى عليهـا سـنة 743هـ فلامه السّلطان على ذلك وعاقبه.

ج ـ مصاهرته الثّانية للخليفة أبي بكر الحفصي

كان السّلطان أبو الحسن شَغوفا بزوجته فاطمة بارّا بها فتحسّر كثيرا لهلاكِهـا وبقـي في نفسـه منهـا حنـين إلى مـا

شغفته به من خِلاَلها وخِصالها وتاقت نفسه إلى خطبة إحدى شقيقاتها فأوفد إلى أبيها أبي بكر، عرف بن يحيى أمير عرب سُويد من بني زُغبة الهلاليّين وكاتب الجباية والعسكر بدولته أبا الفضل بن محمّد بن أبي مرين وفقيه الفتوى بمجلسه أبا عبد الله محمّد بن سليمان الشّطّي فوفدوا على السّلطان أبي بكر سنة 746هـ فأنزلهم منزل البرّ والكرامة ولمّا علم بالغرض رفض أوّلا غير أن حاجبه أبا محمّد عبد اللّه بن تافرجين زيّن له الأمر وشجّعه فقبل على مضض ووافق فانعقد الصّهر بين السّلطانين على ابنته عزونة شقيقة ابنه أبي العبّاس الفضل بن أبي بكر صاحب بُونة. وبعد الجهاز ارتحل بها الوفد في ربيع سنة 747هـ وبعث معها ابنه الفضل ليزفّها إلى السّلطان أبي الحسن واتّصل بهم الخبر في طريقهم بوفاة السّلطان أبي بكر فجأة ليلة الأربعاء ثاني رجب من سنة 747هـ وكان السّلطان أبو بكر الحفصي قد عهد بالأمر بعده لابنه أبي العبّاس أحمد وكان أرسل مع حاجبه أبي القاسم بن عُتوا كتاب العهد ليوافق عليه السّلطان أبو الحسن المرينيّ فاطّلع عليه وأمضاه بخطّه مباركا الولاية غير أنّ أبا محمّد بن تافرجين بادر عند موت السّلطان أبي بكر بمبايعة ابنه عمر خليفة

لأبيه لتغيّب وليّ العهد عن الحضرة رغم عدم موافقة قاضي تونس قاضي الجماعة أبي محمّد بن عبد السّلام وقاضي الأنكحة أبي عبد الله الأجمي لالتزامه ببيعة أبي العبّاس أحمد المتغيّب بالمغرب.

د ـ غزو السّلطان أبي الحسن إفريقيّة

بلغ هذا الخبر السّلطان أبا الحسن الذي كان وقّع بخطّة على وثيقة ولاية العهد للأمير عبّاس أحمد فقرّر نُصرةَ صهره أحمدَ وعلم بالحرب التي دارتْ بين السّلطان الجديد عمر ووليّ العهد أبي العبّاس أحمد عند رجوعه وتغلّب عمر عليه وقتله فعزم بتشجيع من الحاجب بن تافرجين الذي فرّ إلى السّلطان أبي الحسن حينما أحسّ بالخطر من الأمير عُمر وشجّع السّلطان أبا الحسن على التّحوّل إلى إفريقيّة واحتلالها فوقع الاقتراح من نفسه موقعا حسنا لمكانة إفريقيّة عنده. فعقد لابنه أبي عنان على المغرب وجمع الجُموع من المرينيين والعرب وتوجّه إلى تلمسان فنزل بها في صفر سنة 740هـ وفي طريقه قدمتْ عليه أعرابُ إفريقيّة ووُلاة قابس وبلاد الجريد وأطاعته طرابلس والزّاب وبجاية وصاحبها يومئذ أبو عبد اللّه محمّد بن أبي زكريّاء بن أبي بكر. ولمّا وصل إلى قسنطينة خرج

إليه أبناء الأمير أبي عبد الله فبايعوه فأقبل عليهم وصرفهم إلى المغرب وأنزلهم بوَجدة وأقطعهم جبايتها وأنزل بقسنطينة خلفاء من بني مرين. وقد كان صرف أبا عبد الله صاحب بجاية إلى ندرومة فأنزله بها وأقطعه جبايتها ثمّ وفد عليه أمراء الكعوب من عرب سليم فأخبروه بوضع السّلطان عمر بتونس فتحرّك إليه وبعث إليه جنده فالتقوا به بأرض الحامّة من ناحية قابس فقبضُوا عليه وجزّوا رأسه ثمّ سرّح جيشه إلى تونس فتلقّاه شيوخها من أهل الفتيا وأرباب الشّورى ودخلوا في طاعته باختيارهم فدخلها في أُبَّهَةٍ وموكب عظيم حضره الوجهاء والفقهاء والأمراء والعلماء وكان ذلك في شهر جُمادى الآخر سنة 748هـ.

وكان من بين العلماء الذين كانت تعجّ بهم تونس: ابن عبد السّلام وابن عرفة وابن عبد الرّفيع وابن راشد القفصي وابن هارون وقال ابن خلدون واصفا موكب دخول السّلطان أبي الحسن إلى تونس وكان عمره وقتئذ ستّ عشر سنة: "وكان يوما لم يُر مثله فيما عقلناه" إذ وُلد ابن خلدون سنة 732هـ في غرّة رمضان ودخل أبو الحسن قصر الخلافة بتونس مع صاحبه أبي بكر محمّد ابن تافرجين سنة 748هـ.

وبقي أبو الحسن بتونس يوما ثمّ ذهب لزيارة بلد الجريد فقابس والقيروان فزار قبور الصّحابة والسّلف التّابعين ثمّ سار إلى سوسة فالمهديّة ووقف إلى ساحل البحر وطوّف في معالمها ومرّ في طريقه إلى الجمّ ورباط المنستير وقفل راجعا إلى تونس فاحتلّ بها غرّة رمضان من سنة 748 فساس الدولة وأنصف وعدل وأقطع المرينيّين وعقد لبونة لصهره الفضل بن السّلطان أبي بكر إكراما لصهره ووفادته عليه.

واتّصلتْ ممالك أبي الحسن ما بين مصراتة إلى السّوس الأقصى وإلى رندة ومن عدوة الأندلس وانقرض وقتيّا أمرُ الحفصيّين. واستقام له الأمر واستتبّ إلى أن تحالف ضدّه عربُ بني سليم والأعرابُ النّاقمون المتربّصون ببلاد الجريد شيعة عمر بن أبي بكر المقتول من بني كعب وبني سليم بتوزر فأثاروا القلاقل والفتن وحرّكُوا الرّعيّة ونادوا بأحمد بن عثمان بن أبي دبّوس، آخر السّلاطين الموحّدين الذي كان يشتغلُ خيّاطا بتوزر، سلطانا وأضرموا الفتنة فاضطربت إفريقيّة نارًا ونهض لهم السّلطان وتقابل معهم

قرب القيروان التي[1] التجأ إليها فاجتمع عليه الأعداء من بني عبد الواد ومغراوة والأعراب فهزموه يوم الاثنين سابع محرّم من سنة 749هـ ففرّ أبو الحسن إلى سوسة بمساعدة أولاد مهلهل وأولاد الصّولي من الأعراب واستقرّ بها. ولمّا سمع ابن تافرجين حاجب السّلطان أبي بكر الذي كان غاضبا لعدم حصوله على المكانة التي كانت له أيّام أبي بكر الحفصي انضمّ إلى الثّائرين وحاصر قصبة تونس ولما بلغه وصول السّلطان أبي الحسن إلى سوسة تسلّل من أصحابه وركب البحر إلى الإسكندريّة. فاضطرب أمرُ الثّائرين والمناصرين لابن أبي دبّوس وتراجعوا عن تونس فجاءها السّلطان أبو الحسن ودخل تونس من جديد في ربيع الثّاني سنة 749هـ فاجتمع شمله واستتبّ أمرُه واهتمّ بإصلاح أسوار تونس وإدارة الخندق عليها وقبض على ابن أبي دبّوس وعقد الصّهر بينه وبين عمر بن حمزة أمير عرب كعب فزوّج ابنه عمر بابنة أبي الفضل واختلفتْ أحوال هؤلاء العرب ـ الثّائرين دوما ـ على السّلطان أبي الحسن في الطّاعة تارة والانحراف أخرى.

---

[1] ـ الاستقصاء للنّاصري وابن خلدون. ج 6. ص 156. ط. بيروت.

واستبدّ في المغرب ابنُ السّلطان أبي الحسن أبو عِنان بالأمر وأعلن العصيان وحاول اغتصاب الملك لفائدته فقرّر أبو الحسن، بتشجيع من المرينيّين والحاح شيوخهم، الرّجوع إلى المغرب بعد حصول النّكبة بالقيروان والثّورة بالجريد، وترك ابنه أبا الفضل صهر عمر بن حمزة رئيس قبائل كعب بتونس وركب البحر وتوجّه إلى المغرب وتوقّف ببجاية في خمسمائة أسطول يريد الماء بعد خمس ليال لإقلاعه من تونس فمنعه صاحب بجاية الأمير الحفصي من الوُرود وأوعز إلى سائر سواحله بمنع المرينيّين عن الماء فزحفوا وقاتلوا من منع عنهم الماء وأقلعُوا فثارتْ عاصفة هوجاء وجاءهم الموجُ من كلّ مكان وتكسّرتْ الأجفان وغرق الكثير من بطانة السّلطان وعامّة النّاس وهلك كثير من المشايخ والعلماء معهم وقذف الموج بالسّلطان فألقاه على حجر قرب السّاحل.

وذكر المَقَّري صاحب نفح الطيّب أن أساطيل السّلطان أبي الحسن كانت نحو السّتّمائة فغرقت كلّها ونجا هو على لوح وهلك من كان معه من أعلام المغرب وهم نحو أربعمائة عالم منهم أبو عبد الله محمّد بن سليمان الشّطّي شارح الحوفي. وأبو عبد الله محمّد بن الصبّاغ المكناسي.

ذكر ابن خلدون أنّ أبا الحسن ركب جفنا سليما وقصد الجزائر واحتمى بها. وقد تمسّك أهلها بطاعته فلحق به ابنه النّاصر من بسكرة ووفد عليه أولياؤه من عرب سويد فنهض إلى جهة تلمسان وقد اغتنم بنو زيّان الفرصة واستولوا عليها من جديد وكان سلطانهم عثمان بن عبد الرّحمان الزّيّاني فهزمه وقتل ابنه النّاصر فأجمع أمره على قصد المغرب موطن قومه وتوجّه إلى سجلماسة فاستقبله أهلها وتهافتوا عليه مباركين معظّمين.

ولمّا بلغ الخبر ابنه أبا عنان نهض إليه في جيوشه من جماعة من بني مرين المتخوّفين من أبي الحسن لخذلانهم له ولمّا قرب أبو عنان من سجلماسة تركها السّلطان أبو الحسن وفضّل التوجّه إلى مرّاكش سنة 751هـ وقد تسارع إليه آل جهاتها بالطّاعة لكن لحق به ابنه أبو عنان في جموع من بني مرين قدموا معه من فاس والتقى مع أبيه في وادي أمّ الرّبيع بعد عبور أبي الحسن الوادي. وذلك بتامْدغرست في آخر صفر من سنة 751هـ فانهزم السّلطان وانكفأ إلى جبل هنتاتة من جبال درن محميا بأمير الذّواودة من عرب رياح ورديف.

والتحق به ابنه أبو عنان وتوسّط بينهما حاجبه أبو عبد اللّه محمّد بن محمّد بن أبي عمر فرضي أبو الحسن على ابنه وأوصى له بولاية العهد واعتلّ السّلطان أثناء ذلك فمرّضه أولياؤه وخاصّتُه حتّى مات في الثّالث والعشرين من ربيع الثّاني سنة 752هـ فدفنه ابنه أبو عنان بمرّاكش قرب جامع المنصور. ولّما ارتحل أبو عنان إلى فاس حاضرته احتمل شِلْوَ أبيه معه ودفنه بشالة مقبرة أسلافهم وبايعته جموع المرينيّين رسميا فواصل عمل أبيه ضدّ النّصارى والزّيّانيّين.

هـ ـ نجدة أبي الحسن بني الأحمر ومحاربته نصارى إسبانيا

كان فرجُ بن الأحمر افتكّ مملكة غرناطة من ابن عمّه أبي الجيوش واستولى على مُلك الأندلس ولّما توفّي ترك الأمر بعده لمحمّد ابنه الطّفل الصّغير فاستبدّ عليه وزيره محمّد بن المحروق فقتله بعد ما شبّ وعقل وكان ملك قشتالة قد استولى على جبل طارق سنة 709هـ وزاحم به الفرنجة ثغور المسلمين وصار شجًى في صدر الدّولتين المرينيّة والأحمريّة واستمرّ الحال على ذلك إلى أن بُويع

الأمير السّلطان أبو الحسن. ووفد السّلطان محمّد بن إسماعيل بن الأحمر على السّلطان أبي الحسن لإحكام الودّ معه فأكبر السّلطان مواصلته وبالغ في إكرامه وفاوضه ابنُ الأحمر في شأن المسلمين وراء البحر واستصرخه لإعادة الجبل فأمدّه بما طلب من الجند وعقد لابنه أبي مالك على خمسة آلاف من فرسان بني مرين وأنفذهم مع السّلطان محمّد بن الأحمر لمنازلة جبل الفتح فاحتلّ أبو مالك بالجزيرة الخضراء وتتابعت إليه الأساطيل بالمدد وتوافدتْ الجُموعُ إليه من كلّ جهة وزحفوا جميعا إلى الجبل وأبلوا في منازلته البلاء الحسن إلى أن فتحوه سنة 733هـ واقتحمه المسلمون عنوة.

واهتمّ بعد ذلك الأمير أبو مالك بتحصين تلك الثّغور وسدّ فروجها.

وبعد اعتراض بني العلاء شيوخ الغزو بالأندلس سبيل السّلطان محمّد بن الأحمر وهو راجع إلى غرناطة فتكوا به غدرا لتحالفه مع أبي الحسن وقدموا أخاه أبا الحجّاج يوسف بن إسماعيل مكانه فقام بالأمر بعده وقرّر الأخذ بثأر أخيه فاحتال على بني العلاء حتّى قبض عليهم وأودعهم السّجن ثمّ غرّبهم إلى تونس.

وأعاد أبو الحسن ابنه ثانيـة سـنة 740هـ إلى الأندلس للتّصدّي للنّصارى والتحق به أبو الحسن مع جيوشه ووزرائه بسبتة فهجم على النّصارى وهزمهم ثمّ كانت معركة طريف وهو عائد وقد اجتمع عليه كلّ ملوك النّصارى وتحالف معهم ابن الأحمر وانهزم السّلطان واستولى القشتاليّون على طريف سنة 741هـ كما كان تقدّم. وواصل غزواته وحمايته للأندلسيّين واسترجع الجزيرة الخضراء وطريفَ وجبل الفتح فتراجع القشتاليّون وتوقّفوا عن محاربته ورفعوا أيديهم عن غرناطة وحاولوا استمالة ملوكها باللّين والمراوغة والتّحالف معهم ضدّ المرينيّين فكانت علاقة تعتمد الدّسَّ والمخاتلةَ والمُراوحةَ بين المهادنة والمحاربة.

7 ـ السّلطان أبو عنان (752هـ ـ 759هـ)

أ ـ حروبه

كان السّلطان أبو عنان المتوكّل على اللّه أبي عِنان فارس بن أبي الحسن محبوبا في قومه وعشيرته، أثِيرا عند والده بفضله وعلمه وعفافه. وكانتْ ولادتُه من أمّ روميّة سنة 729هـ وكان بُويع في حياة والده يومَ ثار عليه سنة 749هـ وبُويع رسميّا بعد موت أبيه ودفنِه سنة 752هـ. فكان أوّل ما بادر به غزو بني عبد الواد لارتجاع ما بأيديهم من الملك فأعاد السّيطرة على تلمسان ومملكة بني زيّان سنة 753هـ وأطرد سلطانها أبا سعيد عثمان بن عبد الرّحمان الزّيّاني وفي نفس السّنة تملّك أبو عنان بجاية وتسلّمها من أبي عبد الله الحفصي وأقطعه عوضا عنها مِكناسة الزّيتون. واستتبّ له الأمر بالمغرب الأوسط وبجاية وفتَح سنة 756هـ قسنطينة وتحرّك إلى تونس يريد فتحها لمّا خرج عليه أبو الفضل أخوه وابن السّلطان أبي الحسن ببلاد السّوس وكان أبوه أبو الحسن عقَد له على تونس لَمّا غادرها. فأطرده منها وخلص الأمر إلى السّلطان أبي عنان لكن لم يستطع أبو عنان الدّخول بنفسه إلى تونس للفتن التي ظهرت.

وكان السّلطان أبو الحجّاج يوسف بن الأحمر قد أوفد وزيرَه لسان الدّين ابن الخطيب على السّلطان أبي عنان إثر هلاك السّلطان أبي الحسن لتعزيته واستصراخه وسنة 755هـ هلك السّلطان أبو الحجّاج وقتل غدرا وبايع النّاس أبنَه محمّد بن يوسف الغنيّ بالله وقام بالأمر مولاه رضوان قائد عساكرهم وانفرد ابن الخطيب بوزارته كما كان لأبيه من قبل فبعثه الغنيّ بالله سفيرًا عنه إلى السّلطان أبي عنان مستصرخا له على عدوّه ملك قشتالة فاستجاب له أبو عنان وأنجده بالجيوش والعتاد لمحاربة النّصارى. وكانت له مع الغنيّ بالله سلطان غرناطة مراسلات عديدة ومكاتبات مديدة ذكرها المقّري صاحب نفح الطّيب[1].

وعقد أبو عنان على جبل طارق الذي افتتحه وسائر ثغور الأندلس لسليمان بن داوود ثمّ عقد بعده لولده أبي بكر السّعيد وهو الذي تولّى الملك بعده.

ب ـ غزوته لإفريقيّة

وكان رحَل أبو عنان إلى سَلا وزار الشّيخ الشّهير أبا العبّاس أحمد بن عاشر الأندلسي المتزهّد المنقطع للعبادة

---

[1] ـ نفح الطّيب. ط. بيروت. 1970.

فاجتمع به سنة 757هـ ونهض إلى إفريقيّة فتوقّف في جموع حاشدة ببجاية سنة 758هـ ونازلت جيوشه قسنطينة فانفضّ النّاس عن سلطانها أبي العبّاس أحمد بن أبي بكر الحفصي وجاؤوا طائعين إلى السّلطان أبي عنان وانضمّ إليه السّلطان الحفصي فأعطاه الأمان ثمّ بعث بأبي العبّاس في الأسطول إلى سبتة فاعتقله بها وعقد على قسنطينة لمنصور بن الحجّاج خلوف الياباني من شيوخ بني مرين وأهل الشّورى منهم ووصلت إليه بيعات الأطراف من توزر ونفطة وقابس وغيرها وَوَفَد عليه أولاد مهلهل أمراء بني كعب من سليم يستحثّونه لملك تونس فسرّح معه الجند وعقد عليها ليحيى بن عبد الرّحمان بن تاشفين[1] وبعث أسطوله في البحر مددا لهم وكان سلطان تونس يومئذ أبا إسحاق إبراهيم بن أبي بكر الحفصي ولمّا اتّصل به خبر بني مرين أخرج حاجبه ابن تافراجين لمحاربتهم فقاتلهم يوما ثمّ فرّ إلى المهديّة وتحصّن بها ودخل أولياء السّلطان إلى تونس في رمضان من سنة 758هـ وأقاموا بها من جديد الدّعوة المرينيّة واحتلّ قائده يحيى بن عبد الرّحمان القصبة. ورجع

---

[1] ـ النّاصري: الاستقصاء. ط. الدّار البيضاء. ج 4. فصل: أبو الحسن المرينيّ.

السّلطان إلى قسنطينة وعزم على الدّخول إلى تونس غير أنّ العساكر تململتْ في دخول إفريقيّة من جديد وضاقت ذرعا بالأبعاد والنّفقات وداخلوا الوزير فارس بن ميمون في ذلك فوافقهم وانفضّوا عن السّلطان وقرّر الرّحيل إلى المغرب فغضب السّلطان وارتاب في الأمر وكرّ راجعا إلى المغرب فوصل فاس في ذي الحجّة من سنة 758هـ وألقي القبض على وزيره وسجنه ثمّ قتله.

ج ـ هلاكه

لمّا وصل السّلطان أبو عنان إلى دار ملكه بفاس أقام بقصره إلى يوم عيد الأضحى فقضى الصّلاة وأدركه المرض بالمُصلّى ومنعه الوجع عن الجلوس للنّاس يوم العيد على العادة فدخل قصرَه ولزم فراشه واشتدّ به المرض فاغتنم وزيره حسن بن عمر الفودودي الفرصة ففتك بوليّ العهد أبي زيّان محمّد بن السّلطان أبي عنان وحوّل البيعة لأخيه أبي السّعيد وكان طفلا في الخامسة ودخل يوم الأربعاء الرّابع والعشرين من ذي الحجّة على السّلطان أبي عنان وهو يحتضر وخنقه حتّى هلك ودفن يوم السّبت الثّامن والعشرين من ذي الحجّة متمّم سنة تسع وخمسين وسبعمائة سنة 759هـ وسنّه ثلاثون سنة ودفن بجامع

المدينة البيضاء بفاس وكان حكمُه تسعة أعوام وتسعة أشهر.

د ـ خصال أبي عنان

كان فارسا شجاعا يقوم في الحرب مقام جنده وكان فقيها يناظر العلماء عارفا بالمنطق وأصول الدّين وبعلوم العربيّة والحساب وكان حافظا للقرآن عارفا بناسخه ومنسوخه حافظا للحديث وأهله فصيحَ القلم كاتبا بليغا وشاعرا ومن قوله في الحكمة[1]:

وإذا تصدّر للرّياسة خاملٌ * جرتْ الأمور على الطّريقِ الأعوج

ولقد اهتمّ ببناء المدارس والزّوايا ومن أشهرها المدرسة العنانيّة بفاس ومدرسة بحومة باب حسين من سلا صارت اليوم فندقا يعرف بفندق اسكور. وله مبرّات كثيرة وأعمال جليلة واعتناء بالأدباء والكتّاب ومن أعيان كتابه: أبو القاسم بن رضوان وأبو القاسم البرجي ومع أبي عنان ينتهي العصر الذّهبي للدّولة المرينيّة وتتوالى الفتن وعصر استبداد الوزراء والسّلاطين الخاملين أو القاصرين.

---

(1) ـ الاستقصاء في أخبار ملوك المغرب الإقصى للنّاصري. ط. الدّار البيضاء. ج 3.

8 ـ السّلطان السّعيد بالله بن أبي عنان وبيعة السّلطان أبي سالم

بويع هذا السّلطان الصّبي وأبوه مريض يوم الرّابع والعشرين من ذي الحجّة سنة 759هـ واستبدّت بالأمر دونه أمّه ياسمين ووزيره حسن بن عمر الفودودي وظهر معه منصور بن سليمان بن منصور بن عبد الواحد بن يعقوب بن عبد الحقّ بتشجيع الوزير مسعود بن عبد الرّحمان. وفي سنة 760هـ اضطرب الأمر وانحاز النّاس لهذا السّلطان دون الصّبي.

أ ـ السّلطان أبو سالم إبراهيم

وفي الأثناء وَفَد من الأندلس بمساعدة غنيّ الله ابن الأحمر السّلطان المستعين بالله أبو سالم إبراهيم بن أبي الحسن أخو أبي عنان وكان مستقرّا بالأندلسَ بعثه أبو عنان ليصفُو له الجوّ فاستعان بملك قشتالة ونزل بسواحل المغرب فتسامع المرينيّون بقدومه وأقبلوا عليه وبايعوه فخلعَ الحسن بن عمر سلطانَه السّعيد بعد تسعة أشهر من خلافته وأسلمه إلى عمّه فخرج إليه وبايعه ودخل السّلطان أبو سالم فاسَ الجديد يوم الجمعة منتصف شعبان من سنة 760هـ واستولى على ملك المغرب وتراجع مسعود بن عبد الرّحمان

عن بيعة منصور بن سليمان فأتى به إلى أبي سالم فأرسله إلى الأندلس مع أهله فهلك غرقا في البحر واستتبّ الأمر للسّلطان أبي سالم فسلك سبيل السّلاطين المرينيّين الحازمين مع النّصارى وبني عبد الواد.

ب ـ قدوم سلطان غرناطة الغنيّ بالله ووزيره ابن الخطيب إلى المغرب

لمّا قُتل السّلطان أبو الحجّاج يوم عيد الفطر بالمصلّى سنة 755هـ ولي الأمر ابنه الغنيّ بالله محمّد بن يوسف وكان له أخ اسمه إسماعيل فجعله الغني بالله في بعض القصور من حمراء غرناطة احتفاظا به إلى أن كان رمضان من سنة 760هـ فخرج الغنيّ بالله إلى بعض منتزهاته خارج القصبة ولمّا كانت ليلة سبع وعشرين أخرجه جماعة من شيعته من محبسه وقصره وأعلنوا مبايعته وقرعوا الطّبول بالقصبة في جوف اللّيل وأعلنوا خلع الغنيّ باللّه وعمدتْ جماعة إلى الوزير لسان الدّين الخطيب فأودعوه السّجن واكتسحوا داره ونهبوا مكاسبه وسمع السّلطان أبو سالم بالأمر فكاتب إسماعيل ابن الأحمر وطلب منه تخلية سبيل الغنيّ بالله ووزيره لسان بن الخطيب فاستجاب له وأخلى سبيلهما ووصلا فاس في السّادس من محرّم سنة 761هـ

فأجّل السّلطان قدومهما وركب للقائهما. فوقف الوزير ابن الخطيب على قدميه وأنشد السّلطان أبا سالم قصيدته الرّائيّة المشهورة يستصرخه لسلطانه الغني بالله ويستعطفه ويسترحمه ممّا أبكى النّاس بشفقة له ورحمة.

ونزل ابن الخطيب بسلا وانقطع للعبادة والكتابة وقال في السّلطان سالم وفي سلا وأهلها شعرا كثيرا ولقي بها الشّيخ الزّاهر ابن عاشر وكان معجبا بالسّلطان أبي الحسن وكان استقبله سفيرا لابن الأحمر فزار رباط شالِه مدفن الملوك من بني مرين فزار قبره وترحَّم عليه وشفع له السّلطان أبو سالم عند أهل الأندلس وابن الأحمر فردّوا له متاعَه وأهلَه.

ج ـ السّلطان أبو سالم واستيلاؤه على تلمسان

ولّما استتبّ له الأمر وعَمَّ الأمن والرّخاء توجّه إلى تلمسان لتملّكها كما كان الأمرُ لأبيه وأخيه من قبل فزحف إليها في جيش عظيم ففرّ منها سلطانها أبو حمّو بن يوسف الزّيّاني لمّا بلغه وصوله إلى الصّحراء ودخلها السّلطان أبو سالم واستولى عليها وأقام بها وتوجّه أبو حمّو ووزيره عبد الله بن مسلم الزّرد إلى عرب زغبة وبني معقل وخرج معهم إلى المغرب "فنزلوا أكرسيف ووطاط وبلاد ملوية وحطّموا

زروعها وانتسفوا بركتها وخرّبوا عمرانها". وبلغ الأمر السّلطان أبا سالم فعقد لمن كان في حملته من بني زيّان محمّد بن عثمان بن السّلطان أبي تاشفين وبن أبي زيّان على تلمسان وانكفأ راجعا إلى فاس فأجفل أبو حمّو والعرب أمامه ثمّ خالفوه إلى تلمسان فطردوا عنها أبا زيّان واستولوا عليها وثبت قوم أبي حمّو من جديد بها وعاد أبو زيّان إلى المغرب لاحقا بالسّلطان أبي سالم قبله وعقد أبو حمّو المهادنة مع السّلطان سالم واستقرّ الأمر على ذلك وقد كان ابن الخطيب هنّأ السّلطان أبا سالم باستيلائه على تلمسان بقصيدة طويلة نونيّة. قال في مطلعها:

أطاع لساني في مدحك إحساني ★ وقد لهجت نفسي بفتح تلمسان

ولقد قدم من أهل السّودان ومالي وفد كبير يهنّئه بالنّصر وقدّموا له هديّة عظيمة بها زرافة أبهرت النّاس وكان دخولهم في يوم مشهود ذكره ابن خلدون في تاريخه بإعجاب وتمجيد.

د ـ مقتل السّلطان أبي سالم

كان السّلطان أبو سالم قدّم الخطيب أبا عبد الله بن مرزوق وألقي زمام الدّولة بيده وكان أبوه أبو الحسن يفضّله

ويُجلّه فنقم خاصّة السّلطان وأحد وُزرائه على السّلطان لهذا التّقديم وعمد إلى الدّسّ لِلدّولة والسّلطان إلى أنْ كانت سنة 762هـ فتحوّل السّلطان أبو سالم عن دار الملك من فاس الجديد إلى القصبة من فاس القديم واختط بها إيوانا فخما لجلوسه وعيّن الوزير عمر بن عبد الله الفودودي على دار الملك حيث كان أمينا عليها فحدّثته نفسه بالتوثّب فأغرى قائد جند النّصارى "غرسيه بن أنطول" وعمد إلى أخي السّلطان تاشفين الموسوس والمريض ابنَ أبي الحسن ودعا له بالبيعة[1] وأكره شيخ الحامية والنّاشبة على البيعة وجاهروا جميعا بخلع السّلطان وحاصروه وتولّى جند النّصارى القبض عليه وقتلوه يوم الخميس الحادي والعشرين من ذي القعدة سنة 762هـ ودفن بالقلّة خارج باب الجيسة بأعلى جبل العرض المعروف بجبل الزّعفران ولقد قال لسان الدّين بن الخطيب في السّلطان أبي سالم في الإحاطة في أخبار غرناطة: "كان السّلطان أبو سالم رحمه الله بقيّة البيت وآخر القوم دماثة وحياء وبُعدا عن الشّرور وركونا للعافية" "ورثاه بقصيدة طويلة استهلّها بقوله:

---

[1] ـ التّاريخ. ج 6. فصل المرينيّون.

بني الدّنيا بني لمع السّراب ★ لِدُوا للموتِ وابنُو للخرابِ[1]

وولِيَ الأمر بعده أبو عمر تاشفين الموسوس بن أبي الحسن وكان محجوبا لوزيره الذي غدر بأبي سالم عمر بن عبد اللّه الفودودي وحاول هذا الوزير التّخلّص من منافسيه من بينهم الوزير سليمان بن ونصار صديق "غرسيه" قائد النّصارى وقبض عليه وأشاع في الرّعيّة أنّه يريد اغتصاب السّلطة فثار بنو مرين وقتلوا جندَ النّصارى وفتكوا بغرسيه بن أنطوال الذي كان أمر بقتل السّلطان سالم. وخلا الأمر للوزير عمر بن عبد الله فُودُودي إلى أن ظهر السّلطان المتوكّل على اللّه أبي زيّان محمّد بن أبي عبد الرّحمان يعقوب بن أبي الحسن المرينيّ فتخلّى عمر الفُودُودي عن السّلطان أبي تاشفين المعتوه وساند أبا زيّان محمّد بن أبي عبد الرّحمان يعقوب ولقد قَدِم من الأندلس، ساعده ملك قشتالة على النّزول بالمغرب وتَمّ خلع السّلطان المعتوه ومبايعة المتوكّل على الله أبي زيّان يوم الاثنين الحادي والعشرين من صفر سنة 763هـ فكانت دولته ثلاثة أشهر ويومين ومات وسنّه ستّون سنة.

---

[1] ـ الاستقصاء. ج 4. 6. ص 34 وص 39.

- وكان هذا السّلطان أبو زيّـان محجوبا كذلك للوزير عمر بن عبد الله وكان قد أقام بالأندلس بمساعدة ملك قشتالة خوفا على نفسه وعاش بإشبيليّة ونزل بسبتة فاتح سنة 763هـ فحمله أحد أقرباء الوزير عمر بن عبد الله إليه وكان بعث إليه بالبيعة وتلقّاه بطنجة ونصّبه سلطانا عوض المعتوه.

فوفد ابن الخطيب من سَلاَ على السّلطان أبي زيّان وأنشده قصيدا مطوّلا ولقد كان عَرِفه بالأندلس ولقد طال استبداد الوزير عمر على السّلطان أبي زيّان وحجره عن طريق الرّقباء والعيون من أهل قصره فعزم السّلطان على التّخلّص منه وبلغ الخبر الوزير فدخل عليه وهو في وسط حشمه فطردهم عنه ثمّ غطّه وقتله وألقى جثّته في بئر زاعما أنّ السّلطان سقط فيها لسكره وذلك في محرّم فاتح سنة 768هـ وله ثمان وعشرون سنة ودفن بجامع قصره. فكانت دولته أربع سنين وعشرة أشهر ويوما واحدا. وبويع بعده أخوه عبد العزيز بن أبي الحسن الملقّب بأبي فارس[1] في سنة 768هـ.

---

[1] - ابن خلدون. ج 2. ص 472 - وتاريخ الدّولة للزّركشي ص 83 و85 - الاستقصاء ج 4. ص 50.

9 ـ السّلطان أبو فارس عبد العزيز أبي الحسن

أ ـ شخصيّته وأعماله

ـ هذا السّلطان أنعش دولة بني مرين بعد تلاشيها وأعاد إليها شبابها بعد هرمها وأزال عنها وصمة الحَجْر والاستبداد وأعادها من العزّ إلى حالها المعتاد وهو الذي ذكره ابن خلدون في أوّل تاريخه الكبير وألّفه برسمه وحلّى ديباجته باسمه.

وكان عفًّا متمسّكا بالدّين مُحبّا للخير وأهله سبيلا بعيدا عن الفحش والظّلم مشجّعا للعلماء والأدباء.

كان الوزير عمر الفودودي استقدمه لمّا تخلّص من أخيه أبي زيّان وبايعه وفتح أبواب قصره فازدحم خاصّة بني مرين وعامّتهم عليه وأعلنوا طاعتهم ومبايعتهم يوم الأحد الثّاني والعشرين من ذي الحجّة سنة 768هـ. وحاول الوزير عمر أن يسيرَ معه على عادته من الاستبداد والحَجْرِ فامتنع السّلطان واحتاط وأشار إلى جماعة من خصيانه بقصره فثاروا عليه وفتكوا به وتتبّع السّلطان حاشيته فاعتقلهم وقتلهم واستطاع أن يضطلع بنفسه بأمره فاستتبّ له الوضع واستقام.

وكان هذا الوزير عمر الفودودي قد عقد لأخيه أبي الفضل بن أبي سالم على مرّاكش فاستبدّ بها هذا الأمير وثار على أخيه أبي فارس فتوجّه إليه السّلطان وهزمه وقبض عليه أنصاره وسلّموه إليه فاعتقله وهلك في سجنه في رمضان سنة 769هـ وقضى السّلطان أبو فارس على الفتن التي ظهرت كثورة عامر بن محمّد الهنتاتي الذي نصّب تاشفين من بني عبد الحقّ سلطانا فقضى عليهما وصفا الجوّ للسلطان عبد العزيز من المنازعين وتفرّغ لمحاربة النّصارى وبني عبد الواد بتلمسان.

ب ـ استرجاعه الجزيرة الخضراء من يد الاسبنيول واستيلاؤه على تلمسان

سلك أبو فارس سياسة حازمة وسبيل والده أبي الحسن وأخيه أبي عنان. فتوجّه حال تفرّغه من القضاء على الفتن الدّاخليّة إلى محاربة الاسبانيول القشتاليّيّين الذين كانوا استولوا على الجزيرة الخضراء أيّام والده السّلطان أبي الحسن وتقاتلوا فيما بينهم من أجل السّيطرة على المدن والثّغور التي استرجعتْ من المسلمين فصعبتْ حاميتُهم وفُتّتْ عصبيّتهم فاستغلّ أبو فارس الفرصة وأشار على ابن الأحمر بالزّحف إلى الجزيرة الخضراء على أنّ له ما

يستحقّه من جيش ومددٍ وأوعز إلى أساطيله بسبتة بالتّحرّك فنزلت بمرسى الجزيرة الخضراء وحاصرتها وزحف ابن الأحمر بعساكر المسلمين على أثرها ونازلها أيّاما فتراجع عنها النّصارى وسألوه الصّلح فأجابهم ابن الأحمر إليه وأقلعوا عن البلد فأقيمت في الجزيرة الخضراء شعائر الإسلام من جديد وبقيت تابعةً لابن الأحمر حسب رغبة أبي فارس وكان ذلك سنة 770هـ وبقيت تابعة لبني الأحمر إلى أنْ وقع الاختيار على هدمها خشية استيلاء النّصارى عليها مرّة أخرى فهُدمت عام سنة 780هـ وأصبحت قفرا خاوية.

ثمّ نهض السّلطان عبد العزيز إلى تلمسان ففرّ منها أبو حمّو بن يوسف الزّيّاني ودخلها أبو فارس يوم عاشوراء من سنة 772 في يوم مشهود واستولى عليها.

كما استولى السّلطان عبد العزيز على سائر الوطن من الأمصار والأعمال وعقد عليها للولاة والعمّال واستوثق له ملك المغرب الأوسط كما كان لسلفه واستمرّ مقيما بتلمسان فوفد عليه الوزير ابن الخطيب وقد فرّ من سلطانه الغني بالله ابن الأحمر وقد رجع إليها واستولى الغني بالله على غرناطة من جديد وأطرد أخاه إسماعيل سنة 763هـ.

وقدم ابن الخطيب من غرناطة بإذن من الغني بالله على أساس توجُّهِهِ لتفقّد الثّغور الغربيّة ـ على السّلطان عبد العزيز بتلمسان خوفا من أعدائه ومنافسيه وحسّاده بغرناطة الذين تكاثروا وبدأوا يُغِيرون صدر الغنِيّ بالله عليه.

فأحسن السّلطان أبو فارس استقباله وأرسل إليه أسطولا بسبتة لمساعدته على الجواز ووصل تلمسان سنة 773هـ فاهتزّت[1] له الدّولة وأحلّه السّلطان بمجلسه محلّ الأمن والغبطة ومن دولته بمكان الشّرف والعزّة. وأرسل سفيرا إلى الأندلس يطلب أهله وولده فجاء بهم على أكمل الحالات عن الأمن والتّكرمة ثمّ نزل ابن الخطيب مدينة فاس القديمة فاشترى بها الضّياع الكثيرة وتأنّق في بناء المساكن واغتراس الجنّات وأقام بها في أمن واطمئنان.

ج ـ وفاة السّلطان عبد العزيز أبي فارس

كان السّلطان قد أصابه في صغره مرض النّحول وكاد يهلك لذلك لم يهتمّ به السّلاطين ولم يرسله السّلطان أبو

---

[1] ـ الاستقصاء. ج 4. ص 58.

سالم إلى الأندلس مثل سائر إخوته فأقام بالمغرب وشفي لما شبّ وصلح بدنه، ثمّ عاوده مرضه بتلمسان وتزايد نحوله فلما كمل الفتح واشتدّ به الوجع صارعه وكتم مرضه عن النّاس ثمّ عسكر خارج تلمسان للّحاق بالمغرب ولّما كانت سنة أربع وسبعين سنة 774 قضى نحبه بظاهر تلمسان بين أهله وولده وسِيق إلى فاس فدفن بجامع قصره وسنّه أربع وعشرون سنة وكانت دولته ستّ سنوات وأربعة أشهر.

وولى الأمر بعده ابنه السّلطان السّعيد بالله أبو زيّان محمّد بن عبد العزيز وهو صبيّ الذي حمله وزير أبيه وأجلسه على العرش فتأثّر المرينيون وبايعوه حبّا لأبيه.

واغتنم بنو زيّان الفرصة وعاد أبو حمّو بن يوسف الزّيّاني إلى تلمسان وأطرد منها المرينيّين. وسرّح السّلطان ابن الأحمر من الأندلس الأمير أبا العباس أحمد ابن السّلطان إلى سالم وبعث به إلى المغرب ليتولّى الملك بمساعدته فخلع الوزير أبو بكر بن غازي سلطانه الصّبيّ السّعيد باللّه أبا زياد وبايع أبا العبّاس أحمد وذلك في محرّم فاتح سنة 776هـ فكانت دولة هذا الصّبيّ سنة وثمانية أشهر وأربعة عشر يوما.

10 ـ السّلطان أبو العبّاس أحمد المستنصر بالله

أ ـ محنة ابن الخطيب

إنّ هذا السّلطان لقّب بذي الدّولتين لأنّه ولّى الملك مرّتين. بويع أوّلا بطنجة في شهر ربيع الآخر سنة 775هـ ثمّ بويع البيعة العامّة بالمدينة البيضاء بفاس بعد استيلائه عليها من محرّم سنة 776هـ.

ولقد استحكمت المودّة بينه وبين ابن الأحمر الذي كان ساعده وأعانه وطلب منه تسليمه ابن الخطيب الذي كان فرّ من غرناطة وبعث وزيره أبا عبد الله بن زمرك أحد تلامذة ابن الخطيب يسأله تمكينه من ابن الخطيب الذي كان أفتى الفقهاء بقتله لما قاله في كتبه في أمر الدّين... وفي سلطانه الغنيّ بالله فاستدعاه السّلطان في مجلس خاصّته من الفقهاء وطلب بإقامة الحدّ عليه وسجنه وجاءه جمعٌ من حاشية الوزير سليمان بن داود ودخلوا السّجن فقتلوه خنقا في محبسه ونكبوا أهله ودفن ثمّ أحرقوه وأعادوا دفنه في مقبرة باب المحروق بغرناطة وكانت نهاية محنته في عهد السّلطان أحمد وكان ذلك أوائل سنة 776هـ.

ب ـ فتح تلمسان

ونهض السّلطان أبو العبّاس بعد ذلك إلى تلمسان وقد فرّ من جديد عنها أبو حمّو فدخلها وملكها واستقرّ بها سنة 785هـ وحصلت جفوة بين ابن الأحمر وأبي العبّاس فانتهز ابن الأحمر تغيّب أبي العبّاس بتلمسان وبادر بتسريح موسى ابن السّلطان أبي عنان إلى المغرب وكان عمّه بالأندلس فنزل بالمغرب وتقدّم إلى فاس واستقرّ بها بمبايعة المرينيّين شيعة ابن الأحمر ولما بلغ الخبر السّلطان أبا العبّاس توجّه إلى فاس وأقام بتازا فبعث موسى بن أبي عنان من أتاه بالسّلطان أبي العبّاس في الأمان فقبض عليه وقيّده وبعث به إلى ابن الأحمر فبقي عنده ولقد احتفظ به الغنيّ بالله واحتاط عليه إلى أن أعاده إلى المغرب من جديد في فرصة أخرى.

وكانت مدّة دولة السّلطان أبي العبّاس الأولى عشر سنين وشهرين و24 يوما.

ج- السّلاطين المحجوب عليهم والدّولة الثّانية لأبي العبّاس أحمد

وبعد السّلطان المتوكّل على الله موسى بن أبي عنان الذي توفّي إثر مرضه سنة 788هـ، ولي الأمر بعده السّلطان أبو زيّان محمّد بن أبي العبّاس بن أبي سالم بن أبي الحسن سنة 788هـ وسنه خمس سنوات ولقد خلع بعد أربعين يوما وبويع الواثق بالله أبو زيّان محمّد بن أبي الفضل بأمر الوزير مسعود بن ماساي الذي سارع بخلع سلطانه الواثق سلطانه الواثق وإعلان مبايعة أبي العبّاس أحمد من جديد فكانت الدّولة الثّانية له سنة 789هـ.

وتوفّي في طريقه لفتح تلمسان والبلاد الشّرقيّة فاتح سنة 776هـ وسنّه 39 سنة وكانت مدّة دولته الثّانية ستّ سنين وأربعة أشهر.

11 ـ انحطاط الدَّولة المرينيَّة

دخلت الدّولة المرينيّة بهذا السّلطان ذي الدّولتين أبـي العبّاس أحمد في طور الانحدار والانحطـاط ولم يعُـدْ هنـالك جهادٌ أو توجّه للقتال بالأندلس فقـد كـان السّـلطان الغنـيّ بالله بن الأحمر أسقط رئاسة الجهاد من بني مريـن رسميًّـا من مملكتهم وباشر أمره بنفسه واستمرّ الحال على ذلـك إلى أن هلك سنة 793 فولي أمر غرناطة ابنه أبو الحجّاج يوسف وبايعه النّاس وقام بأمره خالد مولى أبيـه وتـآمر عليـه أهـل قصره ففتك بهم ثمّ هلك سنة 794هـ وخلفه ابنه محمّد.

12 ـ نوعيّة العلائق بين بني الأحمر والمرينيّين

كانت العلائق دوما متوتّرة تتّسم بالجفاء والنّفاق فلقد ذكر منويل القشتلي في كتاب له ما يلي: "كانت مراسلات السّلطان المريني يعني السّلطان أبا العبّاس مع السّلطان يوسف بن الغني بالله صاحب غرناطة حسنة في الظّاهر تدلّ على الموافقة والمحبّة. وكان المريني في الباطن يحبّ الاستيلاء على مملكة غرناطة ولمّا لم يمكنه ذلك بالسّيف عدل إلى إعمال الحيلة فأهدى إلى السّلطان أبي الحجّاج كُسًى رفيعة أحدها مسمومة فلبسها فهلك لحينه. ومع ذلك فلم يُدرك المريني غرضه فإنّه لم يلبثْ إلاّ يسيرا حتّى توفّى أيضا"[1].

---

[1] ـ النّاصري الاستقصاء. ج 4. ص 8.

13 ـ تراجع الدّولة المرينيّة وانقراضها

لقد ولي الأمر بعد السّلطان المستنصر بالله أبي عامر بن أبي العبّاس أخوه الابن الثّالث لأبي العبّاس السّلطان أبو سعيد عثمان سنة 801 وسنّه آنئذٍ ستّ عشر سنة فحجب عليه أبو العبّاس القبائليّ وفي عهد. حدثتْ الفتنة بينه وبين السّلطان أبي فارس الحفصي الذي زحف إلى المغرب سنة 827هـ حسب الزّركشي وفي عهده استولى ملك البرتغال خوان الأوّل على مدينة سبتة وقويت شوكة البرتغاليّين وهجموا فيما بعد مرّتين على طنجة وتمّ الاستيلاء عليها في عهد السّلطان عبد الحقّ بن أبي سعيد بن أبي العبّاس ثمّ التّراجع عنها. وحاول الوزراء من بني وطّاس ذي الأصول المرينيّة الاستيلاء على السّلطة فنكبهم السّلطان عبد الحقّ وأسند الرّئاسة والوزارة إلى يهوديين: هارون وشاويل لعدم ثقته في المرينيّين وبني وطّاس وفي سنة 869هـ زحف البرتغاليّون إلى طنجة من سبتة واستولوا عليها. وثارت الرّعيّة على السّلطان عبد الحقّ بن أبي سعيد وقتلوه.

وفي أواخر القرن الخامس عشر سنة 1498هـ استولى القشتاليّون على غرناطة وسائر الأندلس وكان المرينيّون

آنذاك ضعفاء لا حول ولا قـوّة لهـم ولم يتمكّنـوا مـن نجـدة المسلمين وبني الأحمر وتمكّن البرتغاليّون من الزّحـف علـى ثغور مغربيّة والسّيطرة عليهـا واسـتولوا علـى مدينـة آنفـي وأصيلا سنة 894هـ وكان قد قُتل عبد الحقّ ثمّ خُلع حفيـده وتولّى الأمر أبو عبد الله محمّد الشّيخ الوطّاسي وبنو وطّـاس فرقة من بني مرين بدأت دولتهم مع السّلطان أبي عبد الله محمّد الشّيخ بن أبي زكريّاء الوطّاسـي حـوالي سـنة 892هـ بأصيلا قبـل أن يتملّكهـا البرتغـاليّون. ثـمّ توجّـه إلى فـاس وحاصرهـا فخـرج منهـا السّـلطان الحفيـد ودخلهـا الشّـيخ محمّد الوطّاس سنة 896هـ في أوائل شوّال وهو المُورّثُ الملـكَ لبنيه: بني الوطّاس والقاضي على الدوّلة المرينيّة بالمغرب.

14 ـ خاتمة

إنّ العلاقات العدائيّة المتوتّرة دومًا بين بني الأحمر والمرينيّين والسّياسة الغير المتبصّرة لملوك غرناطة لعبت دورا كبيرا في إضعاف الدّولتين المرينيّة ومملكة غرناطة والتّعجيل بسقوطهما. فحرصُ بني الأحمر على التّدخّل في الشّؤون المرينيّة والتّآمر على السّلاطين المرينيّين والتّحالف مع القشتاليّين ـ في دون وعي ـ للنّيل من القوّة المرينيّة والحدّ من توسّعها بإسبانيا والأندلس كان العامل الرّئيسيّ في الإخلال بتوازن القوى بالمنطقة وإضعاف المرينيّين وبالتّالي القضاء عليهم. فلمْ يعِ مُلوكُ بني الأحمر أنّ مناعة الأندلس وغرناطة في قوّة الدّولة المرينيّة المُنجِدة دائما والتّحالف معها على الدّوام.

وليس من باب الصّدفة أن يتمّ القضاء على غرناطة في نفس السّنة التي تمّ فيها القضاء على الدّولة المرينيّة سنة 1498م فتلازم المصيرين كان حتميًا وذاك قدرُ دولة الأندلس الإسلاميّة منذ نشأتها بأن يكون مصيرها مرتبطا بشبه الجزيرة المغاربيّة: إفريقيّة والمغرب الأقصى خاصّة وقدرُ المغرب بأن يكون الحامي لظهر الدّولة الأندلسيّة والضّامن مع أبنائها وتبصّرِ ملوكها لسلامتها ومناعتها.

فهل يعيد التّاريخ نفسه مع دولنا العربيّة الإسلاميّة المهدّدة بالمشرق عامّة وبالأرض المقدّسة خاصّة؟

الباب الثّاني

العلاقات القطلانيّة- المرينيّة في القرن الرّابع عشر

1 ـ تطوّر العلاقات الإسبانيّة المغربيّة

كانت إسبانيا المسيحيّة في النّصف الأوّل من القرن الثّالث عشر تأمل في استرجاع الأندلس والاستيلاء على كلّ الثّغور والحصون الإسلاميّة بإسبانيا، وتمنّي النّفس بالنّزول بالشّواطئ والمراسي المغاربيّة على البحر الأبيض المتوسّط والتّغلغل في إفريقيا الشّماليّة. وكانت معاهدة بلنسيّة بين قشتالة وأراغون بعد معركة زلاّقة وانهزام المسلمين. ولقد اتّفق فيها الملكان على تقاسم بلاد المغرب العربيّ وعلى أسلوب السّيطرة عليها وطريقة استغلال ثرواتها. وكان الاتّفاق على أن تكون المغرب مع مملكة غرناطة من نصيب قشتالة وتلمسان وإفريقيّة من نصيب ملك أراغون وقطلانيا.

وكان جاقمو الثّاني قد استطاع السّيطرة على صقلّيّة واسترجاع ميورقة ومينورقة. ومهّد للدّخول إلى إفريقيّة باحتلاله سنة 1284م جزيرة جربة وسنة 1285م جزر قرقنة. ولكي يُحقّق جاقمو حلم والده بترو الثّالث وجدّه جاقمو الغازي رأى هذا الملك أنّ من مصلحته مهادنة مُنافسه ملك قشتالة صانشو الرّابع وإبرام معاهدة معه تسمح له باقتسام الهيمنة على الدّول المغاربيّة وحوض البحر الأبيض

المتوسّط. وكان تحــالفُ منتيقـودو سـنة 1291م Monteagudo فلقد تحوّل ملك أراغون في شهر نوفمبر ديسمبر سنة 1291م وكان سِنّه آنذاك 24 سنة ولم يزل حديـث العهـد بـالملك. والتقى بصانشو الرّابع ملك قشتالة واتّفق معه على السّياسة التي ينبغي اتّباعها مع دول بلاد المغرب. وتمّ الاتّفاق علـى أن تواصـل قشـتالة احتـلال الممـالك الإسـلاميّة الإسـبانيّة ومحاصَرة غرناطة واعتبار المغرب الأقصى امتدادا للأندلس، ومواصلة الإغـارة عليهـا لاحتلالهـا حتّـى يمكـن اسـترجاع الأندلس بأكملها وهزم الإسلام بها. وفي المقابل يبقى المغرب الأوسط وإفريقيّة: تونس وبجايـة إلى طرابلـس تحـت تأثـير أراغـون وتحـت تصرّفـه مـع جـزر حـوض البحـر الأبيـض المتوسّط. وعلى هذا الأســاس يبـدو التّـاج الأراغونـي مُسـالما للمغرب الأقصى وعاملا على التّحالف مع المرينيّين ومناوئـا لتلمسان والحفصيّين بإفريقيّة. ويكون الهدف من كـلّ ذلـك تحقيق السّيطرة الكاملة على شبه الجزيرة المغاربيّـة ونهـب خيراتها وأموالها عن طريق التّجارة والقطع.

وقامت الحرب بين قشـتالة والمرينيّين سنـة 1291م – 1295م من أجل سـبتة وجبـل طـارق والـتزم جـاقمو الثّـاني الحياد بـل طلـب مـن صانشـو الرّابـع ملـك قشـتالة قبولـه

مفاوضا متوسّطا محايدا بينه وبين السّلطان المرينيّ، يتوسّط بينهما لتحقيق الصّلح. وفي سنة 1292م تمّ عمليّا توزيع الأدوار فقام القشتاليّون بالاعتراض للأساطيل المرينيّة في جبل طارق ووضع صانشو الرّابع خطّة للهجوم على المرينيّين وإيقاف توسّعهم. فتحالف مع بني عبد الواد بتلمسان ومع بني الأحمر بغرناطة وهاجم مدينة طريف مفتاح البلاد الإسبانيّة. وساعده القطلانيّون بطريقة غير مباشرة بمنعهم المدد للمرينيّين. فلقد اعترض الأسطول الأراغوني بقيادة "جبنيدا يتُوزكريا" بالمضيق سبيل كلّ نجدة قد تصل إلى طريف[1] وبذلك قام جاقمو بالدّور الدّيبلوماسي وبالتّفاوض مع المرينيّين والقشتاليّين وطالب بنو الأحمر بالسّيطرة على طريف التي تمّ احتلالها مثلما كان وعدهم به ملك قشتالة. فرفض القشتاليّون وتفطّن بنو الأحمر إلى خديعتهم وإلى المؤامرة التي كانوا ضحيّتها مع المرينيّين. وهذا الدّور يكشف حقيقة السّياسة التي كان ينتهجها القشتاليّون والقطلانيّون على حدّ السّواء مع الملوك المسلمين بالمغرب رغم الحياد الذي كان تعهّد به رسميّا ملك أراغون.

---

[1] ـ ابن خلدون: التّاريخ. ج 4. ص 138.

وكانتْ الدّولة المرينيّة طيلة القرن الرّابع عشر ميلادي ضحيّة هذا التّحالف الخفيّ من بني الأحمر وبني عبد الواد الأعداء التّقليديّين والمنافسين الدّائمين للمرينيّين. غير أنّ القطلانيّين بأراغون – المنافسين لقشتالة والمحترزين من تقدّمها وتوسّعها والشّاعرين بخطر ملك قشتالة الحادّ من تضخّم أراغون بإسبانيا وعلى شواطئ البحر الأبيض المتوسّط – أدركوا سلبيّات هذه السّياسة على الدّولة الأراغونيّة ومردودها المحدود وإيقافها للتّوسّع الإمبرياليّ الأراغوني المنشود. وقرّر لذلك جاقمو الثّاني سحب أسطوله من مضيق طارق والتّراجع عن مساعدة صانشو الرّابع المباشرة ولا سيّما أنّه لم يقم بدفع المبالغ الماليّة الضّروريّة لعمارة الأسطول وتجهيزه وكان مشغوفا بالحصول على الأموال وجني المرابيح من كلّ صفقة يقوم بها.

وقرّر لذلك التّوجّه إلى المرينيّين وتوسيع تجارته معهم عن طريق التّجّار القطلانيّين أوّلا وكراء المراكب والأجفان ثانيا. وكان تسويغ المراكب يمثّل عنصرا أساسيّا في سياسته وعلاقاته مع المرينيّين وهي السّياسة نفسها والقاعدة ذاتها التي اتّبعها ابنه بترو الرّابع بعده مثلما كانا يتصرّفان مع الحفصيّين والزّيانيّين بتلمسان.

2 ـ العراقيل الدّائمة في وجه السّياسة المرينيّة والسّلاطين الحازمين

أ ـ كان البابا بروما والنّصارى بإسبانيا يعتبرون المغرب الأقصى امتدادا طبيعيّا لشبه الجزيرة الإيبيريّة وإسبانيا ولذلك كانوا يحرصون بعد إعادة احتلال الأندلس على توفير ظروف الاستيلاء عليه وخاصّة على موانيه ومراسيه المتوسّطيّة والمقاطعات الحدوديّة الشّماليّة مثل الرّيف وسبتة وسلا. ولقد كانت كلّ مخطّطات البابا[1] وسياسته توصي الملوك المسيحيّين خاصّة ملك قشتالة وملك أراغون بالاحتياط والانقضاض على المرينيّين وإضعاف شوكتهم في كلّ فرصة سانحة وعدم التّردّد في القطع والإغارة على المراسي وتخليص الأسرى المسيحيّين وتقريب فرصة القضاء على مملكة غرناطة آخر الممالك الإسلاميّة المهدّدة للقشتاليّين ولتوسّعهم والعائق الكبير في طريق هزم النّصرانيّة

---

(1) ـ A.C.A : الأرشيف الأراغوني: رسائل سانشو الرّابع إلى جاقمو الثّاني سنة 1294. دفتر 555–554 حول التّخطيط لمهاجمة المرينيّين وإعداد أسطول قوي

ـ رسالته في 8 جويلية 1294م إلى السّلطان عبد الحقّ : .A.C.A الخاصّة بعلاقاته بصانشو ومحمّد الثّاني ملك غرناطة.

للإسلام والقضاء عليه بشبه الجزيرة الإسبانيّة فكان لذلك هذا التّحالف الدّائم بين الملوك النّصارى بإسبانيا والبرتغال الظّاهر والخفي والتّخطيط المتواصل بإيعاز من البابا ومباركته لإضعاف المرينيّين ومهاجمتهم والانفراد ببني الأحمر وملوك الطّوائف القائمين[1].

ب ـ عداوة المرينيّين الشّديدة لبني عبد الواد وإصرارهم على احتلال تلمسان وعلى التّحالف مع العدوّ للقضاء عليهم. فهذه السّياسة جعلتهم يقعون في الفخّ ولا يتفطّنون لألاعيب العدوّ ومخطّطاته ولا يستطيعون التّفرّغ دوما لردّ هجمات القشتاليّين والملوك النّصارى بالأندلس ويغفلون عن أبعاد سياستهم الخاصّة بالمسلمين.

ج ـ إنّ طموحهم الكبير أو رغبتهم في التّوسّع إلى الأندلس وكلّ البلاد المغاربيّة جعلتهم يكوّنون في حرب دائمة مع أجوارهم المسلمين بني عبد الواد وبني الأحمر أحيانا وتفقد قوّتهم جدواها وفاعليّتها.

فقلد توجّه غالب السّلاطين ـ لاسيّما الأقوياء العظماء ـ

---

(1) ـ .A.C.A: رسائل جاقمو الثّاني إلى البابا سنة 1203 و 1304 . الأرشيف: دفتر رقم 324. ص 185.

إلى تلمسان وعمدوا احتلالها والسّيطرة على كامل المغرب الأوسط وهو ما منعهم من القيام بدورهم التّاريخيّ والطّبيعيّ المتمثّل في حماية الأندلس ودعم المسلمين بها بل جعلهم يكونون فيما بعد أيّام انحطاط الدّولة لقمة سائغة في متناول العدوّ بل في متناول الملكة المسيحيّة الجديدة النّاشئة الملكة البرتغاليّة التي استطاعت في القرن الخامس عشر احتلال قسم من المغرب.

د ـ إنّ السّياسة الغير متبصّرة لملوك بني الأحمر ساهمت في إضعاف المرينيّين وعدم تمكينهم من نصرة الإسلام والمسلمين بالأندلس دائما وأبدا بل ساعدت الأعداء المسيحيّين والقشتاليّين خاصّة على الالتفاف على المرينيّين والانفراد بهم وطردهم من طريف وسبتة وجبل طارق المرّات العديدة بعد افتكاك إشبيليّة ومربيلا ودانية ودعم نفوذهم بقرطبة والممالك المجاورة.

فخوفا من المرينيّين وسياستهم التّوسّعيّة، عمد بنو الأحمر إلى التّحالف مع القشتاليّين ومساعدتهم في حروبهم ضدّ المرينيّين وإضعاف شوكتهم مثلما حدث في حرب السّلطان أبي الحسن المريني ـ أعظم سلاطين الدّولة المرينيّة ـ

في حربه مع القشتاليّين والبرتغاليّين وانهزامه في طريف والجزيرة الخضراء ومقتل ابنه أبي مالك وتمّ ذلك بفضل مساعدة بني الأحمر وغدرهم رغم الحلف الذي كان قائما بين ملك غرناطة، ابن الأحمر والسّلطان المرينيّ ونجدته السّابقة له. فهذا التّآمر المتواصل للملوك بني الأحمر وحرصهم على التّوسّع ـ عن طريق المرينيّين ـ واستغلالهم لفائدتهم دون التّعامل معهم بصدق وعلى أساس أبعاد واضحة ومخطّط جليّ ـ مثلما فعل النّصارى ـ كان سببا رئيسيّا في إضعاف المرينيّين وعدم قدرتهم على المحافظة على تفوّقهم وتقدّمهم وعرقلتهم لزحف نصارى إسبانيا: قطلانيّين وقشتاليّين.

هـ ـ إنّ هذا الوضع المهدّد للكيان المرينيّ: خطر التّقدّم القشتالي، خطر التّهديد الغرناطي وتآمر ملك بني الأحمر المتواصل وخطر الأجوار بالشّرق وأبناء العمومة الزّيّانيّين المتربّصين في كلّ حين وآن والمدافعين في الواقع عن وجودهم وكيان دولتهم[1]، جعل المرينيّين يبحثون عن التّحالف مع

---

[1] ـ رسالة يعقوب إلى جاقمو الثّاني ورسالة السّلطان يوسف إليه الخاصّتين بالتّحالف معه: الأرشيف الأراغوني دفتر 555. أنظر قسم الوثائق: عدد 84 و97.

أراغون والقطلانيّين وهو ما سعى إليه كذلك جاقمو الثّاني خدمةً لأغراض النّصارى وأهداف سياسته المتمثّلة في دعم سلطته بالبحر الأبيض المتوسّط والاتّجار مع المرينيّين وإثراء خزانته وتقوية أساطيله بما يجنيه من أموال وإيتاءات.

و - يضاف إلى هذه العوامل التي حدّت من قوّة هذه الدّولة وسطوتها الفتن الدّاخليّة والدّسائس المخزنيّة التي كان يقوم بها الأمراء والشّيوخ المرينيّون والوزراء المتلهّفون على السّلطة والثّائرون دوما على السّلاطين لا سيّما الضّعفاء من بينهم والفتيان والصّبيان الذين كانوا يعمدون إلى تنصيبهم للحجب عليهم والانفراد بالحكم.

فكان لهذه الفتن والمؤامرات دخل كبير في إضعاف الدّولة المرينيّة وتمكين العدوّ القشتاليّ منها بل في القضاء على الدّولة نفسها في أواخر القرن الخامس عشر.

ز - انتهج ملك أراغون منذ بداية القرن الرّابع عشر[1] سنة 1309م سياسة تمثّلتْ في تشجيع السّلطان المرينيّ على اتّخاذ حرس خاصّ قطلانيّ مسيحيّ بقصره وجيشه برئاسة قائد قطلانيّ لحمايته والدّفاع عنه والمشاركة في حروبه

---

(1) - معاهدة مع السّلطان المريني ومراسلته له. اُنظر قسم الوثائق.

مقابل أجر باهظ يدفعه إليه دفعة واحدة وجراية شهريّة لجند الحرس. وكان لملك أراغون على هذا الفيلق تأثير كبير ونفوذ واسع.

فعن طريق هذا الحرس وبفضل هذه السّياسة التي كان اتّبعها مع بني عبد الواد والحفصيّين استطاع ملك أراغون التّدخّل في الشّؤون السّياسيّة للدّولة المرينيّة والتّأثير على السّلاطين في اتّخاذ بعض القرارات والمواقف الهامّة. بل إنّ قادة هذا الحرس نراهم كثيرا ما تدخّلوا في تنصيب السّلاطين واغتيالهم وتعويضهم بآخرين مع التّعاون مع بعض الوزراء الطّموحين والمتآمرين والمستبدّين. فساهم هذا الوضع في إضعاف الدّولة المرينيّة وتعجيل نهايتها.

ن ـ وأخيرا كانت هذه السّياسة إلى جانب العمل المتواصل على دفع السّلاطين لكراء المراكب مع الحرص على توفير الأمن للتّجّار القطلانيّين والمسلمين العمود الفقريّ لهذه العلاقات ـ القطلانيّة المرينيّة ـ في القرن الرّابع عشر ميلادي.

3 ـ ركائز السّياسة الإسبانيّة بالمغرب حوالي سنة 1310م

أ ـ فشل السّياسة القشتاليّة القطلانيّة

إنّ التّحالف التي تمّ سنة 1309[1] بين أراغون وقشتالة والمغرب في عهد السّلطان أبي ربيع ضدّ غرناطة وبني الأحمر لم يُفلح ولم يجن منه المسيحيّون ثمرتهم المرجوّة ولم يقرّبهم من هدفهم المنشود: إضعاف المرينيّين والقضاء على بني الأحمر. فلقد تمكّن المرينيّون بفضل هذه المعاهدة من استرجاع سبتة والجزيرة الخضراء ورندة وترضية بني الأحمر والتّحالف معهم. فالمناخ الأمني الذي تحقّق دفع غرناطة إلى استرضاء المرينيّين وطلب التّحالف معهم.

فاحتلال قشتالة لجبل طارق لم يسمح بإيقاف تصاعد القوّة المرينيّة وإزدهار الدّولة الإسلاميّة المغربيّة كما أن تعهّد[2] غرناطة بدفع غرامة حربيّة قدرها خمسون ألف

---

(1) ـ تعليمات الملك لقائد البحريّة هذا سنة 1310م: رسائل أفريل رقم 4736489. كتاب التّاج لجيمانز سولار La Corona de Gimenz Soler. ج 3. ص 472.

(2) ـ نفس المصدر.

دينارا وإيتـاء سنوي يقدّر بـ 11000 دينـارا مـن مداخيـل التّجارة مع قشتالة وبالتّالي إقرار التّبعيّة لهـا لم يُفد الملك القشـتالي فرديـنان الرّابـع ومخطّطاتـه الدّينيّـة الهادفـة إلى القضاء علـى الإسـلام والمسـلمين بـالأندلس. وإنّ الأسـاطيل الـتي أذن لرئيـس البحريّـة الأمـيرال القشـتالي[1] "قَسـتلنُو" بإعدادهـا بـأحواض إشـبيليّة، المركـز الصّنـاعي الأساسـي للمراكـب والأجفـان القشـتاليّة، لم تسـتطع خدمـة أهدافـه وأغراضه فقرّر اتّباع سياسة أخرى هجوميّة ودفاعيّة مباشرة إذ رغم الأربـاح المادّيّـة الـتي حصـل عليهـا، رأى التّوسّـع المرينيّ متواصلا وقوّتها العسكريّة والبحريّـة في تنـامٍ بفضـل صناعـة المراكـب المزدهـرة بسـلا منـذ عهـد السّلطان أبـي يعقوب والسّلطان يوسف.

ب ـ خيبة أمل القطلانيّين وموقف ملك أراغون

وكانت خيبة أمل جاقمو الثّاني أقوى وشعوره بالهزيمة والإحباط الشّخصيّ أعظم فهو لم يستطعْ أن يجنِيَ شيئا من معاهدة 1309م وتحالفه مع قشتالة والمغرب فلم يحصل على

---

(1) ـ أبـو ربيـع خلـف أخـاه أبـا ثـابت (708–710) حفيـد السّـلطان : يوسف.

أموال أو على مدن وحصون وخاصّة مقاطعة "المرية" التي كان يُريد الحصول عليها وضمّها لملكته. فسياسة الدّعم لقشتالة والدّوران في فلكه لا يمكن في نظره أن تعود عليه بأيّ فائدة ولا يمكن أن تخدم إلاّ مصالح قشتالة وقرّر لذلك سياسة شخصيّة مع المرينيّين تُقرّبه من أهدافه: تُثْري خزائنه وتدْعم دولته وتساعد على توسّعها وتجعل من أراغون أقوى دولة بحريّة في العالم يهَابُها الجميعُ: مسيحيّون ومسلمون[1].

وكان يأمل أن يحقّقَ هذا الهدف بفضل معاهدة "منتيقودو" لسنة 1291م التي تمّ بموجبها تقسيم شمال إفريقيا إلى مناطق نفوذ وتمكين أراغون من بسط سيطرتها على إفريقيّة وتلمسان وترك المغرب لقشتالة.

ـ والملاحظ أنّ هذه المعاهدة تدعّمت وخلفتْ تقاليد تقاسم المنطقة وتواصلت إلى ما بعد قرنين آخرين ففي سنة 1494م في آخر أيّام الدّولة المرينيّة أعطى البابا الكسندر

---

(1) ـ نصّ 15 ديسمبر 1291م بـ .A.C.A: الأرشيف الأراغوني رقم 555. سجلّ 55. برانشفيك الجزء الأول. بلاد البربر. La Berberie. T 1, 4, 107. ط. باريس.

السّادس لملك أراغون الحقّ في احتلال تونس وبجاية والجزائر وبارك سياسته.

لكن في بداية القرن الرّابع عشر اتّبع جاقمو الثّاني ملك أراغون سياسة مخالفة لا تتمثّل في الاحتلال المباشر بل العمل على التّغلغل التّدريجيّ في الدّولتين والسّيطرة على مداخيل ديوانتهما وكانت هذه السّياسة ناجحة ومفيدة مع الحفصيّين والزّيّانيّين بني عبد الواد.

وبعد الإخفاق الذي لمسه[1] في مجاراته لسياسة قشتالة قرّر انتهاج هذه السّياسة نفسها مع المغرب ومحاولة تشجيع القطلانيّين على الاتّجار معه وعلى التّغلغل في الدّولة والمخزن المغربي عن طريق الحرس المسيحيّ القطلانيّ وكراء المراكب والتّجارة تصديرا وتوريدا.

وإنّ المعاهدة التي أبرمها جاقمو الثّاني مع السّلطان أبي ربيعة (708هـ ـ 710هـ) في شهر جويلية سنة 1309م فتحت عهدا جديدا مع المغرب وعلاقات جديدة قائمة على

---

(1) ـ A.C.A. R. 336. P. 6 ـ الأرشيف الأراغوني: سجلّ 336 ص 6. Dufourq. ص 454. ابن خلدون: التّاريخ. ج 4. ص 186.

التّعاون والتّغلغل التّدريجيّ مع تجنّب الاصطدام ولا سيّما أنّ سلطان المغرب استطاع استرجاع سبتة وإلغاء كلّ التزامات المغرب السّابقة مع السّلطان يوسف المتمثّلة في تمكين أراغون من إيتاء 000 50 دينار المطالب بها والي سبتة وقسمٍ من الغنائم والأموال المتحصّل عليها من عمليّة الغزو والفتح. وكان السّلطان يوسف تعهّد بذلك في مقابل مساعدة أسطول المغرب بالنّزول بمرسى سبتة واحتلالها.

وكان السّلطان أبو زبيعة علّل موقفه بسبب مساعدة أراغون لقشتالة في هجومها على الجزيرة الخضراء واحتلالها فكانت النّتيجة لأراغون خسارة ماديّة كبيرة: تجهيز مراكب لمساعدة قشتالة في حربها بدون مقابل ومساعدة المرينيّين بدون الحصول على أيّ غرامة. فلامَس جاقمو الثّاني الملهوف دوما على الأموال الخسارةَ واعتبر قشتالة سبب هذه الخيبة لذلك نراه عمد إلى إقناع قشتالة بعدم المجازفة والإصرار دوما على السّيطرة على المضيق وجبل طارق والتّراجع عن كلّ سياسة هجوميّة وتوسّعيّة في هذه المنطقة.

ج ـ الخلافات المغربيّة والفتن الدّاخليّة ومخطّطات قشتالة الهجوميّة والتّوسّعيّة.

نشبت خلافات بين السّلطان أبي ربيعة ووزيره الخطير رحوَ بن يعقوب الوطاسي ـ أصيل فرع منافس من فروع القبائل المرينيّة المنافس لقبيلة عبد الحقّ السّلطان المؤسّس للدّولة المرينيّة ـ المساند لبني الأحمر وسفيرهم بفاس. وقد نتجت عن تلك الخلافات حروب ـ ومبايعة أمير منشقّ عن فاس هو عبد الحقّ بن عثمان ـ تواصلتْ إلى ما بعد موت أبي ربيعة وتولّى خليفته السّلطان أبي سعيد الحكم بمبايعة شيوخ المرينيّين وعلمائهم. وتطوّرت هذه الفتن بمساعدة الحرس الإفرنجي وقائده قُنْزَالُو صانْشِيسْ دِي تَرَوَنْكُونْس Gonzalo Sunchez[1] وأكّد المؤرّخون الإسبان[2] أنّ هذا التّدخّل المسيحيّ كان بإيعاز من فردينان الرّابع ملك قشتالة. وكاد ينجح لّما انضمّ إليه بنو عبد الواد لإضعاف فاس وأعلنوا مبايعة السّلطان المنشقّ بتازا. غير أنّ المرينيّين

---

(1) ـ ابن خلدون التّاريخ: ج 4. ص 185. روض القرطاس. ط. هويسي سنة 407هـ. دوفيورك: إسبانيا القطلانيّة والمغرب ص 456.

(2) ـ كرونيكا دو ألفنسو. فصل 11. ص 224.

استطاعوا هزم هذا التّحالف القشتالي الزّيّانيّ الغرناطي مع منشقّي تازا وطرد رئيس الحرس المسيحيّ الذي فرّ إلى غرناطة.

وكان ملك قشتالة حصل على وعد من سلطان تازا بالحصول على 200 000 دينار ذهبيّ واسترجاع الجزيرة الخضراء من المرينيّين.

وكان فردينان الرّابع طلب من جاقمو الثّاني مساعدته لتحقيق هذا الهدف وضرب المرينيّين ضربة موجعة فرفض جاقمو ولم يمدّه بالأسطول المطلوب واعتبر العمليّة مغامرة لا تخدم مصالحه واتّهم ملك قشتالة الملك جاقمو الثّاني، بتجاهل مصالح المسيحيّة وخذلان سياسة الدّين المسيحيّ[1] العليا. فأكره لذلك فردينان على التّراجع والإقلاع عن محاصرة الجزيرة ففشل التّحالف وأخفق المناوئون والمعارضون وتوفّق السّلطان الجديد الذي خلف أبا ربيعة أبو سعيد في القضاء على الفتن وتثبيت حكمه وطرد

---

[1] - رسائل جاقمو الثّاني سنة 1311 إلى فردينان الرّابع: الأرشيف الأراغوني A.C.A. P. 336 سولديفيلا. تاريخ إسبانيا: ج 2. ص 20. دوفرك: ص 457.

النّصارى المتآمرين والتّغلّب كذلك على ابنه أبي عليّ الـذي حاول الاستبداد بالحكم دون أبيه. وتجدّد الحلف بين المرينيّين وجاقمو الثّاني وقويت سلطة المغرب على الثّغور والحصون الإسلاميّة بإسبانيا والتفت ملك قشتالة إلى غرناطة.

وهكذا فشلت قشتالة في استغلال الفتن الدّاخليّة التي ظهرت بالمغرب وفي إنشاء حلف قويّ ضدّ المرينيّين فغرناطة نفسها أعلنت مهادنتها للمرينيّين وتحالفها معهم بعد قرار السّلطان أبو سعيد التّنازل طوعا عن بعض الحصون الأندلسيّة لفائدة بني الأحمر بما فيها مدينة الجزيرة الخضراء حتّى يحفظ المغرب من كلّ هجوم إسبانيّ ويعتبر المضيق حدا طبيعيّا بين البلدين. فلقد راجع أبي سعيد سياسة المرينيّين التّقليديّة وحدّ من طموحهم وفضّل الاهتمام بداخل المغرب والالتفات إلى أعدائه ومنافسيه التّلمسانيّين بني عبد الواد. وكلّف ابنه أبا عليّ بغزو تلمسان. وتمّ ذلك بمباركة حليفه الجديد جاقمو الثّاني الذي اختار ــ كما تقدّم ــ مواصلة سياسة التّحالف القطلانيّ المرينيّ التي انتهجها السّلطان العظيم يعقوب وابنه السّلطان يوسف.

د ـ السّياسة السّلميّة لملك أراغون مع المغرب والتّعامل التّجاريّ معه

لَمْ يَعُد جاقمو الثّاني يستغلّ مثل ملكِ قشتالة الخلافات والفتن الدّاخليّة المغربيّة لفائدته وللتّدخّل في المغرب. فصارت أهدافه ماليّة إمبراليّة ترمي إلى تحقيق التّفوّق التّجاريّ والاقتصاديّ وتنمية ثروات أراغون وتوسيع نفوذها بدون تدخّل مباشر واصطدام مع أحد. لكن دون أن يتجاهل أبعاد سياسة الكنيسة وأغراضها الصّليبيّة[1].

ففي رسالة هامّة للبابا سنة 1311م ـ وكان هذا الأخير يرغب في القيام بحرب صليبيّة جديدة لاحتلال فلسطين ـ ذكر له أنّه ينبغي أوّلا الاستيلاء على الجزر المرحليّة المتوسّطيّة، سردانيا والبليار، وميورقة ومينورقة وصقلّية ثمّ غرناطة وكامل بلاد المغرب. وبعد ذلك يمكن الانطلاق من قاعدة صلبة والوصول إلى الأرض المقدّسة، فلسطين، بكامل السّهولة. فهو يتبنّى مخطّط رجل الدّين والسّياسة رامون لُول ويتراجع عن الأهداف الأساسيّة للكنيسة. ويتّضح هنا أنّ الهدف الأسمى للقطلانيّين تمثّل في السّيطرة الكاملة

---

(1) ـ الأرشيف الأراغوني: A.C.A. R. 336. f°. 78.

على كلّ الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسّط. وفي هذا الإطار حافظ جاقمو الثّاني على علاقاته مع المرينيّين وحرص على دعمها.

لقد حاول جاقمو الثّاني الحصول من السّلطان أبي سعيد على بعض الامتيازات التي حرمته منها السّياسات القديمة وفاوضه في ذلك سنة 1323م رسوله: روميو دوكربيرا" Corbera[1] لكن بدون جدوى. ورفض أبو سعيد التّنازل عن أيّ شيء مع إبداء استعداده لمساعدته على احتلال سردانيا دون دفع أموال أو التّفريط في فيلق الحرس المسيحيّ.

وواصل مهمّة التّفاوض والتّدخّل لصالح البلدين القائد برنَات سِقي Bernat Segui السّفير الرّسميّ لملك أراغون بفاس فحقّق التّقارب القطلانيّ المرينيّ. وبعد وفاته واصل عمله قوّادٌ آخرون من عائلته: بار سيقي، وجوم سيقي، وجم دوكنسار وبار مولنار وَقَوِيَ بفضل ذلك التّأثير القطلاني على المخزن المغربي والبلاط السّلطاني. ونشأت

---

(1) ـ رسالة 13 مارس 1323م بالأرشيف الأراغوني رقم 83. اُنظر قسم الوثائق من السّلطان أبي سعيد ـ A.C.A. Rg 439. f. 228. ـ جيميناز سولار ـ ليروس. ج. 16. دوفرك ص 463.

صداقات هامّة بين القوّاد النّصارى لحرس المسيحي وبعض الوزراء والكتّاب مثل صداقة اللّقيط نابليون للملك أراغون لرئيس المخزن الكاتب عبد الله بن الخيق[1]. وكان لذلك أبعد التّأثير على التّقارب القطلاني ـ المرينيّ وبالتّالي على القرارت المتّخذة.

فما هو هذا التّأثير للتّاج الأراغوني؟ وما هي أبعاده؟

يهدف هذا التّأثير أوّلا إلى مساعدة التّجارة ودعمها ومساعدة التّجّار القطلانيّين على التّوجّه إلى المغرب وإلى الحصول على إيتاوات من الدّيوانة المغربيّة.

وثانيا يرمي إلى تيسير سراح الأسرى المسيحيّين ومبادلتهم بالمسلمين أو اشترائهم. وأخيرا يهدف هذا التّأثير إلى منع المغرب وغرناطة من مهاجمة مسيحيّ إسبانيا.

وهذه السّياسة هي التي فرضها جاقمو الثّاني على القطلانيّين الميورقيّين والتي حقّقت المهادنة بين المغرب وملوك أراغون وميورقة وفرضت على القُطّاع والقُرصان.

وما تجدر الإشارة إليه هو أنّه وإن تراجع القطعُ في البحر واضطُرّ القطلانيّون غالبا إلى احترام الاتّفاق والتّحالف

---

(1) ـ A.C.A. CR. D. Jaime II Cafa 87. ـ الأرشيف الأراغوني دفتر 513.

في عهد جاقمو الثّاني وبعد موته سنة 1329م - فإنّ القراصنة القشتاليّين وكذلك الغرناطيّين لم يستجيبوا لهذه الضّغوط ولم يحترموا هذه العقود والمعاهدات. فكان المناخ يراوح بين الحرب والسّلم ويخلق ظروفا أمنية واختراقات تتجاوز التّعهّدات الرّسميّة ورغبات الملوك أنفسهم.

وبصفة عامّة يمكن أن نؤكّد أنّ المستفيد الوحيد من كلّ هذه التّحالفات والمعاهدات هم المرينيّون. وساعدهم على ذلك سياسة السّلطان أبي سعيد المتبصّرة والمهادنة والحكيمة: فأبو سعيد بتجنّبه المصادمة مع القشتاليّين والقطلانيّين وبني الأحمر بالأندلس استطاع أن يوفّر الأمن والرّخاء والتّوسّع بالمغرب الأوسط ببسط نفوذه على تلمسان وسجلماسة وما يمرّ بها من ذهب مالي وسوداني ويتمّ عبرها من مبادلات تجاريّة ومقايضات.

إلاّ أنّ هذه السّياسة الهادئة وطموحاتها الأندلسيّة المتواضعة توقّفت بموت السّلطان أبي سعيد ومبايعة ابنه سنة 1331م السّلطان أبي الحسن الوارث لدولة مزدهرة وصاحب الطّموح الكبير والشّخصيّة القويّة والمشاعر الإسلاميّة والمغاربيّة الأصيلة والرُّؤيا البعيدة. فكان جهادُه المتواصل وتوسُّعه بالأندلس وكامل المغرب باحتلاله مملكة

تلمسان وإفريقيّة من بجاية إلى طرابلس فكان الثّراء والجهاد وتوحيد الأقطار المغاربيّة تحت راية واحدة، الرّاية المرينيّة.

وكان هذا الوضع مُشجّعا لملك أراغون لمواصلة التّعاون مع المرينيّين ومهادنتهم والتّركيز على الحفصيّين للتّغلغل بإفريقيّة والتّآمر للسّيطرة عليها حسب المعاهدة الموقّعة مع قشتالة وكلّ ملوك النّصارى بالمنطقة فكانت محاولة تنصير مَلِكَ إفريقية: السّلطان ابن اللّحياني بتونس أوّلا ثمّ حفيده أبو ضربة سنة 1325م سلطان المهدية وتونس وكانت الآمال الكبيرة التي عُقدت على هذه المحاولات والوعود التي باركها البابا يوحنّا الثّاني والعشرون البابا الجديد ودسائس الرّهبان وقواد الحرس المسيحيّ والسّفراء بتونس وبجاية. ولكنْ تَقَشَّعَ هذا الحلمُ وباءتْ المخطّطات القطلانيّة بالفشل والإخفاق الذّريع، ودفعتْ هذه النّتائج السّلبيّة السّياسيّة القطلانيّة الجديدة إلى التّحالف الاضطراري مع القشتاليّين والضّغط على ملك أراغون إلى مراجعة سياسته والتّخطيط الفعلي لاحتلال إفريقيّة ومناوئة السّلطان أبي الحسن الذي استطاع أن يفرض سلطته على كامل المغرب وأن يسترجع سبتة وجبل طارق والجزيرة الخضراء وهزم القشتاليّين والتّنكيل بهم.

هـ - التّفوّق المرينيّ وازدهار التجارة

وواصل ملك أراغون الجديد ألفونسُ الرّابع بعد موت أبيه جاقمو الثّاني سنة 1332م مهادنة المرينيّين وتشجيع الاتّجار معهم ودعم جيوش ملك قشتالة ومدّه بالمراكب والأجفان عن طريق التّسويغ مع النّصرة الصّليبيّة استجابة لدعوة البابا ورجال الدّين.

وواصل القطلانيّون ببرشلونة وميورقة الضّغط على إفريقيّة مع السّلطان أبي بكر[1] بتونس وأبي تاشفين بتلمسان قبل احتلال أبي الحسن المرينيّ لهما للحصول على إيتاوات وأداءات من مداخيل الدّيوانة بالبلدين، وهو ما تمّ مع ميورقة في عهد السّلطان أبي بكر ومع أراغون في عهد السّلطان أبي إسحاق الذي خلف والده أبا بكر.

والجدير بالملاحظة أنّ هذه التّحوّلات لم تمنع التّجارة من التّواصل والازدهار، فكان التّجّار المسيحيّون والمسلمون يتنقّلون من برشلونة وبلنسيّة وميورقة على مراكبهم

---

[1] - معاهدة أبي بكر مع ميورقة سنة 1329م ودفعه لـ 500 5 د اعتبرها ملك ميورقة ثمن كراء المراكب وواصل المطالبة إلي عهد بترو الرّابع سنة 1344م. انظر الوثائق الحفصيّة والزّيانية. عمر سعيدان.

المختلفة الأحجام إلى مدن المغرب ومراسيه لبيع بضائعهم أو مقايضتها، ونشأت بذلك حركيّة تجاريّة نشيطة عكست رغبة أراغون الجامحة في دعم التّجارة وتجنّب المواجهة مع المرينيّين إلاّ أنّ هذا التّوجّه لم يمنع القطع والإغارات برّا وبحرا من قبل القراصنة القطلانيّين وأحيانا القشتاليّين والإيطاليّين من جنوة والبندقيّة. وهذه القرصنة كانت تدفع القراصنة المسلمين خاصّة بسبتة إلى ردّ الفعل وأسر التّجّار والبحّارة والعمل على مقايضتهم أو بيعهم.

وكان القطع القطلانيّ للميورقيّين أو الأراغونيّين يدفع السّلاطين إلى مراسلة التّاج الأراغوني والاحتجاج على عدم احترام المعاهدات وعقود الصّلح والتّهديد بالثّأر وردّ الفعل. كما كانت القرصنة القطلانيّة الرّسميّة أو غير الرّسمية وسيلة ضغط لإثارة مسائر راسبة وطلب سراح الأسرى النّصارى.

ونقدر أن نجزم بأنّ الدّولة المرينيّة مع السّلطان أبي الحسن وابنه أبي عنان بدتْ القوّة العظمى بالمنطقة والحامية الوحيدة لصالح المسلمين بالمغرب والأندلس والدّاعمة القوية لحليفاتها مثل الحفصيّين بإفريقيّة وبني

الأحمر عند الاستصراخ بغرناطة والمهاجمة دوما للزّيّانيّين بتلمسان وقشتالة بإسبانيا.

فلقد استطاع المرينيّون بفضل تحالفهم الظّرفي مع القطلانيّين وعدم تصادمهم معهم أن يُوقِفُوا هجومات القشتاليّين وأن يحقّقوا توازنا في المنطقة يخدم مصلحتهم ومصلحة شبه الجزيرة المغربيّة الموحّدة مؤقّتا مع السّلطان أبي الحسن وابنه أبي عنان الذي واصل سياسة والده الحازمة والمهادنة لبترو الرّابع، مثلما كان جدّه يوسف متحالفا مع جاقمو الثّاني ضدّ أعداء المنطقة بني عبد الواد والقشتاليّين.

وممّا يجدر ذكره أنّه رغم انهزام السّلطان أبي الحسن بطريف بالأندلس لتحالف بني الأحمر مع قشتالة وغدرهم به مع ملوك النّصارى مجتمعين بالأندلس ومقتل زوجته الحفصيّة بهذه المعركة وإقدام بترو الرّابع على الانضمام إلى المتحالفين النّصارى لاحتلال الجزيرة الخضراء بعد هزيمتهم النّكراء بسبتة ومقتل عشرات الآلاف من الجنود المسيحيّين، فلقد تواصل التّعامل القطلانيّ المرينيّ واستمرّت التّجارة بين مختلف الموانئ القطلانيّة والمرينيّة.

و - تواصل التفوّق المرينيّ مع أبي عنان

وكذلك كان الأمر مع أبـــي عنـان، ابـن أبـي الحســن، ولقد توفّق إلى إعادة السّيطرة على الجزيرة وطــرد النّصــارى واسترجاع طريف وجبل طارق واحتلال تلمسان وسجلماســة وما كان يمرّ بهــا مـن ثـروات وتجـارة صحراويّـة إفريقيّـة. وواصل فـرض القـوّة المرينيّـة بكـامل شمـال إفريقيـا وثغـور الأندلس تقريبا وإنعاش الحلف القطلانـــي المريـنيّ بمهادنـة بـترو الرّابـع ملـك أراغـون والتّوافـق معـــه علـى حســاب القشتاليّين والبرتغاليّين، القوّة الجديدة النّصرانيّــة النّاشـئة على المحيط.

ولقد اختار القطلانيّون بأراغون وميورقــة بقيـادة بـترو الرّابع سياسة جدهم جاقمو الثّاني المتمثّلة في عدم المصادمــة مع المرينيّين والتّحالف معهم ولو ظاهريًا لتحقيـق المكاسـب الاقتصاديّة وتجهيز الأساطيل البحريّة وهي السّياســة الـتي انتهجها السّلطان أبو سالم ابن أبي الحسن بعد أبـي عنـان في العشريّة السّابعة من القرن الرّابع عشر ميلادي (1360م - 1363م): حزم مع قشتالة ومسـالمة بـني الأحمـر ومهادنـة القطلانيّين.

ز ـ القوّة البحريّة القطلانيّة

والتفت بترو الرّابع إلى البحـر الأبيض المتوسّط عـاملا بنصيحـة جـدّه جـاقمو: "السيطرة علـى الحـوض الغربـي المتوسّطي تضمن الانتصار بالأراضي المقدّسة والسّيطرة علـى فلسطين". واستطاع بفضل حياد المرينيّين الاستيلاء الكـامل على سردانيا وبذلك على كلّ جزر الحـوض الغربـي للبحـر الأبيض المتوسّط. وصـارت السّياســة القطلانيّـة واضحــة المعالم: الاتّجار وتقويــة الأسـاطيل والسّـيطرة علـى البحـار وحلم بعيد كان وما زال آنذاك قاعدة المخطّطـات القطلانيّـة الدّينيّــة وهــو الوصـول إلى الأراضــي المقدّســة بفلسـطين واحتلالها. ولئن كان حلم الاستيلاء على جبل طارق قائمـا وهـو هاجســه الأكـبر، الأمـر الـذي دفعـه مثـل جـدّه إلى الاحتيـاط مـن القشـتاليّين وعـدم التّـورّط معهـم علنـا في حروبهـم مـع المسلمين بـالأندلس عنـد حصولـه علـى بلنسية ومحاولاته الدّائمـة وضـع يـده علـى مقاطعـة المريّـة المتوسّطية.

ن ـ التّوازن بالمنطقة

وخلق تشابك المصالح الدّائم الحذرَ من ناحية وتجييشَ الجيُوش من ناحية أخرى وتوازنا للقوى بالمنطقة: القوى المسيحيّة من ناحية بقيادية قشتالة وأراغون مع تصميم خفيّ ومعلن على احتلال الأندلس واسترجاعها وتمهيد الطّريق للوصول إلى الأراضي المقدّسة، والقوى الإسلاميّة من ناحية أخرى بقيادة الدّولة المرينيّة، مع إصرار على مواصلة الجهاد والحفاظ على الأندلس وقواعد النّفوذ بها.

وكانت تلك سياسة الدّول المغربيّة الكبرى مع خلفائها العظام وكان ذلك قدرها: مع المرابطين ويوسف بن تاشفين ومع الموحّدين وعبد المؤمن بن علي ومع المرينيّين والسّلطان أبي الحسن.

وكانت هذه السّياسة الحازمة سياسة كلٍّ من السّلطان أبي سالم بعد أبي عنان وأبي العبّاس أحمد والسّلطان فارس الذي انتعشت معه الدّولة المرينيّة بعد تراجعها وركودها مع السّلاطين الصّبيَة المحجوب عليهم أبناء أبي عنان وأحفاده.

وقد شهدتْ العلاقات القطلانيّة المرينيّة مع السّلطان

أبي سالم[1] القادم من غرناطة بمساعدة بني الأحمر حرارتها، واسترجعتْ التّجارة عافيتها بعد حروب طريف والجزيرة ومجازر سبتة. فلقد نشطت الحركة التّجاريّة من جديد وتحوّل التّجّار القطلانيّون بأعداد هامّة إلى الموانـي المغربيّة والمراسي المرينيّة لبيع منتوجاتهم وبضائعهم المختلفة: المنسوجات ـ الأواني القصديريّة ـ التّحف ـ الشّموع ـ البلّور ـ الخشب وأحيانا الحبوب. وكانت هذه البضائع تباع نقدا بالدّينار الذّهبي أو تقايض بالذّهب الوارد على سجلماسة والمغرب من البلاد الإفريقيّة: مالي والسّودان.

(1) ـ أُنظر قسم الوثائق في القسم الثّاني من الرّسائل التي بعثها أبو سالم إلى بترو الرّابع والسّلطان فارس.

4 ـ التّبادل التّجاريّ ونوعيّته

أ ـ الاتّجار والتّواصل

هذا التّبادل التّجاريّ الذي كان يشجّعه ملك أراغون ويدعمه ويعتبره من أولويات سياسته ومخطّطاته التّوسّعيّة والإمبراليّة كان يباركه السّلاطين المرينيّون أنفسهم لما يدرّه من أرباح ويفتحه من آفاق. ولقد خلق حركة نشيطة في البحر الأبيض المتوسّط وطرقا بحريّة مفتوحة ومألوفة.

ونشأ عن هذه الحركة التّجاريّة تواصل في المنطقة، بل تعارف وتآلف رغم عداوة رجال الدّين وأحقادهم وتوجيهاتهم العدائيّة. فكنت ترى في المراسي القطلانيّة: برشلونة ميورقة وبلنسيّة وسبتة التّجّار المسلمين من المغرب والقطلانيّين النّصارى في سلا وطنجة وفاس ومرّاكش ـ حيث توجد منطقة كنائسيّة منذ عهد الخليفة المأمون الموحّدي ـ وبسجلماسة مفتاح الصّحراء الإفريقيّة وباب الطّريق المؤدّية إلى مالي والسّودان وإلى ثروات معدنيّة هامّة من ذهب وفضّة وبضاعة ثمينة مفقودة ومطلوبة بأروبا بأكملها.

ب ـ التّوجّه العامّ للنّشاط الاقتصادي

ما هي البضائع المتبادلة وما هو التّوجّه العامّ لهذا

النّشاط الاقتصادي؟

رأينا العلاقات الاقتصاديّة والتّجاريّة بين أراغون والمغرب تتواصل وتنشط متحدّية كلّ الأوضاع والأحوال ومتجاوزة السّياسة وتعقيداتها والمعاهدات وضروريّاتها سواء في البضائع العاديّة التّقليديّة أو المراكب والأجفان. ففي مستهلّ القرن الرّابع عشر ميلادي تذكر لنا الوثائق والنّصوص مثلا أنّ تاجرا قطلانيا[1] من تراقونة كان موجودا في سفر بسبتة باع قسما من مركبه إلى والي المدينة أبي طالب العزفي. وتحدّثنا عن عدد كبير من التّجّار القطلانيّين من برشلونة وطرطوشة وميورقة كانوا يتاجرون بسبتة ويتعاملون مع تجّار مسلمين مغاربة في مراسي مغربيّة عديدة في موادّ عديدة منها القمح والخشب...

ج ـ التّأمين على المراكب والبضائع

فرغم تهديدات القراصنة وإغاراتهم، والمواجهات من حين لآخر بين الأساطيل، خاصّة مع القشتاليّين كان التّجّار وأصحاب المراكب يقدمون على الإبحار والاتّجار

---

[1] ـ في الأرشيف الميورقي ببرشلونة: ج 1. ص 37. الوثائق الخاصّة بملكيّة المراكب. عائلة العزفي. ابن خلدون ج 8. ص 159. ترجمة بالفرنسيّة دوسلان De Slane.

متحدِّين كلّ الأخطار. وممّا شجّع على المخاطرة نظام التّأمينات الذي ظهر. فلقد تأسّست بعض الشّركات الصّغيرة والعائلات الرّأسماليّة المستثمرة لتقديم ضمانات لأصحاب المراكب وبعض التّجّار على النّحو التّالي:

- يعوّض الرّأسماليّ المستثمر لصاحب المركب أو التّاجر صاحب البضاعة كلّ بضاعته أو مركبه في حالة حصول حادث أو عطب أو إغارة.

- ويعطي صاحب المركب أو التّاجر نسبة هامّة من أرباحه للمستثمر الضّامن بدون دفع أيّ تعويض في صورة بدء صاحب المركب بالهجوم أو الإغارة على مراكب أخرى.

- وكذلك صار من المتعارف لدى أصحاب المراكب أن يعوّضوا للتّجّار بضائعهم في حالة إقدام صاحب المركب على المخاطرة ومهاجمة مراكب أخرى بدون موافقة التّجّار.

- وعند موافقة التّجار النّازلين بالمركب على القيام بالإغارة واقتسام الغنائم مع صاحب المركب لا يحصلون على أيّ تعويض عند إتلاف بضائعهم وهلاك بعضهم أو سبْيِهم.

فهذه التّقاليد التّعويضيّة والضّامنة للتّجّار وأصحاب المراكب في آن واحد بقطلانية وقشتالة شجّعت على الاتّجار وركوب البحار والأخطار حتّى في أوقات الحرب وانقضاء

آماد الصّلح أو الهدنة.

د ـ موضوع الأسرى

والملاحظ أنّه في صورة وُقوع التّجّار في الأسر فيمكن لهم دفع التّعويضات المطلوبة للقراصنة والحصول على حرّيّتهم.

وظهر تُجّارٌ مختصّون دورُهم الأساسيّ يتمثّل في التّوسّط لاشتراء الأسرى ومبادلتهم بالأموال أو غيرهم من أسرى البلاد الأخرى. فالاتّجار بالأسرى كان تجارة نافقة ومزدهرة.

هـ ـ سبب عدم تطوّر العلاقات القطلانيّة ـ المرينيّة

وكان دوما العائق الكبير لتطوّر هذه العلاقات القطلانيّة المرينيّة يتمثّل في موقف الغرناطيّين وبني الأحمر المعادي لأراغون ومنافسه قشتالة الدّائمة وتحالفها الظّرفي مع الغرناطيّين ضدّ أراغون وتوسّعها سواء بإسبانيا والمراسي الإسلاميّة الأندلسيّة أو بالمغربين الأوسط والأدنى. فقشتالة مثّلتْ عرقلةً كبيرة وعَقَبَة كَأْدَاء في وجه تنامي الأمبراليّة الأراغونيّة ومحاولتها السّيطرة على البحر والتّجارة العالميّة بالمحيط والبحر الأبيض المتوسّط[1].

---

[1] ـ الأرشيف الأراغوني: سجلّ ص 334. جيميناز سولار: ج. 3. ص 306.

5 ـ التّجارة الرّسميّة للقطلانيّين وملك أراغون جاقمو الثّاني وبترو الرّابع

أ ـ المراكب

تمثّلتْ هذه التّجارةُ أوّلا في تسويغ المراكب والأجفان للسّلاطين المرينيّين بمقابل هامّ. ولقد كان السّلاطين أنفسهم يرغبون فيها لتقوية أساطيلهم في حروبهم مع القشتاليّين والغرناطيّين وبني عبد الواد. وكثيرا ما كان يشترط ملك أراغون شروطه الخاصّة في هذه الحالة فيطلب تسريح بعض النّصارى أو التّجّار القطلانيّين أو دفع قسم من مداخيل الدّيوانة المغربيّة من البضائع القطلانيّة. وهو ما رفضه دوما السّلاطين المرينيّون. وكان ذلك سببا من أسباب توتّر العلاقات بينهما.

فالبضائع الواردة من أراغون كانت تدفع 10% من قيمتها، مثلما كانت أقرّت ذلك معاهدة برشلونة مع تونس سنة 1314م[1] فالمركب كان يُسوّغ بألفي دينار ذهبا في

---

(1) ـ أُنظر نصّ المعاهدة: الأرشيف الأراغونيّ في المراسلة مع أراغون لعمر سعيدان.

الأربعة أشهر للمركب الواحد بزيادة 250 دينارا لكلّ شهر إضافيّ. وكانت هذه التّجارة مربحة للدّولة ولأصحاب المراكب ومُجهّزيها. إذ كان الرّبح الحاصل يبلغ 100% في السّفرة الواحدة. لذلك كان تسويغ المراكب مطلوبا ومرغوبا فيه. وكانت تسوّغ المراكب لحمل البائع والرّكّاب والأثمان. كانت تنخفض حينما يكون المسافرون جماعات.

ففي سنة 1330م دفعت مجموعة من 30 مسلم 20 دينارا ذهبا للسّفر من ميورقة إلى إفريقيّة. فكان المسافر في القرن الرّابع عشر يدفع من 20 إلى 30 سوردي للسّفر من برشلونة أو مرسيليا إلى المغرب الأوسط أو الأدنى.

وبالنّسبة للبضائع فنقل القفيز من الحبوب يتطلّب 4 دنانيرَ وربعا من سلا إلى المرية.

وكان قنطار الصّوف (43،5 كغ) يدفع دينارا وربعا لنقله من أنفة إلى برشلونة.

ب ـ كراء الحرس المسيحيّ

العنصر الثّاني في التّجارة القطلانيّة المرينيّة: يتمثّل في

ـ الأرشيف الميورقي: ج 10. ص 69. دوفيرك: ص 539.

كـراء الحـرس المسيحيّ والفرسـان القطلانيّـين للعمـل في الجيش المرينيّ والحـرس السّلطاني فلقد أرْسَـى القـائد "برنات سيقي" تقاليد للقطلانيّين سواء كانوا من أراغون أو من ميُورقة.

فكان القائدُ المعيَّنُ للإشراف على الحرس، المُسوَّغ يُعتَبَرُ السّفيرَ الرّسمي للملك أراغـون بـالمغرب، والممثّل القـانوني الدّائم، يوجّه الحـرس القطلانـيّ بـالمغرب ويُدافـع عـن مصـالحهم ويحـرص علـى تقـاضيهم أجورهـم وخدمـة سلاطينهم. وكان يهتمّ بحلّ مشاكل هذا الحرس عند مـوت أحدهم بالمغرب وتجهيزه إلى أراغون عند ارتكابه أخطـاء أو مطالبة الملك برجوعـه وكـان يهتـمّ بالمسـائل الإداريّـة ويتابعها. والملاحظ أنّ عائلة "سيقي" أعطتْ مجموعة مـن القوّاد أبًا عن جدّ يتوارثون المهنة أو المسـؤوليّة كلّما تُوفّـي أحدهم[1].

وكثيرا ما يكون للقـائد دورٌ سياسـيّ وتدخّـل في شـؤون الدّولة وخلع سلطان أو تعيين آخر.

---

[1] ـ الأرشـيف الأراغونـي A.C.A. Cortas Arabes Cafa 2. n°= 28. الوثائق العربيّة. سجلّ 2 ص 28.

فجاقمو الثّاني كان طالبَ بـأربعين ألـف دينـارا 000 40 مقابل تجهيز خمسين جفنا لمساعدة أبي سعيد على احتلال سبتة. أمّا الوزير المريني الثّائر رحُّـو بـن يعقـوب الوطّاسـي فقد وعد القائد "قترالو" بدفع 000 200 دينار مقابل تسـويغ 50 مركبا لمهاجمة أسطول السّلطان أبي ربيع نفسه وتسـليم قشتالة الجزيرة الخضراء في صورة نجاح الثّورة.

فهذه التّجارة كانت مربحة وخادمة للسّياسة القطلانيّة والقشتاليّة.

ج ـ العنصر البشري والمتاجرة بالإنسان

أمّا المعطى الثّالث في هذا التّبـادل التّجـاريّ فيتمثّـل في العنصر البشري والمتاجرة بالإنسـان. وكـانت كـلّ الأطـراف تتعاطى تجارة ناشطة ومربحة سالبة للإنسان حرّيّته وعابثة بكرامته فكانوا يَخلقون الفرص والمناسبات للإغارة والقرصنة برّا وبحرا لتأسير الرّعايا المسالمين والتّجّار والمسافرين نسـاء ورجالا وأطفالا وبيعهم في سوق العبيد سواء كـانوا بيضـا أو سودا أو سادة أو مسودين. وكان ملوك أراغون ورجال الدّين يدفعون الأموال الطّائلة لتسريح رعاياهم واشـترائهم. وكـان أحيانا السّلاطين يرفضون بيعهـم ويسـتعملونهم في الخدمـة

بحرسهم وفي مختلف الحرف بالبلاد، فسلطان تلمسان يغمراسن وابنه تاشفين حوالي 1323م ـ 1310م رفضا تسريح الأسرى النّصارى بحجّة استعمالهم في إعمار البلاد[1].

د ـ تجارة العبيد ومختلف البضائع الأخرى

وكان القراصنة يحرصون على الإغارة على كبار التّجّار والأمراء للحصول على غرامات مرتفعة وأموال طائلة رغم اعتراض الملوك على ذلك.

وإلى جانب أسرى عمليّات القرصنة نجد تجارة العبيد السّود الذين كانوا مطلوبين بأراغون وأروبا بصفة عامّة، فكان التّجّار المسلمون واليهود يعمدون إلى جلبهم من السّودان ومالي وإفريقيا بصفة عامّة عن طريق الإغارة أو الشّراء والمُقايضة. كانت هذه التّجارة المُذِلّة للإنسان والمنافية للأخلاق والتّعاليم الدّينيّة لا سيّما الإسلاميّة رائجة في هذا القرن وتتمّ بتشجيع من ملوك أراغون وحرص منهم لما تدرّه عليهم من أموال وأرباح تساعدهم في مغامراتهم وتحقيق مخطّطاتهم مثلما كان صرّح به جاقمو الثّاني في حربه لاحتلال سردانيا ومطالبته العون من السّلطان المريني

---

[1] ـ اُنظر رسالة سلطان تلمسان إلى جاقمو الثّاني حول تسريح الأسرى.

فقدّم له المساعدة والدّعم للتّحالف الذي كـان قائمـا بينهمـا ضدّ قشتالة.

أمّا البضائع الأخرى الـتي كـانت تتـمّ مبادلتهـا ويقـع تحمّل الأخطار في سـبيلها فهـي التّوابـل والأقمشـة وبعـض المعادن الثّمينة: الفضّة والذّهب، والزّعفـران ومـوادّ الصّبـغ كالنّيلة وبعض الحشائش الطّبّيّة والأواني الفخّاريّة كالجرار والصّحـاف والشّـمع وغيرهـا مثـل الخشـب وبعـض الثّمــار والغـلال الجافّـة مثـل اللّـوز والجـوز. ومـن أهـمّ البضــائع المطلوبة آنذاك الصّوف والزّيت والقمح وسائر الحبوب. وإن كانت تجارة الحبوب تحجّر من حين لآخـر، فالبابـا منـع الملـوك المسـيحيّين مـن السّــماح بالاتّجـار فيهـا وكذلـك بالخشب حتّى لا يستطيع السّلاطين تنمية صناعة المراكـب وتطوير أساطيلهم.

هـ - النّقل وسعره

والملاحظ في هــذا المجـال أنّ ثمـن نقـل الحبـوب كـان مرتفعـا جـدّا، وسـعر بيعهـا يتجـاوز 50% وأحيانـا 100% سعرها الأصلي ببلد التّصدير.

ومع ذلك فإنّ سعر نقل الصّوف في المراكب كان يساوي أربع مرّات وأحيانا عشر مرّات سعر نقـل الحبـوب، فنقـل 100 كغ من الصّوف كان يساوي 4 دنانير ذهبا ونقل 100كـغ

من القمح يساوي دينارا واحدا من مرسى مغربيّ إلى مرسى قطلانيّ أو أراغوني. أمّا قيمة النّقل بالنّسبة للصّوف فكان يساوي من 2 إلى 10% من ثمن الصّوف. وأمّا ثمن نقل الحبوب كالقمح فكان يتجاوز 30% وأحيانا 50% من ثمنها بالمنشأ.

ونلاحظ أنّ البضائع التي كان يستوردُها القطلانيّون من المغرب لم تكن معظمها مغربيّة الأصل بل كثير منها كان قادما من إفريقيا مالي والسّودان وبلاد الشّرق نفسها كالتّوابل والتّحف وبعض الأقمشة الدّمشقيّة. فالحركيّة كانت كبيرة والنّشاط مستمرّا والأموال والثّروات في تجمّع وتكدّس والإمبراليّة الأراغونيّة الفارضة قوانينها ومصالحها بصدد التّوسّع وفرض نفسها بحوض البحر الأبيض المتوسّط غربا وشرقا وبالتّالي بالعالم.

6 - ملحقات: جداول الصَّرف وقيمة المراكب والبضائع وأجر البحّارة

- **الصّرف وقيمة الدّينار الذّهبى المغربى**
- دينار واحد ذهب[1] يساوي 19 سوردي برشلونى سنة 1317م.
- دينار ذهبى ودانق الرّشيد يساوي 18 سوردي برشلونى سنة 1318م.
- دينار ذهب واحد يساوي 20 سوردي برشلونى بين سنتى 1320- 1321م.
- دينار ذهبى يساوي 24 سوردي ميورقى سنة 1310م.
- دينار ذهبى يساوى 20 سوردى برشلونى بين سنتى 1326- 1327م.

- **قيمة السّفن والمراكب**

من أوائل القرن الرّابع عشر كان المركب[2] يساوي ما بين 500 و2500 دينار ذهبى كلفة الجفن البرشلونى

---

(1) ـ الأرشيف الأراغوني. رقم 627. ص 178–180 الوثيقة القطلانيّة بتاريخ 12 سبتمبر 1311م بها تسجيل حسابات السّفير كشتلنو لدى المغرب ـ الأرشيف الأراغوني .A.C.A رقم 624. ص 111.

(2) ـ نصّ بالأرشيف الأراغوني A.C.A رقم 630–627 بتاريخ 1319م حول قيمة الدّينار. ـ أريباس بلو La Conquista h 151: Arribas Plau — كتاب الاحتلال يؤكد أنّ نفقة البحّار الواحد تبلغ سوردي برشلوني.

متوسّط تبلغ 000 10 سوردى برشلوني. وبصفة عامّة يكون الثّمن الأدني، 500 دينار ذهبا والأقصى، 2500 دينار ذهبا. أمّا المراكب الصّغيرة التي، حمولتها بعض الأطنان من 6 إلى 9 فكان ثمنها يبلغ 260 سوردى برشلوني، و360 سوردى ميورقي. وكان ثمن السّفينة "أقيلة" التي تبلغ حمولتها 240 طنّا وعدد بحّاريها 52 رجلا بلغت كلفتها 2000 دينار ذهبا، وكانت ملكا شخصيّا للملك أراغون جاقمو الثّاني.

- أمّا **أجر البّحّار** فيقدّر بسبعة أو ثمانية دانق في اليوم الواحد وللبحّار الواحد، بمعنى، أقل من سوردى برشلوني. فمركبٌ يشتمل على، 100 بحّار كان يتطلّب بصفة تبلغ من 2000 إلى 3000 سوردى في الشّهر الواحد. أمّا كلفة الاعتناء بالمركب وعمارته : (الأكل، الأجر والمتطلّبات الأخرى اليوميّة) فبلغت 3000 سوردى في الشّهر.

كلّ هذه النّفقات والكلفة المتواضعة نسبيّا تؤكّد أنّ مرابيح صانعي المراكب ومجهّزيها تفوق المائة بالمائة 100% .لذلك كانت هذه الصّناعة مزدهرة ومطلوبة سواء بأراغون وميورقة أو ببلاد المغرب.

ـ قيمة العمليّات التّجاريّة بين المغرب والقطلانيّين في النّصف الأوّل من القرن الرّابع عشر م

التّاريخ (م)	واردة من (الباخرة أو المركب)	الاتّجاه	قيمة البضائع
1310–1307	برشلونة وأرزيلة	برشلونة أو أرزيلة	ـ 885 د ذهبيّا
1310	بلنسيّة	المغرب	ـ 727د ذهبيّا
1319	ميورقة	أنفة	ـ 7940 سوردي برشلونى أي 360 د ذهبيّا.
1325	ميورقة	سبتة	ـ 145د ذهبيّا أي 3178 سوردي ميورقى.
1329	قرطاجنّة	المغرب	ـ 795 سوردي برشلونى 119 دنق أي 40 دينارا
1321	المغرب	صقلّية	ـ 180 دينارا

ـ مثال: قيمة معاملات أراغون مع المغرب إلى سبتة سنة 1309م بالنّسبة لبعض الأشهر: 000 60 دينار A.C.A. .reg. 334.

ـ قيمة البضائع المغربيّة التي حجزها القراصنة القطلانيّون

التّاريخ	المكان	نوع المحجوز	القيمة
1322	البحر	مغاربة من سبتة	4 050 د

ـ عدد التّجّار الذين قدموا للتّجارة ببعض المراسي والمدن المغربيّة من 1311 إلى 1331

المكان	عدد التّجّار
أنفة	13 = 7 + 6
سبتة	26 = 13 + 13
أرزيلة	9 = 5 + 4
الكُدية	17 = 9 + 8
سَلاَ	4 = 3 + 1
مليلا	2
قادس	3
أزمور	1

يبلغ عدد التّجّار ومالكي المراكب الباحثين عن متسوّغين 74 شخصا تقريبا، كما يتّضح من السِّفر عدد 7 بالأرشيف بميورقة A.H.M. Vol 7.

ـ استنتاجات عامّة

يتّضح لنا من كلّ ما تقدّم التّوجّه المتوسّطيّ وبالتّالي الإفريقيّ للقطلانيّين والأراغونيّين والأندلسيّ للمرينيّين، وبفضل هذا التّوازن الذي برز على السّاحة كان هذا العصر بهذه المنطقة الحيويّة والهامّة العصر الذّهبيّ للتّجارة، والتّعاطي الحرّ لمختلف الأصناف التّجاريّة والبضائع الأساسيّة رغم تدخّلات الكنيسة وتحريمات البابا لبيع الحبوب والخشب مثلا. فشجّع الوضع على تنامي القوّة القطلانيّة بالبحار وتعثّر القشتاليّين بالأندلس وصمود المرينيّين وعرقلتهم لأيّ توسّع أو الحدّ منه على الأقلّ.

ويظهر أنّ الهدف خاصّة بالنّسبة للقطلانيّين والأراغونيّين لم يعد الانتصار للصّليب وتحقيق نجاحات دينيّة وصليبيّة سريعة في بلاد الإسلام بل كسب مواقع اقتصاديّة وتجاريّة مفيدة ومساعدة على تحقيق الهيمنة المنشودة والتّنصير المأمول.

ولا يمكن فهم روح هذه العلائق السّياسيّة وهذه التّحرّكات المغربيّة الإسبانيّة بدون الإلمام بحقيقة هذه الأنشطة الاقتصاديّة والتّجاريّة السّائدة وأبعادها. ونكون قد أخطأنا الهدف إن تجاهلنا الواقع السّياسيّ بالمنطقة وما

يحفّه من تنافسات ورغبة جامحة في المزيد من التّوسّع على حساب الآخر.

ولا ننسى أنّ السّيطرة على البحر الأبيض المتوسّط بالنّسبة لأراغون والقطلانيّين تعني السّيطرة على الطّريق المؤدّية للشّرق وثرائه الرّوحيّ والماديّ، لذلك كان القطلانيّون منذ القرن الثّالث عشر يتوجّهون إلى الإسكندريّة ومصر وقبرص والآستانة وبلاد الأناضول وحرص جاقمو الثّاني سنة 1315م وزواجه بأميرة قبرص "ماريا لوزانيان"[1]. ورغم أنّ الكنيسة حجّرت التّجارة مع الأتراك فكان ملك أراغون يجد التّعلاّت للتّعامل معهم[2] وتوجيه أقاربه للتّجارة مع تركيا وقسنطينة وأثينا وكلّ البلاد المجاورة. فيبدو المغرب مرحلة موصلة إلى المشرق، وأسراره وخيراته وتجارته تبدو متمّمة للتّجارة الكبرى مع المشرق[3].

والواضح أنّه لم تكن هنالك موانع تمنع تواصل الحوضين للمتوسّط: الغربي والشّرقي. وكان التّنافس في هذا

---

(1) - A.C.A. R. 156. F°: 250.

(2) - دراسة نيكولو دولوار Nicolau d'olwer: التّوسّع القطلاني.

(3) - لاكُور قيّات Lacour Gayet: تاريخ التّجارة ج 2. ص 250.

الميدان التّجاريّ قويّا مثلما كان في الميدان السّياسيّ لكنّ أراغون استطاعت تحقيق غرضها والسّيطرة على البحار، وبالتّالي على التّجارة بكامل البحر الأبيض المتوسّط بفضل هذه المكتسبات العديدة التي تحقّقت ببلاد المغرب وإفريقيّة والحوض الغربيّ عموما للبحر الأبيض المتوسّط.

فالهيمنة الأراغونيّة القطلانيّة بالبحر حقيقيّة، وإن ساعدتْ القوى المرينيّة على الحدّ من طموحاتها ونهمها ورغبتها في المزيد من التّوسّع. لكن لنا أن نؤكّد أنّ النّجاح على الأرض كان مُنعدِما وأنّ استيلاءها على الأراضي الإفريقيّة المغربيّة لم يتحقّق، فحتّى جزر جربة وقرقنة التي كان احتلّها الملك القطلاني الصّقلّي "فريديرك الثّاني" تَمَّ استرجاعها وطرد كلّ النّصارى منها. كما أنّ السّيطرة على مضيق طارق المنشودة دوما والتي كانت محور السّياسة الأراغونيّة لم تتمّ واحتلال المريّة المخطّط له دوما لم يحصل.

وهكذا يحقّ لنا أن نعتبر السّياسة القطلانيّة الأراغونيّة التّوسّعية فشلت فشلا ذريعا سواء في عهد جاقمو الثّاني أو بترو الرّابع. أمّا الإمبراليّة الاقتصاديّة الأراغونيّة فلقد تشكّلت وتجسّمت بفضل هذا الوضع الذي ساهمت في خلقه مثل هذه العلاقات المغربيّة ـ القطلانيّة.

ملاحظات ختاميّة

بعد هذه المتابعة لخصائص هذه العلاقات ومحاولة التّقصّي لمنعطفاتها وخصوصيّاتها واستعراض مراحل تطوّرها، نستطيع أن نستنتج الملاحظات النّهائيّة التّالية:

1 ـ لعبت المخطّطات الدّينيّة والأبعاد الرّوحيّة دورا كبيرا في تشكيل هذه السّياسة وإقرار هذه العلاقات. وكان لبرشلونة ورجال أعمالها الدّور الأساسيّ في تنمية هذه العلاقات.

2 ـ إنّ مهادنة المرينيّين للقطلانيّين وأراغون ساعدتْ على تنمية القوّة المرينيّة وخدمة الأهداف التّوسّعيّة للسّلاطين المرينيّين خاصّة بالأندلس وتلمسان.

3 ـ إنّ مناوءات غرناطة وتحالفاتها مع قشتالة أضرّت بالدّولة المرينيّة وبمملكة بني الأحمر نفسها ولم تخدم المصالح الإسلاميّة وعجّلت بتداعي مُلك بني الأحمر.

4 ـ إنّ الفتن الدّاخليّة المغربيّة بين الأمراء المرينيّين أضعفتْ الدّولة وأنهكتها وهيّأتها كي تُصبح لقمة سائغة للقشتاليّين والملوك النّصارى بالأندلس بداية من المنتصف الثّاني للقرن الرّابع عشر ميلادي وخاصّة بعد هلاك السّلطان أبي فارس في العشريّة الثّامنة من ذلك القرن.

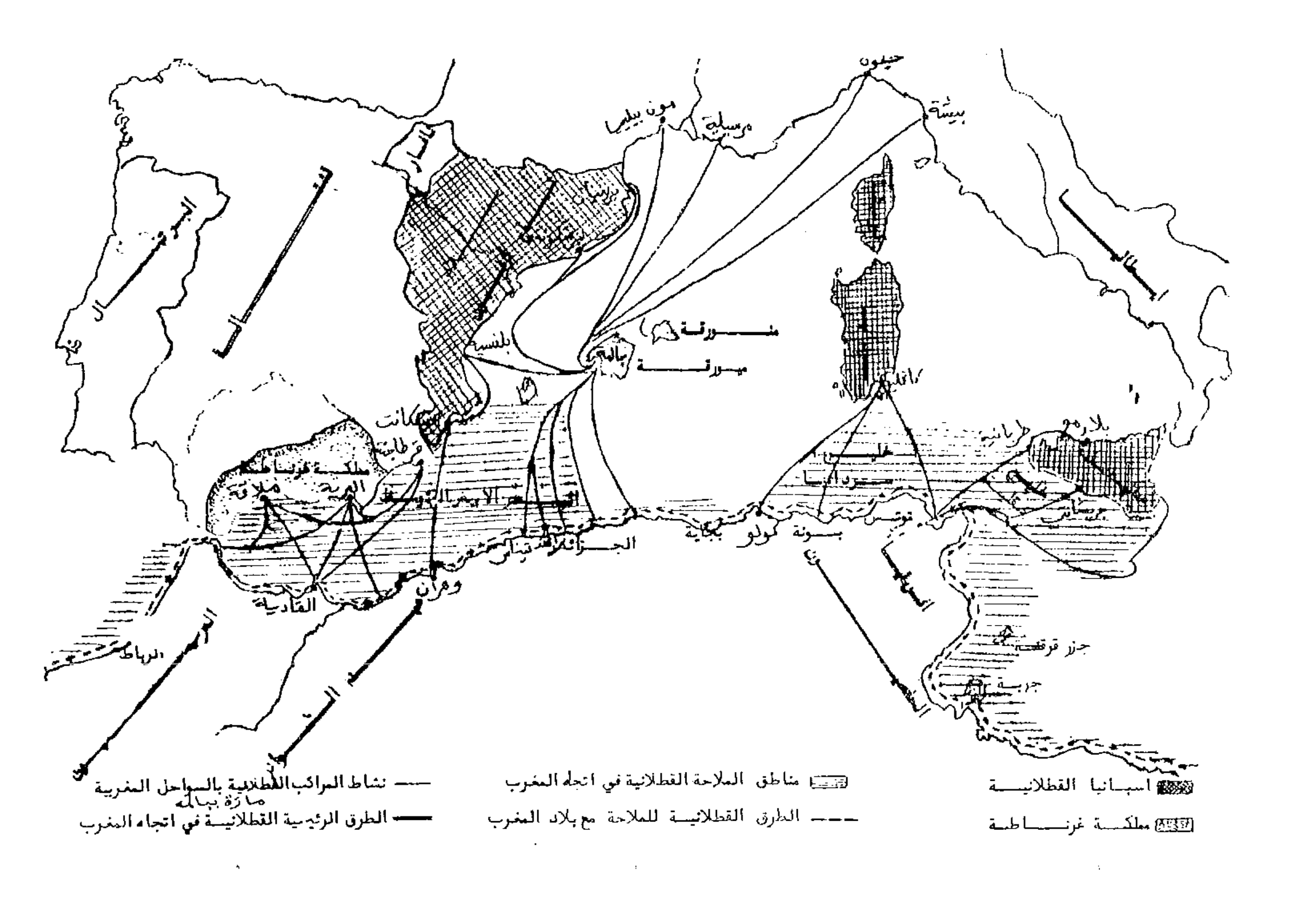
5 ـ إنّ هذه العلاقات القطلانيّة المرينيّة خلقتْ ولا شكّ جوّا مناسبا لتنامي القوى المرينيّة وازدهار التّجارة بالمغرب وكانت سبب فشل السّياسة الأراغونيّة في الاستيلاء على تلمسان وإفريقيّة وعلى الحصول على مناطق نفوذ بها.

6 ـ فشلتْ الكنيسة في تحقيق أهدافها التّنصيريّة بالدّول المغاربيّة خاصّة بتلمسان وإفريقيّة وفي القضاء ـ مؤقّتا ـ على الإسلام والمسلمين بالأندلس.

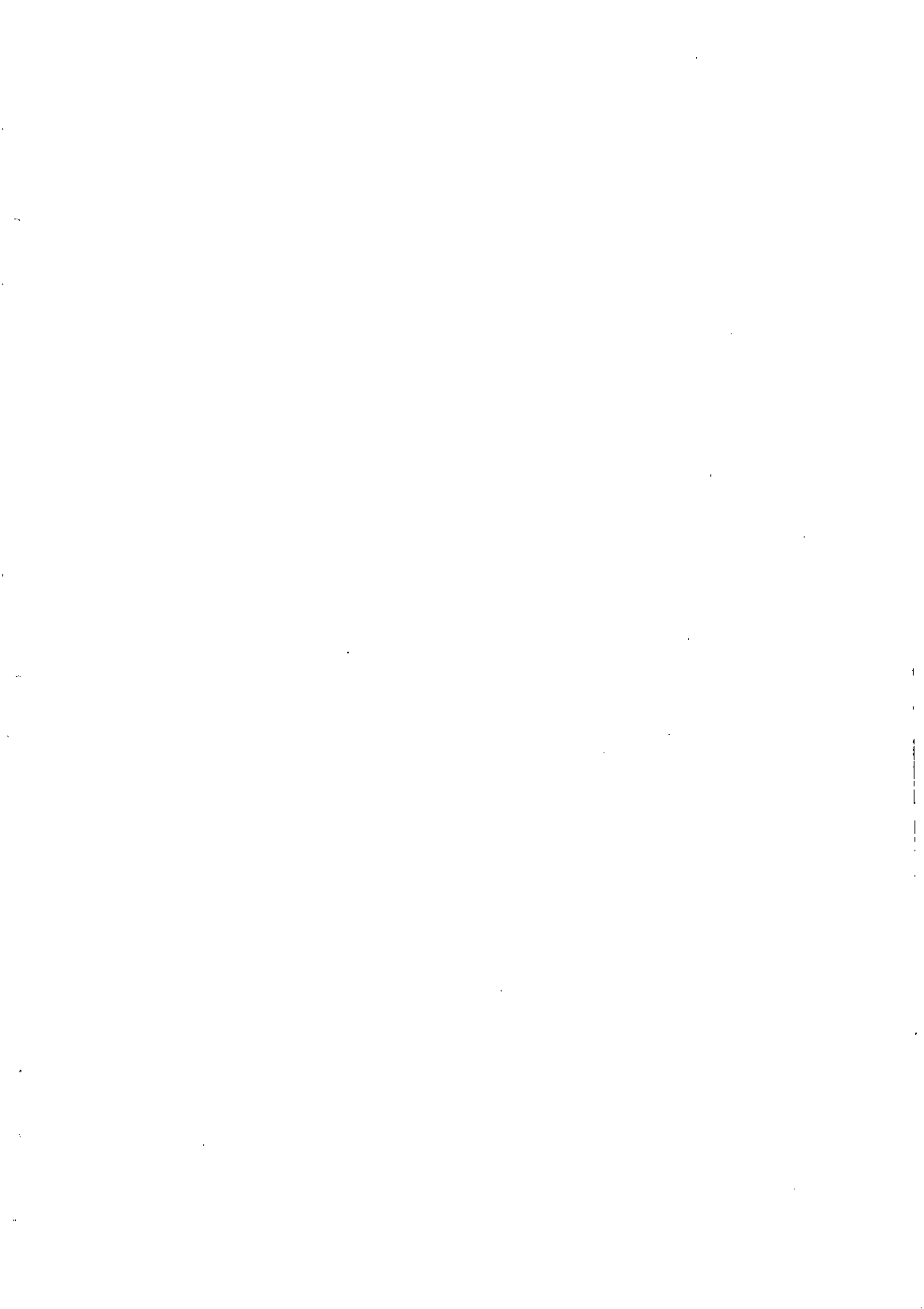
7 ـ حملتْ هذه العلاقات القطلانيّة المغاربيّة والأراغونيّة ـ المرينيّة في طيّاتها الآمال المستقبليّة للكنيسة ولإسبانيا المسيحيّة وأروبا الصّليبيّة، فكان لأسباب داخليّة (الحروب الأهليّة) وطبيعيّة انهيار الدّولة المرينيّة. وكان العلاّمة عبد الرحمان بن خلدون لخّصها في عامل فتور العصبيّة بمرور الزّمن وهرم الدّول بعد نشأتها وفتوّتها وشبابها وضعفها وانقراضها.

ولنا أخيرا أن نؤكّد أنّ هذه السّياسة الإمبراليّة القطلانيّة الأراغونيّة ـ الإستعماريّة بلغة اليوم ـ لم تنجح دينيّا ولم تحقّق أغراض الكنيسة ولم توفّق في تنصير بلاد الإسلام، غير أنّها استطاعتْ زرع بذور الإمبراليّة العصريّة

ومهّدت لاحتلال إسبانيا وأروبا إفريقيا وأمريكا الجنوبيّة وكثيرا من البلاد الإسلاميّة الإفريقيّة والآسيويّة في القرنيْن التّاسع عشر والعشرين. بل إنّ هذه السّياسة أخّرت واقعا لا يمكن لعاقل نكرانه يتمثّل في صلابة العقيدة الإسلاميّة ومناعة الإسلام وقدرته الطّبيعيّة على التّحدّي والمقاومة والثّبات.



جنوة
بيشة
مون بيلي
مرسيلية
بلنسية
بالمه
منورقة
ميورقة
ملكية غرناطة
ملاقة
المرية
القادسية
وهران
الجزائر
بجاية
كولو
بونة
تونس
بلارمو
طرابانية
جزر قرقنة
جربة
الرباط
اسبانيا القطلانية
مملكة غرناطة
مناطق الملاحة القطلانية في اتجاه المغرب
الطرق القطلانية للملاحة مع بلاد المغرب
نشاط المراكب القطلانية بالسواحل المغربية مارة بباله
الطرق الرئيسية القطلانية في اتجاه المغرب



القسم الثّاني

الوثائق : رسائل وعقود

تقديمها - تحليلها - التّعليق عليها

المرينيّون ومراسلاتهم مع ملك أراغون بإسبانيا القطلانيّة

- تمهيد

عرفت شبه الجزيرة المغاربيّة في تاريخها العربيّ الإسلاميّ الوسيط دُوَلاً أصيلة الأرض المغربيّة وربيبة مناخها وطبيعتها وسليلة سكّانها الأصليّين البرابرة كانت حامية عقيدتهم الإسلام وبانية حضارتهم وواضعة لبنتهم في صرح الحضارة الإنسانيّة. ولقد تعاقبت هذه الدّول على البلاد المغربيّة منذ الفتح الإسلاميّ والعصور الإسلاميّة الأولى بها فكانت دولة المرابطين والموحّدين بمرّاكش والحفصيّين بإفريقيّة وتونس والمرينيّين بفاس وتونس وتلمسان وغيرها من الدّول قبلها: الأغلبيّة بالقيروان والإدريسيّة بالمغرب وكلّها لعبتْ دورا هامّا في تاريخها وكان لها دور أساسيّ في نحتِ حضارة الحوض البحر الأبيض المتوسّط وساهمتْ في تشكيل طبيعته ومعالم حضارته وإرساء قواعد تعامل وتعاون

بين مختلف الدّول وبنــاء علاقـات تعـايش وتفـاهم وتبـادل تجاريّ وأحيانا علاقات تنافس وتصادم.

ونهتمّ في هذا البحث ـ بعد الدّراســة[1] الـتي قمنـا بهـا حول الحفصيّــين ثـمّ بـني عبـد الـواد وعلاقـاتهم بإسـبانيا القطلانيّــة ــ بـالمرينيّين ودولتهـم العتيـدة في الثّلثــين الأوّل والثّاني من القرن الرّابع عشر ميلاديّا وعلائقهم بالقطلانيّين وإسبانيا المسيحيّة.

ونعتمد في هذه الدّراسة وثائق تاريخيّة أساسيّة وأصليّــة احتفظ بها لنا الأرشيف الأراغونيّ ببرشــلونة وهـي رسـائل وعقود صلح ومعاهدات، تشـرح لنـا طبيعـة هـذه العلاقـات المرينيّة القطلانيّة وتكشف لنا عن الأجواء السّياسيّة السّائدة بينها وبين الدّول المجاورة الإسلاميّة والمسيحيّة: بني عبـد الواد بتلمســان وبـني الأحمـر بغرناطـة والنّصـارى بقشـتالة وأراغون. فرسمت لنــا هـذه الوثـائق ملامِح السّياسـة الـتي اعتمدتْها كلّ مــن الدّولتـين القطلانيّـة الأراغونيّـة بـأراغون

---

[1] ـ أُنظر: الحفصيّون وعلاقاتهم بإسبانيا القطلانيّة ـ عمر سعيدان ـ وبنو عبد الواد بتلمسان وعلاقاتهم بإسبانيا القطلانيّة. المؤلّف نفسه. نشـر مؤسّسة سعيدان بسوسة. ط. 2002.

بإسبانيا والمرينيّة بالمغرب الأقصى وسمحت لنا بأن نستشف الدّوافع والأبعاد للسّياستين وأحيانا أسباب النّجاح والفشل.

فهذه الرّسائل والعقود التي بلغت خمسا وعشرين وثيقة مرقّمة مرسّمة من 77 إلى 112 بالأرشيف الأراغونيّ ببرشلونة تمثّل المراسلة التي تمّت بين الدّولتين في هذه الفترة وتكشف لنا عن حقيقة العلاقة التي كانت قائمة ونوعيّتها وتفضح الخلفيّة التي كانتْ تُحرّكها والوجهَ الحقيقيّ لأصحابها الملوك والوزراء والسّفراء والرّسُل.

فهي مادّة خامّ هامّة ثريّة لا مندوحة للدّارس والباحث عنها وهي حريّة بإثراء مكتبتنا التّاريخيّة وتشجيع المؤرّخيّين المغاربيّين والباحثين بهذا الوطن الحبيب، المغرب العربيّ الكبير، بإعادة كتابة تاريخنا المغاربيّ الوسيط بعد تفهّم حقيقة واقع ماضينا المجيد والمرير وأسباب التّراجع والانهزام والانكسار رغم فشل السّياسة الامبراليّة التّوسّعيّة لدُول الأجوار بإسبانيا: أراغون وقشتالة ثمّ البرتغال.

1°) ـ الوثيقة رقم 77 بالأرشيف الأراغوني

ـ التّقديم

هذه رسالة من يوسف بن عبد الحقّ[1] بتلمسان إلى جاقمو الثّاني ملك أراغون تخصّ السّفراء الذين أرسلهم جاقمو والمساعي الحسنة التي قاموا بها وذلك بتاريخ 15 شعبان من سنة 703هـ الموافق لـ 24 مارس من سنة 1304م.

---

(1) ـ كان يوسف بن عبد الحقّ المؤسّس الفعليّ للدّولة المرينيّة قد حاصر تلمسان عاصمة بني عبد الواد الزّيّانيّين واستولى عليها وأقام بتلمسان الجديدة التي بناها خارج سور تلمسان وسمّاها المنصورة.

- نصّ الرّسالة

مِنْ عَبْدِ اللَّـهِ يُوسُفَ أَمِيرِ المُسْلِمينَ ابْنِ أَمِيرِ المُسْلِمِينَ يَعْقُوبَ بْنِ عَبْدِ الحَقِّ أَيَّدَ اللَّهُ أَمْرَهُ وَأَعَزَّ نَصْرَهُ إِلَى السُّلْطَانِ الأَجَلِّ الأَسْنَى الشَّهِيرِ الأَنْبَلِ الأَحْفَلِ الأَوْفَى المُكَرَّمِ المَشْكُورِ الأَنْهَضِ الأَنْجَدِ دُونَ جَاقِمُ سُلْطَانِ أَرَغُونَ وَمَا إِلَيْهَا مِنَ البلاَدِ وَالأَنْظَارِ ابْنِ السُّلْطَانِ الأَجَلِّ الأَشْهَرِ الأَنْبَلِ الأَحْفَلِ المُكَرَّمِ الأَنْجَدِ الحَسِيبِ دُونَ بطْرُ وَصَلَ اللَّهُ فِيمَا يَرْضَى مِنَ الأَفْعَالِ الجَمِيلَةِ اهْتِمَامَهُ وَانْتِهَاضَهُ وَيَـ[ـسَّـرَ] لَدَيْنَا بحَسَبِ ذَلِكَ أَغْرَاضَهُ.

أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى وَالصَّلاَةِ التَّامَّةِ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلاَنَا مُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ المُصْطَفَى وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الكِرَامِ أَعْلاَمِ الإِسْلاَمِ وَأَيِمَّةِ الرُّشْدِ وَالهُدَى وَصِلَةِ الدُّعَاءِ لِهَذِهِ الإِيَالَةِ العَلِيَّةِ المَرِينِيَّةِ المُؤَيَّدَةِ بِدَوَامِ النَّصْرِ الأَعَزِّ وَالفَتْحِ الأَسْنَى.

فَإِنَّا كَتَبْنَاهُ إِلَيْكُمْ مِنْ حَضْرَتِنَا السَّعِيدَةِ بِتِلِمْسَانَ[1] الجَدِيدَةِ مَهَّدَهَا اللَّهُ وَلاَ نَاشَى بِفَضْلِ اللَّهِ إِلاَّ تَوَالِي السَّعْدِ المُسَاعِدِ وَقَهْرِ كُلِّ عَدُوٍّ وَمُعَانِدٍ. وَاللَّهُ يَصِلُ ذَلِكُمْ وَيُجْرِي فِيهِ عَلَى أَجْمَلِ العَوَائِدِ بِمَنِّهِ وَإِلَى هَذَا جَعَلَ اللَّهُ عَزْمَكُمْ فِيمَا يُوَافِقُ وَقَرَنَهُ بِالاعْتِنَاءِ المُطَابِقِ فَإِنَّا نُعَرِّفُكُمْ بِوُصُولِ كِتَابِكُمُ الأَثِيرِ صُحْبَةَ كَاتِبِكُمْ وَخَدِيمِكُمْ غَرْسِيسَ لَشْبِينْ أَنْجَدَهُ اللَّهُ تَعَالَى تَعَرَّفْنَا مِنْهُمَا مَا عِنْدَكُمْ مِنْ حُسْنِ المُجَامَلَةِ وَمَشْكُورِ المُسَاعَدَةِ وَالمُوَاصَلَةِ وَالمُحَافَظَةِ عَلَى مَا يَتَسَنَّى بِهِ الخَيْرُ مِنَ الائْتِلاَفِ بِمَشْكُورِ المُحَاوَلَةِ وَعِنْدَنَا لَكُمْ أَضْعَافُ ذَلِكُمْ فَثِقُوا بِهِ وَابْتَهِجُوا بِسَبَبِهِ وَذَكَرْتُمْ فِي كِتَابِكُمْ إِنَّا نُصَدِّقُ كَاتِبَكُمْ المَذْكُورَ فِي كُلِّ مَا يُلْقِيهِ إِلَيْنَا عَنْكُمْ وَيَنُصُّهُ عَلَيْنَا مِمَّا نَتَحَقَّقُهُ مِنْ لَدُنْكُمْ. وَقَدْ أَلْقَى لَنَا كُلَّ مَا أَلْقَيْتُمْ لَهُ عَلَى الكَمَالِ وَالتَّمَامِ وَسَلَكَ فِي ذَلِكَ مَسْلَكَ النُّبَهَاءِ العُقَلاَءِ

---

[1] ـ كانت تلمسان تحت سلطة المرينيّين فِي أيَّامِ السّلطان يوسف بن يَعْقوب بن عبد الحقّ مؤسّس الدّولة المرينيّة.

مِنَ الخُدَّامِ. وَقَدْ أَصَبْتُمْ فِي تَوْجِيهِكُمْ مِثْلَ ذَلِكَ الشَّخْصِ النَّبِيلِ الَّذِي سَعَى فِي كُلِّ عَمَلٍ مَرْضِيٍّ وَخَيْرٍ جَزِيلٍ وَكُلِّ مَا أَلْقَى لَنَا شَكَرْنَا فِيهِ قَصْدَكُمْ وَعَلِمْنَا مِنْهُ مَا عِنْدَكُمْ. وَوَصَلَ صُحْبَةَ الجَمْعِ الَّذِي بَعَثْتُمْ وَأَوْلَيْنَاهُمْ مِنَ الإِكْرَامِ وَالاعْتِنَاء فَوْقَ مَا أَمَّلْتُمْ وَقَصَدْتُمْ. وَمِنْهُ تَتَعَرَّفُونَ شَرْحَ ذَلِكَ عَلَى أَحْسَنِ الوُجُوهِ. وَقَدْ أَلْقَيْنَا لَهُ مَا يُلْقِيهِ إِلَ[ـيْكُمْ مِنْ][1] جُزْئِيَاتِ الأَحْوَالِ وَبَيَّنَّا لَهُ فِي ذَلِكَ كُلَّ مَقَالٍ وَلَيْسَ إِلاَّ مَا تَغْتَبِطُ بِسَـ[ـبَبِهِ][2] وَتَشْكُرُونَ جَمِيلَ مَذْهَبِهِ وَقَدْ وَجَدَ هُنَا كَاتِبُكُمْ المَذْكُورُ رُسُلَ صَاحِبِ غَرْنَاطَةَ حَفِظَهُ اللَّهُ وَوَقَعَ الكَلاَمُ مَحْضَرَهُمَا فِيمَا يُصْلِحُ الأَحْوَالَ وَيُسْنِي لِلْجَمِيعِ الخَيْرَ الدَّائِمَ الاتِّصَالِ. وَكَانَ [الاتِّفَاقُ عَلَى أَنْ][3] تَكُونَ

---

(1) ـ تمّت الزيادة ليستقيم التّركيب والمعنى.

(2) ـ تمّت الزيادة ليستقيم التّركيب والمعنى.

(3) ـ تمّت الزيادة ليستقيم التّركيب والمعنى.

الـهُدْنَـةُ[1] بَيْنَكُمَ حَتَّى يَعُودَ مِنْ قِبَلِكُمْ [كَاتِبُكُمْ][2] وَيَقَعَ اجْتِمَاعُهُ هُنَا بِمَنْ يَصِلُ مِنْ غَرْنَاطَـةَ..... الأُمُـورُ عَلَـى أَوْثَقِ أَسَاسٍ وَيَتَسَـنَّى الخَيْرُ [بِمَـا لاَ][3] شَـكَّ فِيـهِ وَلاَ الْتِبَـاسَ. وَوَصَـلَ إِلَيْنَـا إِرْسَـ[ـالُ بَنِـي] مَرِيـنَ الذِيـنَ هُنَالِكُمْ فِي بِلاَدِكُـمْ أَعَزَّهُـمُ اللَّـهُ وَعَرَّفُونَـا [بِمَـا] صَـدَرَ مِنْكُمْ لَهُمْ مِنَ الخَيْرِ الَّذِي..... يُنَاسِـبُ مَنْصِبَكُـمْ..... الكَبِـيرَ وَمِثْـلَ..... النَّصَـارَى..... الفِعَـالَ..... إِذَا حَلُّوا..... وَيُبَادِرُ لِمَـا يُكْمِـلُ لَـهُ لَدَيـ.....[4] جَمِيـعَ مُـرَادِهِ وَشَـكَرْنَا لَكُـمْ.....[5] ذَلِكُـمْ مُتَّصِـلٌ وَثَنَاؤُنَـا لاَ يَنْفَصِلُ وَ.... وَقَـعَ الكَـلاَمُ مَـعَ كَـاتِبِكُمْ فِـي مَسَـائِلِهِمْ

---

(1) ـ مفاوضات تحوّل الهدنة بين غرناطة وأراغون ولقد تمّت فعلا.

(2) ـ تمّت الزيادة ليستقيم التّركيب والمعنى.

(3) ـ تمّت الزيادة ليستقيم التّركيب والمعنى.

(4) ـ فراغ في الأصل.

(5) ـ فراغ في الأصل.

بَيْنَكُمْ وَأَعْمَالَهُ. وَلَكُمْ عِنْدَنَا مِنَ النَّظَرِ الجَمِيلِ وَالاعْتِنَاءِ الجَزِيلِ وَالتَيْسِيرِ لِمُرَامِكُمْ لَدَيْنَا وَالتَّسْهِيلِ مَا يُقَرِّبُ لَكُمْ كُلَّ التَّأْمِيلِ وَيُعِينُكُمْ عَلَى جَمِيعِ مَنْ عَادَاكُمْ وَيُرِيكُمْ أَغْرَاضَكُمْ فِي مَنْ بَعُدَ عَنْكُمْ وَدَانَاكُمْ. فَكُونُوا بِذَلِكُمْ وَاثِقِينَ وَإِلَيْهِ رَاكِنِينَ وَعَلَيْهِ عَامِلِينَ.

وَقَدْ وَجَّهْنَا كِتَابَنَا هَذَا صُحْبَةَ الخَدِيمِ الأَجَدِّ الأَنْجَدِ الأَنْهَضِ مَنْصُورِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ سُلَيْمَانَ الـ...اباني وَالخَدِيمِ الأَجَدِّ الأَنْهَضِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مَحْفُوظٍ. وَأَمَرْنَاهُمَا أَنْ يُلْقِيَا[1] إِلَيْكُمْ مَا أَلْقَيْنَاهُ إِلَيْهِمَا فَلْتَصَدِّقُوهُمَا[2] (Sic) فِي جَمِيعِ مَا يُلْقِيَانِهِ إِلَيْكُمْ وَيَعُودَانِ سَرِيعًا بِمَا تُودِعُو[نَـ]ـهُ[3] إِيَّاهُمَا. وَاللَّهُ تَعَالَى يُيَسِّرُ رُشْدَكُمْ وَيُسْنِي قَصْدَكُمْ. وَإِذَا وَصَلَا مِنْ عِنْدِكُمْ بِحَدِيثِ الصُّلْحِ وَتَيَسَّرَتْ بِذَلِكَ أَسْبَابُ النُّجْحِ أَخَذْنَا

---

(1) ـ أَنْ يُلْقِيَا: (عوض) لا يلقِيَان.

(2) ـ فَلْتَصَدِّقُوهُمَا : (عوض) لا فلْتُصدِّقاهُمَا.

(3) ـ بما تودعونَهُ : (عوض) بما تُودعوه.

- التّحليل

وَجَّهَ السّلطان يوسف وهو بتلمسان الجديدة التي سمّاها المنصورة وبناهَا خارج أسوار مدينة تلمسان العتيقة عاصمة مُلكِ بني عبد الواد إلى ملكِ أراغون جاقمو الثّاني لإشعارِهِ بوصول كِتَابِهِ صحْبَة كاتبه الخاصّ "غرْسيس لَشْبين" الذي اجتهد في تبليغ السّلطان مشاعر الودّ والاحترام التي عبّر عنها الملك وامتدح الرّسول بما أظهره من حِكمةٍ ونَبَاهةٍ وحرصٍ لدعمِ أواصِرِ المحبّة والتّعاون.

وأبلغ السّلطانُ ملكَ أراغون بقدوم الوفد من خدّامه والتّجّار القطلانيّين وحسن استقباله لهم والاعتناء بهم بما يليق بمكانة الملك.

وَأشار في آخر الرّسالة إلى المهمّة الأساسيّة التي قدِم من أجلها الرّسول وتخصّ علاقاته مع غرناطة وموقفها ولا شكّ من الأجوار القشتاليّين.

وذكر السّلطان أنّ رُسُلَ صاحب غرناطة قد وصلتْ بعد

واستقبلهم بمحضر سفير ملك أراغون. وتحدّث مع الوفدين فيما يخصّهُما ويُصلح العلاقة والأحوال بين البلدين، وبشّره بحصول الاتّفاق بما يرضي كلّ الأطراف.

- التّعليق

تُبيّن هذه الرّسالة المكانة التي كانت للدّولة المرينيّة منذ تأسيسها لقوّتها واتّساع رُقْعَتِهَا والدّور الكَبير المؤهّلة للقيام به. فجاقمو الثاني الملك الخبير بشؤون السّياسة والباني للقوّة القطلانيّة بإسبانيا والحوض الغربيّ للبحر الأبيض المتوسّط والمعتبر وقتئذٍ أعْظم ملك مسيحيّ بالمنطقة إذ لم يكن له مثيل بالعالم المسيحيّ بادر باستعطاف السّلطان يوسف المؤسّس الفعليّ للدّولة المرينيّة وخطاب ودّه والسّعي لإقامة علاقات تعاون تجاريّ وتحالف سياسيّ معه، بل تجاوز جاقمو هذه الخطوة وناشده بالتّدخّل لدى صاحب غرناطة لإقامة علاقات مصالحة وتعاون معه لتأمين نفسه من أطماع ملك قشتالة الرّاغب في التّوسّع والاستيلاء على ما تبقّى من ممالك ملوك الطوائف الإسلاميّة بالأندلس.

واستطاع جاقمو بفضل تدخّل السّلطان يوسف تحقيق الهدنة مع بني الأحمر وصاحب غرناطة.

فالرّسالة تؤكّد لنا قيمة التّحالفات السّياسيّة بالمنطقة ودورها في الحدّ من طموحات الملوك الأجوار مسيحيّين ومسلمين وتشير إلى طموحِ المرينيّين غير المحدود الذي استطاع كلّ من السّلطانين أبي سعيد وابنه أبي الحسن تجسيمه لاحقا.

ونستطيع في الختام أن نقول بوُثُوقٍ إنّ دور الدّولة المرينيّة النّاشئة أساسيّ في المنطقة وهامّ وخطير في الجناح الغربيّ للبلاد الإسلاميّة وهو يضاهي الدّور الذي اضطلعت به سالفتها الدّولة المُوحّديّة.

2°) - الوثيقة رقم 78 بالأرشيف

- التّقديم

هذا كتابٌ من يوسف بنِ يعقوب بْنِ عبد الحقّ إلى جاقمو الثّاني ملك أراغون بتاريخ موفّى ذي القعدة من سنة 703هـ الموافق لِـ 5 يولية من سنة 1304م حول احتلال سبتة وافتكاكها من صاحبها الخنّاق وموقف جاقمو الثّاني من الصّلح مع غرناطة وقشتالة.

ـ نصّ الرّسالة

مِنْ عَبْدِ اللَّهِ يُوسُفَ أَمِيرِ المُسلِمينَ اِبْنِ أَمِيرِ المُسلِمِينَ يَعْقُوبَ بْنِ عَبْدِ الحَقِّ أَيَّدَهُ اللَّهُ وَنَصَرَهُ وَأَسْعَدَ آصَالَهُ وَبُكَرَهُ إِلَى المَلِكِ الأَصْدَق الأَوْفَى الأَشْهَرِ الأَنْجَدِ دُونَ جَاقْمُه مَلِكِ أَرَغُونَ أَلْهَمَهُ اللَّهُ إِلَى الرَّشَادِ وَوَفَّقَهُ إِلَى السَّدَادِ.

وَبَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى وَالصَّلاَةِ التَّامَّةِ المُبَارَكَةِ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ رَسُولِهِ الكَرِيمِ المُصْطَفَى وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ أَعْلاَمِ الإِسْلاَمِ وَأَيمَّةِ الرُّشْدِ وَالهُدَى وَصِلَةِ الدُّعَاءِ لِهَذَا المَقَامِ الكَرِيمِ بالنَّصْرِ الأَعَزِّ وَالفَتْحِ الأَسْنَى.

فَإنَّا كَتَبْنَاهُ إِلَيْكُمَ بَصَّرَكُمْ اللَّهُ بِكُلِّ مَا يُصْلِحُ الأَحْوَالَ وَيُبْلِغُ الآمَالَ مِنْ حَضْرَتِنَا السَّعِيدَةِ بتِلِمْسَانَ[1]

---

(1) ـ كان السّلطان يوسف وقتئذ سلطان تلمسان وكان قد حاصرها وبقي محاصرا لها أيّام يغمراسن الزّيّاني وبنى حولها تلمسان الجديدة حيث كان يُقيم جُنده كما بعث بجيشه إلى سبتة لافتكاكها من

الجَدِيدَةِ كَلَّأَهَا اللَّهُ وَلاَ جَدِيدَ بِيُمْنِ اللَّهِ تَعَالَى إلاَّ الخَيْرُ الأَتَمُّ وَاليُسْرُ الأَعَمُّ وَالطُّولُ الجَزِيلُ الهَامِي الدِّيَمِ وَالحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيرًا وَإلَى هَذَا أَرْشَدَكُمْ اللَّهُ وَأَجْرَى أُمُورَكُمْ عَلَى مَا يُوَافِقُ الأَغْرَاضَ وَالمُرَادَ وَسَنَى بِهِ الخَيْرَ الَّذِي لاَ يَزَالُ فِي ازْدِيَادٍ.

فَإنَّا نُعَرِّفُكُمْ أَنَّهُ تَقَدَّمَ لَكُمْ الكَتْبُ قَبْلَ هَذَا بِأَيَّامٍ قَلاَئِلَ فِي شَأْنِ مَا كَتَبْتُمْ بِهِ مِنْ أَنَّكُمْ لاَ تُكْمِلُونَ صُلْحًا مَع صَاحِبِ غَرْنَاطَةَ وَلاَ مَعَ صَاحِبِ قَشْتَالَةَ إلاَّ بَعْدَ المُوَافَقَةِ مِنَّا عَلَى ذَلِكَ لِأَجْلِ مَا تَصَوَّرَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ مِنَ المُجَامَلَةِ وَالمُسَاعَدَةِ فِي جَمِيعِ الأُمُورِ وَمَا عُلِمَ مِنْ ذَلِكَ عِنْدَ الخَاصَّةِ وَالجُمْهُورِ. وَالآنَ لَمَّا تَأَكَّدَ عِنْدَنَا مِنْ مُشَارَكَتِكُمْ فِي الأَحْوَالِ التِي يَتَسَنَّى لِلْجَمِيعِ بِهَا الخَيْرُ فِي الحَالِ وَالاِسْتِقْبَالِ نُعَرِّفُكُمْ بِأَنَّ الخَنَّاقَ صَاحِبَ سَبْتَةَ تَرَتَّبَ لَنَا عِنْدَهُ مَايَةُ أَلْفِ دِينَارٍ مِنَ الذَّهَبِ فِي

صاحبها الخنّاق الذي كان وعد بدفع إيتاء سنويّ لم يُوفِ به وهو والٍ حليف لبني الأحمر بغرناطة.

هَذِهِ السِّنِينَ السَّالِفَةِ وَهْيَ الوَاجِبَةُ عَلَيْهِ المُعْتَادَةُ فَلَمَّا طَلَبْتُ مِنْهُ صَارَ يُعَامِلُنَا بِالتَّسْوِيفِ وَيَعْتَذِرُ بِأَعْذَارٍ لاَ تُقْبَلُ مِنْهُ تُنَاسِبُ حُمْقَهُ وَمَذْهَبَهُ السَّخِيفَ فَبَعَثْنَا مِنْ مَحَلاَّتِنَا وَجُيُوشِنَا وَقَبَائِلِ بِلاَدِنَا المُجَاوِرَةِ لِسَبْتَةَ مَنْ يَحْصُرُهَا فِي البَرِّ أَشَدَّ الحِصَارِ وَيُذِيقُ أَهْلَهَا النَّكَالَ وَالوَبَالَ فِي عُقْرِ الدَّارِ وَيسْتَوْلِي عَلَى مَا فِيهَا مِنَ المَوَاضِعِ وَيَقْطَعُ عَنْهَا جَمِيعَ المَرَافِقِ وَالمَنَافِعِ حَتَّى يُصَيِّرَهَا وَأَهْلَهَا عِبْرَةً لِلدَّانِي وَالقَاصِي وَنَسْتَوْلِيَ عَلَيْهَا بِحَوْلِ اللَّهِ فَلَيْسَ فِيهَا مَانِعٌ وَلاَ مُدَافِعٌ. وَرَأَيْنَا أَنْ تَأْمُرُوا جُمْلَةً مِنْ أَجْفَانِكُمْ تَنْزِلُ عَلَيْهَا فِي البَحْرِ فَإِنَّهَا مِنْ جِهَةِ المِينَةِ دُونَ سُورٍ لِيَكُونَ دُخُولُهَا هَيِّنًا فِي أَقْرَبِ أَمَدٍ. وَالمَايَةُ أَلْفٍ الَّتِي عَلَيْهِمْ لَكُمْ فِيهَا ـ إِنْ دَخَلَتْ بِالسَّيْفِ ـ خَمْسُونَ أَلْفِ دِينَارٍ وَلَنَا خَمْسُونَ أَلْفِ دِينَارٍ. فَأَنْتُمْ أَوَّلُ [مَنْ] نَخْتَصُّهُ بِهَذِهِ المَنْفَعَةِ الكَبِيرَةِ لِأَجْلِ مَا ثَبَتَ بَيْنَنَا مِنْ حُسْنِ المُعَامَلَةِ وَجَمِيلِ السِّيرَةِ. وَالقَصْدُ بِذَلِكَ أَنْ يَكُونَ فَتْحُهَا وَالاِسْتِيلاَءُ

عَلَيْهَا مُعَجَّلاً فَإِنَّهَا إِذَا حُصِرَتْ فِي البَرِّ وَالبَحْرِ كَانَ أَمْرُهَا قَرِيبًا مُسَهَّلاً. وَنُوَجِّهُ لِعُمْرَةِ أَجْفَانِكُمْ فِي البَرِّ مَا يَقُومُ بِهِمْ مِنَ الزَّرْعِ لِلْعَوْلَةِ. وَإِذَا دَخَلْتَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ فَكُلُّ مَا فِيهَا وَعِنْدَ أَهْلِهَا مِنْ جَمِيعِ الأَشْيَاء لَكُمْ فِيهِ أَوْفَرُ نَصِيبٍ. وَنَهْدِمُهَا حَتَّى لاَ يَبْقَى فِيهَا إِلاَّ السُّورُ. وَتَرْجِعُ أَجْفَانُكُمْ لِمَكَانِهَا، وَيَكُونُ لَنَا مِلْكُ سُورِهَا. وَفِعْلُكُمْ فِي ذَلِكَ مَشْكُورٌ.

وَإِنْ أَعْطَى أَهْلُ سَبْتَةَ المَالَ قَبْلَ أَنْ تَدْخُلَ البَلَدَ فَلَكُمْ فِيهِ ثَلاَثُونَ أَلْفِ دِينَار وَلَنَا سَبْعُونَ أَلْفِ دِينَار. وَهَذِهِ القَضِيَّةُ مَنْفَعْتُهَا لَكُمْ ظَاهِرَةٌ. وَهِيَ أَحْسَنُ مِنْ كُلِّ مَا تَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ أَجْفَانِكُمْ[1]. وَقَدْ أَلْقَيْنَا لِأَخِي القَائِدِ الأَنْجَدِ بَرْنَاطَ سَجِينَ وَلِلْخَدِيمِ أَبِي العَبَّاسِ الطُّرْطُوشِي صِهْرِ ابْنِ الكَمَادِ أَعَزَّهُ اللَّهُ فِي ذلِكَ مَا يُلْقِيَانِهِ لَكُمْ عَلَى التَّمَامِ. وَالقَصْدُ فِي هَذَا أَنْ يَكُونَ تَوْجِيهُكُمْ

---

(1) ـ إقرار بالنّفع الذي يجرّ قطع الأجفان.

لِلأَجْفَانِ مُعَجَّلاً قَبْلَ أَنْ يَبْرُدَ الفَصْلُ وَيَنْقَطِعَ البَحْرُ. فَإِذَا بَرَدَ الفَصْلُ فَلاَ فَائِدَةَ لِتَوْجِيهِ الأَجْفَانِ فَإِنَّ الجَيْشَ فِي البَرِّ يَأْخُذُهَا. فَإِنْ عَزَمْتُمْ عَلَى هَذَا فَوَجِّهُوا الأَجْفَانَ طَالَمَا هُوَ زَمَنُ عَوْمِهَا فِي البَحْرِ بَاقٍ. وَأَمَّا إِذَا انْفَصَلَ زَمَنُ الحَقِّ فَلاَ تَطْلُبُوا مِنَّا التَّوْفِيَةَ لَكُمْ بِمَا ذَكَرْنَا فِي كِتَابِنَا إِلاَّ إِذَا جَدَّدْتُمْ حَرَكَةً أُخْرَى فِي زَمَنِ الرَّبِيعِ، فَحِينَئِذٍ نُجَدِّدُ[1] مَعَكُمْ أَيْضًا مِنَ الرَّبْطِ إِنْ بَقِيَتْ سَبْتَةُ لَمْ تُؤْخَذْ مِنَ البَرِّ. فَخَلِّصُوا هَذَا الأَمْرَ لِجِهَةٍ. وَعَجِّلُوا الجَوَابَ عَلَى هَذَا الكِتَابِ بِمَا فِيهِ الخَيْرُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ. وَاللَّهُ يُجْرِي الأُمُورَ عَلَى وِفْقِ المُرَادِ بِمَنِّهِ.

وَكُتِبَ فِي عَقِبِ شَهْرِ ذِي القَعْدَةِ عَامَ ثَلاَثَةٍ وَسَبْعِمَايَةٍ.

وَكُتِبَ فِي التَّارِيخِ.

(1) ـ تأكيد للتّحالف الحاصل بين السّلطانين.

ـ التّحليل

إنّ هذِه الرّسالة هامّة. فهي تشير إلى موقف جاقمو الثّاني ملك أراغون من الصّلح المقترح مع صاحب غرناطة وملكٍ قشتالة. فهو يبلغ السّلطان في كتاب رسميّ سابق أنَّهُ لا يبرم هذا العقد إلاّ بعد موافقته ورضاه على مختلف بنوده. وهذا يؤكّد عمق المودّة التي أصبحت قائمة بين السّلطانين والتّحالف الذي توثّق بينهما. وهو ما يضمن لسلطان فاس المرينيّ تنفيذ مخطّطاته واستيلاءه على سبتة كما أخبر ملك أراغون في هذه الرّسالة. فيقول في هذا الكتاب: "فِي شَأْنِ مَا كَتَبْتُمْ.... قَبْلَ هَذَا بِأَيَّامٍ قَلاَئِلَ مِنْ أَنَّكُمْ لاَ تُكْمِلُونَ صُلْحًا مَع صَاحِبِ غَرْنَاطَةَ ولاَ مَعَ صَاحِبِ قَشْتَالَةَ إلاَّ بَعْدَ الْمُوَافقَةِ مِنَّا علَى ذَلِكَ لِأَجْلِ مَا تَصَوَّرَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ مِنَ الْمُجَامَلَةِ والْمُسَاعَدَةِ فِي جَمِيعِ الأُمُورِ"[1].

ونرى السّلطانَ لَمَّا تَأكّدَ من صداقة ملك أراغُونَ وَقَبُولِه

---

[1] ـ اُنظر الوثيقة رقم 78 وموقف جاقمو الثّاني من الصلح مع قشتالة وغرناطة.

مُساعدته بادر بإعلامه بعزمه على التّوجّه إلى سبتة لاحتلالها لموقف صاحبها ابن الخنّاق من الاتّفاق الذي كان تمّ معه بدفع إيتاء سنويّ ترتّب عنه مائة ألف دينار صارت في ذمّته لفائدة المرينيّين. ومن أجل ذلك طلب السّلطان في هذا الكتاب من جاقمو الثّاني مساعدته لاحتلال سبتة بإرسال أسطول من الأجفان ينزل بسبتة بحرا إلى جانب الجيش الذي يرسله السّلطان برّا ويَعِده بمقابل هامّ نصف المبلغ المطلوب أي خمسين ألف دينار ذهبا إن خاض الأسطول معركة مع سبتة وثلاثين ألف دينار فحسب إن تمّ الاحتلال بدون معارك ويعلن السّلطان أنّه يتحمّل عمارة الأجفان وتجهيزها لاسيّما بالزّرع والحبوب. فالسّلطان يوسف يعرض على حليفه صفقة تجاريّة تعود عليه بالنّفع العميم والفائدة الكبرى كما ذكر له في هذه الرّسالة : "...وَالمَايَةُ أَلْفِ الَّتِي عَلَيْهِمْ لَكُمْ فِيهَا إنْ

دَخَلَتْ بالسَّيْفِ خَمْسُونَ أَلْفِ دِينَارٍ وَلَنَا خَمْسُونَ أَلْفِ دِينَارٍ فَأَنْتُمْ أَوَّلُ [مَنْ][1] نَخْتَصُّهُ بِهَذِهِ المَنْفَعَةَ الكَبِيرَةَ لأَجْلِ مَا ثَبَتَ بَيْنَنَا مِنْ حُسْنِ المُعَامَلَةِ وجَمِيلِ السِّيرَةِ". ويواصل السلطان ترغيب حليفه فيقول له: "فَكُلُّ مَا فِيهَا وَعِنْدَ أَهْلِهَا مِنْ جَمِيعِ الأَشْيَاءِ لَكُمْ فِيهِ أَوْفَرُ نَصِيبِ. وَنَهْدِمُهَا حَتَّى لاَ يَبْقَى فِيهَا إلاَّ السُّورُ وَتَرْجِعُ أَجْفَانُكُمْ لِمَكَانِهَا وَيَكُونُ لَنَا مِلْكُ سُورِهَا". فنَرى السّلطان يغريه لكن يشترط عليه أن لا يطالب بشيء آخر فالسّور له ـــ أي المدينة ـــ تصبح ملكا للمرينيّين. ونراه كيف تجاوز المشكل الذي قد يحدث، فقد يهدم كامل المدينة ولا يبقى منها إلاّ السّور ويقوم بعدئذ بإعادة بنائها وإعمارها.

ويواصل التّرغيب في الرّسالة بقوله: "وَهَذِهِ القَضِيَّةُ مَنْفَعَتُهَا لَكُمْ ظَاهِرَةٌ وهِيَ أَحْسَنُ مِنْ كُلِّ مَا تَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ أَجْفَانُكُمْ". فيريد إقناعه بأنّ دخل الأجفان من هذه العمليّة

---

[1] ـ تمّت الزيادة ليستقيم التّركيب والمعنى.

أحسن بكثير من أيّ عمليّة أخرى: المقصود بـالطَبع الكـراء أو القطع. ويبيّن السّلطان أنّ توجيه الأجفان ينبغي أن يتـمّ في أقرب وقت على كلّ قبل أن يبرد الفصل وينقطع البحـر فبعد ذلك لا فائدة في الأجفان فتتمّ العمليّة عندئذ بـرّا. وإن لم يتوفّق في السّيطرة عليها برّا وتأخّر قـدوم الأجفـان يعيـد الكرّ في الرّبيع. ويمكن لأراغون المشـاركة في العمليّـة بنفس الأسس والشّروط.

فهـذه الرّسـالة تُجسّم هـذا التّحـالف الـذي تمّ بـين الحاكميْن.

ـ التّعليق

نقـف مـن خـلال هـذه الرّسـالة علـى مطـامح كـلّ مـن السّلطانيْن ومبادئهما السّياسيّة:

1 ـ يبدو ملك أراغون مشغولا بالنّاحية المادّيّة ولا يهمّه إلاّ الحصول على الأموال والدّنانير الذّهبيّـة. وهـذا التّوجّـه أساسـيّ في سياسـته وعلاقاتـه بمختلـف الـدّول المغاربيّـة:

إفريقيّة الحفصيّة وتلمسان الزّيّانيّة والمرينيّين.

2 ــ أمّـا السّـلطان المريـنيّ فهـو مشـغول أوّلا بالتّوسّـع والاستيلاء على ممالك أخـرى مثـل جـاره المسيحيّ ملك قشتالة الـذي يخطّـط دومـا للاستيلاء علـى مـدن ملـوك الطّوائف وما تبقّى من الممالك الإسلاميّة بالأندلس.

3 ـ نلاحظ كيف يتعاون السّلطان المرينيّ مع منافسه ملك أراغون ومع ملك أجنبيّ للإحاطة بدُوَيْلة مسلمة على السّاحل المغاربيّ: هي سبتة.

4 ـ وأخيرا يتأكّد لنا أنّ النّاحية الدّينيّة لدى المرينيّين والممالك الإسلاميّة المجاورة لا تحتلّ أهمّيّة كبرى في سياستهم، فالمهمّ هو التّوسّع التّرابيّ والسّيطرة على مدن وأراض أخرى والقضاء على الأعداء المنافسين من الممالك الإسلاميّة المجاورة وبشتّى الطّرق ولو كان ذلك على حساب المبادئ والأخلاق والدّين. وهو عمل في الحقيقة يضعف جانب هذه الدّول ويسمح للعدوّ المتربّص بالانقضاض عليهم في أيّ مناسبة سانحة.

3°) ـ الوثيقة رقم 79 بالأرشيف

ـ التّقديم

هذا كتاب من يوسف بن يعقوب إلى جاقمو الثّاني ملك أراغون حول المفاوضات الخاصّة بالصّلح بين أراغون وقشتالة والسّفير الذي أرسله لمناقشة الموضوع وذلك بتاريخ 18 ذي القعدة من سنة 703هـ الموافق لـ 23 جوان من سنة 1304هـ.

- نصّ الرّسالة

مِنْ عَبْدِ اللَّهِ يُوسُفَ أَمِيرِ الْمُسلِمينَ ابْنِ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ يَعْقُوبَ بْنِ عَبْدِ الحَقِّ أَيَّدَهُ اللَّهُ بِنَصْرِهِ وَأَمَدَّهُ بِمَعُونَتِهِ وَيُسْرِهِ إِلَى المَلِكِ الأَجَلِّ الأَسْنَى الْمُكَرَّمِ الأَشْهَرِ الأَوْفَى الأَحْفَلِ دُونَ جَاقْمُ مَلِكِ أَرَغُونَ سَنَى اللَّهُ إِرْشَادَهُ وَشَكَرَ خُلُوصَهُ لِهَذَا الجَانِبِ الكَرِيمِ وَاعْتِقَادَهُ.

أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى وَالصَّلاَةِ التَّامَّةِ الْمُبَارَكَةِ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلاَنَا مُحَمَّدٍ رَسُولِهِ الكَرِيمِ وَنَبِيِّهِ الْمُصْطَفَى وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ أَعْلاَمِ الإِسْلاَمِ وَأَيِمَّةِ الرُّشْدِ وَالهُدَى وَصِلَةِ الدُّعَاء لِهَذِهِ الإِيَالَةِ العَلِيَّةِ بِالنَّصْرِ الأَعَزِّ وَالفَتْحِ الأَسْنَى.

فَإِنَّا كَتَبْنَاهُ إِلَيْكُمْ مِنْ حَضْرَتِنَا السَّعِيدَةِ بِتِلِمْسَانَ الْمُبَارَكَةِ الجَدِيدَةِ كَلأَهَا اللَّهُ وَلاَ نَاشِئَ بِفَضْلِ اللَّهِ وَحْدَهُ وَبَرَكَةِ هَذَا الْمُقَامِ الكَرِيمِ وَإِلَى اللَّهِ نَصْرُهُ وَعَضْدُهُ إِلاَّ الخَيْرُ الأَتَمُّ وَاليُسْرُ الأَعَمُّ وَالحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى ذَلِكَ كَثِيرًا وَإِلَى هَذَا سَنَى اللَّهُ إِرْشَادَكُمْ فَإِنَّا نُعَرِّفُكُمْ بِوُصُولِ

كَتَابِكُمْ الأَثِيرِ تَعَرَّفْنَا مِنْهُ مَا عِنْدَكُمْ مِنَ المُوَافَقَةِ فِي جَمِيعِ الأُمُورِ وَالجَرْيِ عَلَى المَذْهَبِ المَحْمُودِ المَشْكُورِ وَالبَقَاءِ عَلَى مَا يُثْبِتُ مَا بَيْنَنَا مِنَ الأَحْوَالِ التِي يَتَسَنَّى بِهَا الخَيْرُ الشَّامِلُ المَوْفُورُ. وَذَكَرْتُمْ أَنَّكُمْ تَكَلَّمْتُمْ فِي شَأْنِ صُلْحِكُمْ مَعَ صَاحِبِ قَشْتَالَةَ وَصَاحِبِ غَرْنَاطَةَ وَأَنَّ تَصْحِيحَ ذَلِكَ أَوْ تَمْحِيلَهُ يَظْهَرُ عِنْدَ انْقِضَاءِ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ كَمَا ذَكَرْتُمْ وَأَنَّ كَاتِبَكُمْ الذِي تَوَجَّهَ مِنْ هُنَا أَلْقَى لَكُمْ جَمِيعَ مَا أَلْقَيْنَاهُ لَهُ مِنَ الكَلاَمِ عَلَى الكَمَالِ وَالتَّمَامِ وَأَنَّكُمْ أَخَذْتُمْ ذَلِكَ بِالقَبُولِ. وَقَدْ تَقَرَّرَ مِنْ وَفَائِكُمْ لَدَيْنَا مَا الشُّكْرُ بِسَبَبِهِ مَوْصُولٌ وَعَرَفْتُمْ أَنَّ صُلْحَكُمْ مَعَ صَاحِبِ غَرْنَاطَةَ لا يَكُونُ إِلاَّ بِمُوَافَقَتِنَا. وَنَحْنُ نُعَرِّفُكُمْ أَنَّكُمْ إِنْ أَرَدْتُمْ الصُّلْحَ مَعَهُ فَنَحْنُ نَشْتَرِطُ لَكُمْ عَلَيْهِ مَا يُوفِي بِهِ عَلَى أَحْسَنِ وَجْهٍ مِمَّا يَكُونُ مَصْلَحَةً لِلجَمِيعِ وَسَبَبًا لِكُلِّ مَا يَثْبُتُ بِهِ التَّأْصِيلُ فِي الخَيْرِ وَالتَّفْرِيعُ. وَقَدْ وَصَلَ إِلَى هُنَا مَنْ وَصَلَ مِنْ بَنِي مَرِينَ أَعَزَّهُمْ اللَّهُ الذِينَ بِبِلاَدِكُمْ وَأَثْنَوْا عَلَيْكُمْ ثَنَاءً جَمِيلاً وَذَكَرُوا مَا

أَوْلَيْتُمُوهُمْ مِـنَ الكَرَامَـةِ التِـي أَوْجَبَـتْ لَكُـمْ مِنَّـا رَعْيًـا حَفِيلاً. وَتَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ تَرَكُوا أَوْلاَدَهُمْ وَعِيَالَهُمْ بِغَرْنَاطَةَ، وَاقْتَضَى نَظَرُنَا أَنْ يَعُودُوا إِلَيْهَا لِيَجُوزُوا إِلَـى هُنَـا مِـنَ الأَنْدَلُسِ بِأَوْلاَدِهِمْ وَمَنْ مَعَهُمْ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنَ المَصْلَحَـةِ التِـي تَشْمَلُ جَمِيعَهُـمْ. وَالغَـرَضُ أَنْ يَكُـونَ انْفِصَـالُهُمْ عَنْكُـمْ خَـيْرَ الانْفِصَـال وَأَنْ تُولُوهُـمْ مِـنَ الاعْتِنَـاء بِهِـمْ وَالتَّيْسِيرِ لِمَطَالِبِهِمْ مَا نَشْكُرُكُمْ عَلَيْهِ [عَلَى][1] كُلِّ حَال وَأَنْ تَبْعَثُوا إِلَى هُنَا مِنْ خَوَّاصِّكُـمْ مَـنْ يَحْضُرُ لِكَلاَمِنَـا مَعَ الأَنْدَلُسِ وَغَيْرِهِمْ حَتَّى يَعْلَمَ النَّاسُ[2] مَـا بَيْنَنَـا مِـنَ المُوَافَقَةِ وَالمُجَامَلَةِ بِحَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى وَهُوَ سُبْحَانَهُ يُسْنِي إِرْشَادَكُمْ.

وَكُتِبَ فِي الثَّامِنِ عَشَرَ مِـنْ شَـهْرِ ذِي القَعْـدَةِ عَـامَ ثَلاَثَةٍ وَسَبْعِمَايَةٍ.

وَكُتِبَ فِي التَّارِيخِ.

---

(1) ـ تمّت الزيادة ليستقيم التّركيب والمعنى.

(2) ـ يعلن عن رغبته في إشهار هذا التّحالف الذي لم يعد سرّيًا.

ـ التّحليل

تُعرّفنا هذه الرّسالة التي وجّهها السّلطان يوسف بن يعقوب إلى جاقمو الثّاني على موافقة هذا الأخير على عُرُوضِه فِي المُرَاسَلَةِ السّابقة (وثيقة 78) الخاصّة بمُشاركته في غزو سبتة وموقفه من عقد الصّلح المقترح إبرامه مع ملك قشتالة وصاحب غرناطة بعد اطِّلاَعِ السّلطان عليه والموافقة على كلّ بنوده.

ونفهم من خلال هذه الرّسالة[1] أنّ جاقمو الثّاني قام بعدُ بالتّفاوض مع ملك قشتالة وصاحب غرناطة ابن الأحمر وأعلمهما أنّ العقد لا يمكن أن يبرم إلاّ بعد موافقة السّلطان يوسف ولا يطبّق إلاّ بعد انقضاء أربعة أشهر على إبرامه.

---

(1) ـ هذه الرّسالة التي أُرْسلت مِنْ تلمسان الجديدة وتلمسان محاصرة أُرْسلت قبل الرّسالة السّالفة وثيقة 78 باثني عشر يوما حول موضوع محاصرة سبتة واحتلالها مع الاستعانة بأجفان ملك أراغون بحرًا صاحب سبتة حليف بني الأحمر. وكان السّلطان يوسف طلب من ملك أراغون مساعدته بحرا على احتلال سبتة المطالبة للمرينيّين بمائة ألف دينار.

فأثنى السّلطان على ملك أراغون لهـذا الموقف وشكره على حسن صنيعه مع المرينيّين المتواجدين ببلده ورعايته لهم وعنايته بهم وأبلغه أنّ هؤلاء المرينيّين يريدون التّوجّه إلى غرناطة للرّجوع بعيالهم المتواجدين هنالك وبعد ذلك يتمّ الصّلح بما يضمن مصلحة الجميع ، ويُعلمه أنّه إذا أراد الصّلح مع صاحب غرناطة فإنّه يشترط بنفسه عليه الشّروط التي لا بدّ أن يُوفي بها على أحسن وجه بطريقة تخدم مصلحة الجميع. فنراه يذهب بعيدا في تدخّله لدى ملك أراغون ويقترح أن يتولّى بنفسه الاشتراط على صاحب غرناطة ووضع بنود الصّلح. ويبدو بذلك جريئا وواثقا من نفسه إلى أبعد حدّ.

ـ التّعليق

إنّ هذه الوثيقة تؤكّد لنا التّحالف الذي تمّ بين الملكين والبلدين : ملك أراغون وسلطان فاس المرينيّ. ونرى أنّ هذا التّحالف قام ضدّ بلدين جارين : بلد مسيحيّ قشتالة وبلد

مسلم مملكة غرناطة بالأندلس. ويتمّ هـذا التّحـالف وتنتظـم خيوطه وتتبني أسسه بمرأى ومسمع من الجميع فالسّـلطان يطلب من جاقمو الثّاني ملـك أراغـون إرسـال بعـض ثقاتـه وسفرائه ليحضـروا جلسـات التّفـاوض مـع ممثّلـي غرناطـة والأندلسـيّين "حَتَّـى يَعْلَـمَ النَّـاسُ مَـا بَيْنَهُـمْ" مـن الموافقـة والمجاملة[1].

نستنتج أنّ التّحالف غـيرُ قـائم علـى المصلحـة الدّينيّـة والعقائديّة بل علـى المصلحـة الذّاتيّـة والشّـخصيّة فلـم يقـم جاقمو الثّاني بنصرة جاره المسيحيّ ملك قشتالة ولم يندفـع السّـلطان المرينـيّ إلى نصـرة جـاره المسـلم ضـدّ النّصـارى. فالعلاقـات القائمـة مصلحيّـــة ولا تعتـبر دائمـا الجـانب العقائديّ وإن كان الأمر وقتيّا وغير دائم.

---

(1) ـ انُظر الوثيقة رقم 78 وما يتبعها من تحليـل: يقـترح السّـلطان علـى ملك أراغون إرسال أسطول بحريّ يساعده على احتلال سبتة مقـابل 50 000 دينارا ذهبا في صورة وقـوع الحـرب و000 30 دينـارا إذا تمّ الاحتلال سلمًا.

4°) ـ الوثيقة رقم بالأرشيف 80

ـ التّقديم

هذه رسالة بتاريخ 20 ذي القعدة من سنة 707هـ الموافق لـ 13 ماي من سنة 1308م من عبد اللّه عامر ابن الأمير أبي عامر بن أبي يعقوب بفاس إلى جاقمو الثّاني ملك أراغون تتعلّق بالسّفير برناط ساقي والمفاوضات مع ملك أراغون عن طريق رئيس الحرس المسيحيّ بالبلاط المرينيّ: برناط سجين.

- نصّ الرّسالة

مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عَامِرَ أَمِيرِ المُسْلِمِينَ اِبْنِ الأَمِيرِ أَبِي عَامِرَ اِبْنِ أَمِيرِ المُسلِمِينَ أَبِي يَعْقُوبَ اِبْنِ أَمِيرِ المُسْلِمِينَ أَبِي يُوسُفَ بْنِ عَبْدِ الحَقِّ أَيَّدَهُ اللَّهُ بِنَصْرِهِ وَأَمَدَّهُ بِمَعُونَتِهِ وَيُسْرِهِ إِلَى سُلْطَانِ أَرَغُونَ وَبَلَنْسِيَّةَ الأَجَلِّ الأَنْجَدِ المُبَجَّلِ الأَرْشَدِ الأَرْفَعِ الأَوْفَى الأَضْخَمِ جَاقْمُ أَتَاحَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ تَوْفِيقَهُ وَإِرْشَادَهُ وَجَعَلَ عَلَى تَقْوَاهُ التِي تَعْبُدُ بِهَا الخَلْقُ اعْتِمَادَهُ.

أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى وَالصَّلاَةِ التَّامَّةِ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ الكَرِيمِ وَرَسُولِهِ المُحْتَبَى وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ أَعْلاَمِ الإِسْلاَمِ وَأَيِمَّةِ الهُدَى وَالدُّعَاء لِهَذِهِ الإِيَالَةِ العَالِيَةِ العَامِرِيَّةِ السَّمِيَّةِ بِالنَّصْرِ الأَعَزِّ وَالفَتْحِ الأَسْنَى.

فَإِنَّا كَتَبْنَاهُ كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ تَقَدُّمًا فِي العَمَلِ المَحْظِيِّ بِالسَّعَادَةِ وَتَرَمُّمًا فِي مَنْ فَازَ بِالحُسْنَى فِي سَابِقِ

الإِرَادَةِ مِنْ حَضْرَتِنَا بِمَدِينَةِ فَاسَ حَرَسَهَا اللَّهُ تَعَالَى عَنِ الخَيْرِ الأَتَمِّ وَاليُسْرِ الأَعَمِّ وَالحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ كَثِيرًا. وَإِلَى هَذَا وَصَلَ اللَّهُ إِرْشَادَكُمْ وَأَجْزَلَ مِنْ خَيْرِهِ مُسْتَفَادَكُمْ فَإِنَّهُ وَصَلَنَا كِتَابُكُمْ فَتَلَقَّيْنَاهُ بِالقَبُولِ وَقَابَلْنَاهُ بِالاعْتِنَاءِ المَوْصُولِ. طَلَبْتُمْ أَنْ نُوَجِّهَ لَكُمْ خَدِيمَنَا القَائِدَ الأَجَدَّ بَرْنَاطَ سَجِينَ[1] إِلَى هُنَالِكُمْ وَرَغِبْتُمْ مِنَّا أَشَدَّ الرَّغْبَةِ فِي ذَلِكُمْ لِيَقَعَ اجْتِمَاعُكُمْ بِهِ فِيمَا يَفْتَحُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَبْوَابَ المُرَاسَلَةِ وَيُؤَكِّدَ أَسْبَابَ المُوَاصَلَةِ. وَقَدْ بَعَثْنَاهُ إِلَيْكُمْ كَمَا طَلَبْتُمْ وَوَجَّهْنَاهُ رَسُولاً نَحْوَكُمْ حَسْبَمَا أَرَدْتُمْ وَأَصْحَبْنَاهُ ثِقَتَنَا الشَّيْخَ الأَجَلَّ الأَجَدَّ الأَنْصَحَ أَبَا العَبَّاسِ اِبْنَ الكَمَادِ التُّرْجُمَانَ أَعَزَّهُ اللَّهُ تَعَالَى فَصَدِّقُوهُمَا فِيمَا تَوَجَّهَا بِهِ عَنَّا مِمَّا أَلْقَيْنَاهُ لَهُمَا فِي شَأْنِ العِمَارَةِ فِي البَحْرِ وَخُذُوا مَعَهُمَا فِي ذَلِكُمْ أَخْذًا يَقْضِي لِرَغَائِبِكُمْ كُلِّهَا لَدَيْنَا بِاليُسْرِ. وَكَمِّلُوا مَا تَوَجَّهَا

---

[1] ـ برناط سجين: قائد الحرس المسيحيّ ببلاط السّلطان وجيشه. يكلّف بمهمّة الوساطة والتّفاوض.

لَكُمْ بهِ مِنَ المَقَاصِدِ وَاعْمَلُوا فِي ذَلِكُمْ عَمَـلاً يَعُـودُ عَلَـى بلاَدِكُمْ مِنْ بلاَدِنَا بِأَجْمَلِ العَوَايِدِ وَاعْلَمُوا أَنَّ لَدَيْنَا مِـنْ رَعْيكُمْ وكَرِيـمِ.... كَمَـا سَـلَكْنَا فِـي الحـ.... المُرَاشـدِ [وَأَشَـرْتُمْ](1) فِـي كِتَـابكُمْ إِلَـى أَنْ [يَبْقَـى] هُنَـا عَلَـى جَمَاعَةِ القَائِدِ بَرْنَاط سَجينَ رَسُولِكُمْ بير شَـمَا[نيـس](2) إِلَـى أَنْ يَعُـودَ بَرْنَـاطُ سَجينُ مِـنْ قِبَلِكُـمْ. وَقَـدْ عَمِلْنَـا بَحَسَبِ إِشَارَتِكُمْ في إِقَامَةِ بيرَ شَمَانِيسْ عَلَـى الجَمَاعـةِ تَتْمِيمًا لِمَطْلَبكُمْ وَوُقُوفًا مَعَ أَرَبكُمْ فَـاعْلَمُوا وَاللَّـهُ يَصِـلُ إِرْشَادِكُمْ وَيُوَالِي إِسْعَادَكُمْ بِمَنِّهِ وكَرَمِهِ لاَ رَبَّ سِوَاهُ وَلاَ مَعْبُودَ إلاَّ إِيَّاهُ.

وَكُتِبَ فِي المُوَفَّى عِشْرِينَ لِشَهْرِ ذِي القَعْدَةَ المُبَـارَكِ عَامَ سَبْعَةٍ وَسَبْعِمَايَةٍ.

وَكُتِبَ فِي التَّارِيخِ.

---

(1) ـ تمّت الزيادة ليستقيم التّركيب والمعنى.

(2) ـ تمّت الزيادة ليستقيم التّركيب والمعنى.

- التّحليل

بعث السّلطان عبد الله عامر[1] ابن الأمير أبي عامر ابن السّلطان أبي يعقوب هذه الرّسالة إلى جاقمو الثّاني المتحالف مع المرينيّين وخاصّة مع السّلطان الأسبق العظيم يوسف باني الدّولة المرينيّة والباسط نفوذها على معظم بلادِ المغرب وسبتة وجبل طارق والمهدّد لأجواره المسيحيّين والمسلمين.

فنرى في هذا الكتاب اعتمادا على التّحالف القديم السّلطان يستجيب لطلب جاقمو ملك أراغون ويوجّه له قائد حرسه المسيحيّ برناط سجين مثلما اقترح كسفير ورسول بمعيّة ترجمانه أبي العبّاس ابن الكماد ليجتمع به الملك ويعطيه ولا شكّ تعليماته وتوصياته.

---

(1) - عند وفاة السّلطان يوسف باني مدينة المنصورة حول تلمسان خلفه السّلطان أبو ثابت عامر بن عبد الله بن يوسف وثار عليه الأمير يوسف بن محمّد بن أبي عبّاد بن عبد الحق وآل الحكم لمّا هلك أبو ثابت عامر إلى السّلطان أبي الرّبيع سليمان بن أبي عامر عبد الله بن يوسف.

أمّا المهمّة الرّسميّة والظّاهرة حسب الرّسالة فتتمثّل في النّظر في كيفيّة العمارة في البحر وكراء المراكب فملك أراغون في حاجة للمال ولكراء مراكبه.

ويقوم السّلطان المرينيّ في الآخر بإعلام ملك أراغون بأنّه نزل عند رغبته وعيّن القائد بير شمانيس على رأس الحرس المسيحيّ العامل بقصر السّلطان وذلك عوضا عن القائد برناط سجين الذي تحوّل في مهمّة لبرشلونة باقتراح من جاقمو الثّاني.

ونرَى ملك أراغون يتصرّف حسبما ورد في هذه الرّسالة وكأنّه السّلطان وهذا الأخير يبدو ضعيفا لا يملك إلاّ الإذعان والاستجابة !!

- التّعليق

نلاحظ موقف هذا السّلطان الضّعيف لأنّه مهدَّد من بقيّة الأمراء المرينيّين المنافسين له والسّاعين للاستيلاء على الحكْم... فهو لا يملك إلاّ الاستجابة والإذعان ليرضى ملك

أراغون. أمّا السّـلطان يعقـوب يوسـف فرأينـاه في الرّسـائل السّابقة الآمر النّاهي والمقرّر للسّياسة وللشّروط التي اعتمدها عقد الصّلح مع غرناطة وقشتالة.

فتلـك حـال السّياسـة تتلـوّن بلـون أصحابهـا وتتشـكّل حسب شكل أبطالها: مواقف ضعف مع الضّعفـاء ومواقـف قوّة مع الأقوياء مثل السّلطان يوسف كما مرّ.

إنّ هذه الوثيقة وسابقاتها صورة لوضع الدّولـة المرينيّـة وسياسـتها ومواقفهـا مـع أجوارهـا المسـلمين والمسـيحيّين خاصّة بالمنطقة الإيبيريّة المغاربيّة.

5°) ـ الوثيقة عدد 81 بالأرشيف

ـ التّقديم

هذه الرّسالة غير مؤرّخة إذ أنّ تاريخها في الوثيقة الأصليّة بالأرشيف غير واضح ولا يقرأ سواء بالعربيّة أو القطلانيّة. وهي موجّهة من السّلطان عبد الله سليمان ابن الأمير أبي عامر بن السّلطان أبي يعقوب إلى جاقمو الثّاني ملك أراغون. فتكون الرّسالة أرسلت بين سنتي 708هـ و709هـ المدّة التي تمّت فيها مبايعته. ونعلم أنّه في 24 ربيع الثّاني من سنة 709هـ الموافق لواحد أكتوبر من سنة 1309م راسل جاقمو الثّاني في موضوع الأجفان والحرب مع بني الأحمر وتصرّف رسوله "جُزْبَرْتْ" في البحر ومخالفته أوامر السّلطان. ومن المرجّح أن تكون وُجّهت الرّسالة في ربيع الأوّل من سنة 709هـ قبل رسالة الوثيقة 82 في 24 ربيع الثّاني سنة 709هـ.

- نصّ الرّسالة

عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ سُلَيْمَانَ أَمِيرِ المُسْلِمِينَ أَبِي يَعْقُوبَ ابْنِ أَمِيرِ المُسْلِمِينَ أَبِي يُوسُفَ بْنِ عَبْدِ الحَقِّ أَيَّدَهُ اللَّهُ وَنَصَرَهُ وَوَالَى يُمْنَهُ وظَفَرَهُ نَتَطَلَّقُ بِهِ.... ثِقَةَ المَلِكِ الأَجَلِّ الأَضْخَمِ المُكَرَّمِ دُونْ جَاقْمُ مَلِكِ أَرَغُونَ يَسَّرَهُ اللَّهُ لِلرَّشَادِ وَهَدَاهُ لِلْخَيْرِ المُسْتَفَادِ عَلَى أَخْذِ الثُّلُثِ الَّذِي كُنَّا أَمَرْنَا لَهُ بِهِ.... وَالنَّصَارَى القَطْلاَنِيِّينَ.... مِنْ مَرَاسِي بِلاَدِنَا مَهَرَهَا اللَّهُ سَبْتَةَ وَغَيْرِهَا إِطْلاَقًا تَامًّا أَصْلاً عَامًّا وَلاَ [سَبِيلَ][1] مُتَّفَقٌ لَهُ فِي ذَلِكَ بِوَجْهٍ وَلاَ عَلَى حَالٍ.... فِيهِ بِالتَّيْسِيرِ التَّامِّ وَالاهْتِبَالِ. فَقَدْ [أَمَرْنَا لَهُ أَخْذَ ذَلِكَ][2] إِبَاحَةً.... بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ مِنَ العَهْدِ المَشْكُورِ وَالوِدِّ المَأْثُورِ مُعْتَنًى بِهِ فِي ذَلِكَ [الاعْتِنَاء العِلْمِ][3] مُعَامَلاً بِالبِرِّ وَالإِكْرَامِ وَمُوَفًّى لَهُ

(1) - تمّت الزيادة ليستقيم التّركيب والمعنى.

(2) - تمّت الزيادة ليستقيم التّركيب والمعنى.

(3) - تمّت الزيادة ليستقيم التّركيب والمعنى.

فِيهِ مَـا يَجِـبُ مِـنَ اللَّحْـظِ وَالاهْتِمَـامِ عَمَّـا.... عِنْدَنَـا مِنْ.... الخَطِيرِ مِنَ الاِخْتِبَاءِ.... فَلْيَعْمَلْ....[1]

وَكُتِبَ فِي العَاشِـرِ لِشَـهْرِ رَبيـعِ الأَوَّل المُبَـارَكِ.... وَسَبْعِـ.... يَتَوَلَّى أَخْذَ الثُّلُثِ المَذْكُورِ مِنْ كُلٍّ....[2] مِنَ المُسْـلِمينَ وَالنَّصَـارَى القَطْلاَنِيِّـينَ وَاليَهُـودِ وَسَـوَاء كَـانَ....[مِـ]ـنْ [مَـ]ـيُورْقَةَ أَوْ غَيْرِهَـا مِـنْ بِـلاَدِهِ المَذْكُورَةِ....[3]

وَكُتِبَ فِي التَّارِيخِ.

---

[1] ـ فراغ في النّصّ الأصلي.

[2] ـ فراغ في النّصّ الأصلي.

[3] ـ فراغ في النّصّ الأصلي.

ـ التّحليل

ففي هذه الرّسالة يشير السّلطان إلى موافقته على العمل بمقترح جاقمو الثّاني المتمثّل في تمكينه من ثلث الإتاوة المستخلصة من التّجّار القطلانيّين في كلّ مراسي السّلطنة بما في ذلك سبتة. وهذا القرار يحقّق لأراغون كسبًا كبيرا لم يستطع تحقيقه في أيّ مناسبة ومع أيّ دولة مغاربيّة. فللملك الثّلث في كلّ ما يدفعه التّجّار القطلانيّون المسيحيّون والمسلمون واليهود على السّواء سواء كانوا من أراغون أو ميورقة.

فالسّلطان يحقّق لنفسه الأمن بالمال وبالتّنازل عن حقوقه والبعض من سيادته. ويبدو الأمر غريبا !! ولنا أن نتساءل عن سبب هذا التّنازل ؟

ـ التّعليق

تؤكّد هذه الرّسالة ضعف هذا السّلطان أبي عبد الله سليمان ومحاولته اشتراء تحالف ملك أراغون بالتّنازل عن

مداخيل ديوانته في مراسي بلاده. وهو ما سعى إليه دوما جاقمو الثّاني في إفريقيّة مع الحفصيّين وبتلمسان مع بني عبد الواد. وأكثر ما استطاع أن يحصل عليه نصف العشر مع بعض السّلاطين. فالسّلطان أبو بكر الحفصيّ مثلا سلطان تونس وبجاية رفض أن يكون هذا الإيتاء سنويّا بل مبلغا يدفعه مرّة واحدة من مداخيل التّجّار القطلانيّين أصيلي بلاد أراغون، ورفض التّوقيع مقابل كراء الأجفان على عقد الصّلح مع جاقمو الثّاني لهذا السّبب.

وأخيرا توضّح لنا الرّسالة الهدف الأساسيّ لخطّة أراغون وجاقمو الثّاني المتمثّل في الحصول دوما على المزيد من المال والتّغلغل في شؤون الدّولة عن طريق الدّيوانة والإيتاء القمرقيّ واعتماد التّجارة عوض الحرب لتحقيق أهدافه وأغراضه.

6°) ـ الوثيقة رقم 82 بالأرشيف

ـ التّقديم

هذا كتاب من سليمان بن أبي عامر بن أبي يعقوب بفاس إلى جاقمو الثّاني بتاريخ 24 ربيع الثّاني لسنة 709هـ الموافق لفاتح أكتوبر من سنة 1309م المتعلّق بمهمّة رسول أراغون "جُزْبَرتْ" والأجفان القادمة معه.

- نصّ الرّسالة

مِنْ عَبْدِ اللَّهِ سُلَيْمَانَ أَمِيرِ المُسْلِمِينَ ابْنِ الأَمِيرِ أَبِي عَامِرَ ابْنِ أَمِيرِ المُسْلِمِينَ أَبِي يَعْقُوبَ ابْنِ أَمِيرِ المُسْلِمِينَ أَبِي يُوسُفَ بْنِ عَبْدِ الحَقِّ أَيَّدَهُ اللَّهُ بِنَصْرِهِ وَوَالَى يُمْنَهُ وَظَفَرَهُ. إِلَى المَلِكِ الأَجَلِّ الأَعَزِّ المُكَرَّمِ الأَصْدَقِ الأَوْفَى الأَضْخَمِ الأَسْنَى الأَكْمَلِ دُونَ جَاقْمُه مَلِكِ أَرَغُونَ وَمَا إِلَيْهِ مِنَ البِلاَدِ النَّصْرَانِيَّةِ أَلْهَمَهُ اللَّهُ إِلَى الرَّشَادِ وَوَفَّقَهُ إِلَى السَّدَادِ.

وَبَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى وَالصَّلاَةِ التَّامَّةِ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلاَنَا مُحَمَّدٍ رَسُولِهِ الكَرِيمِ المُصْطَفَى وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَعْلاَمِ الإِسْلاَمِ وَأَيِمَّةِ الرُّشْدِ وَالهُدَى وَصِلَةِ الدُّعَاءِ لِهَذَا المَقَامِ الكَرِيمِ بِالنَّصْرِ الأَعَزِّ وَالفَتْحِ الأَسْنَى.

فَإِنَّا كَتَبْنَاهُ إِلَيْكُمْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِالتَّوْفِيقِ وَقَادَكُمْ إِلَى أَنْهَجِ الطَّرِيقِ مِنْ حَضْرَتِنَا بِمَدِينَةِ فَاسَ حَرَسَهَا اللَّهُ وَلاَ جَدِيدَ بِيُمْنِ اللَّهِ تَعَالَى وَبَرَكَةِ هَذِهِ الإِيَالَةِ السَّعِيدَةِ المُبَارَكَةِ خَلَّدَ اللَّهُ ذِكْرَهَا وَوَالَى يُمْنَهَا وَنَصْرَهَا إِلاَّ

الخَيْرُ الأَتَمُّ وَاليُسْرُ الأَعَمُّ. وَالحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى ذَلِكَ كَثِيرًا وَإِلَى هَذَا هَدَاكُمُ اللَّهُ لِكُلِّ عَمَلٍ مَشْكُورٍ وَيَسَّرَكُمْ لِكُلِّ فِعْلٍ مَأْثُورٍ.

فَإِنَّا نُعَرِّفُكُمْ بِمَا نُوجِبُهُ لِجَانِبِكُمْ مِنَ الإِيثَارِ وَنُكْمِلُهُ لِمَحَلِّكُمْ مِنَ الاعْتِنَاءِ الدَّائِمِ الاِسْتِمْرَارِ. وَلَكُمْ لَدَيْنَا مِنْ تَيْسِيرِ المَقَاصِدِ وَتَسْهِيلِ الأَوْطَارِ عَمَلاً بِمَا يُقَوِّمُ أَسْبَابَ الإِعْتِقَادِ وَيُؤَكِّدُ وُجُوهَ الحُبِّ وَالودَادِ.

وَبِحَسَبِ ذَالِكُمْ نُعَرِّفُكُمْ بِأَنَّهُ كَانَ وَصَلَ إِلَيْنَا رِسْلُكُمْ جُزْبَرْتُ. وَقَرَّرَ مِنْ وِدِّكُمْ وَمَرْضَى قَصْدِكُمْ مَا أَوْجَبَ لَكُمْ زِيَادَةَ الشُّكْرِ وَالثَّنَاءِ وَضَاعَفْنَا لَكُمْ بِحَسَبِهِ جَمِيلَ الإِحْتِفَاءِ. ثُمَّ ذَكَرَ مَا عِنْدَكُمْ مِنَ التَّتَمُّمِ بِأَوْطَارِنَا وَلَدَيْكُمْ مِنَ الجَرْيِ عَلَى وِفْقِ مُرَادِنَا وَاخْتِيَارِنَا. وَكُلُّ ذَلِكَ مِمَّا يَلِيقُ بِمَنْصِبِكُمْ وَلاَ يُنْكَرُ عَلَى مَشْكُورِ حُبِّكُمْ. وَقَدْ كُنَّا رَبَطْنَا مَعَ رِسْلِكُمْ المَذْكُورِ كُلَّ مَا يَجِبُ رَبْطُهُ وَيَحِقُّ الْتِزَامُهُ وَشَرْطُهُ. وَقَرَّرْنَا أَنَّ تِلْكَ الأَجْفَانَ الَّتِي وَرَدَ بِهَا مِنْ جِهَتِكُمْ لَمْ يَصِلْ بِهَا إِلاَّ بِرَسْمِ خِدْمَتِنَا وَلَمْ يَتَصَرَّفْ

إلاَّ فِيمَا يَعُودُ بوفْق غَرَضِنَا وَأُمْنِيَتِنا كَمَا ذكَرَ ذَلِكَ إلَيْنَا وَشَرَحَهُ لَدَيْنَا. فَأَسْعَفْنَا مَطْلَبَهُ بسَبَبِ ذَلِكَ فِي كُلِّ مَا أَرَادَ مِنْ تَرْكِ الثُّلُثِ لِتُجَّارِكُمْ فِي جَمِيعِ مَا لَنَا مِنَ البلاَدِ وَفِي إعْطَاء الزَّرْعِ الَّذِي طَلَبَ مِنَّا وَأَمَّلَ أَنْ يَصْدُرَ بِهِ عَنَّا عَلَى جِهَةِ الاِهْتِبَال بكُمْ وَالإكْرَامِ وَصَرْفِ اللَّحْظِ لَكُمْ وَالاهْتِمَامِ. فَإذَا هُوَ اشْتَغَلَ بمَا يَعْنِيهِ وَمَا لَهُ الفَائِدَةُ فِيهِ مِنْ حَصْرِ بلاَدِ ابْنِ الأَحْمَرِ وَشَنِّ الغَارَةِ عَلَيْهَا بكُلِّ الوِرْدِ وَالصَّدْر. وَارْتَكَبَ النَّقِيضَ فِي كُلِّ الأَحْوَال وَصَارَ يُخَالِفُ مَا كُنَّا نَأْمُرُهُ بِهِ مِنَ الأَعْمَال مِنْ كَوْنِهِ نَزَلَ عَلَى الجَزِيرَةِ وَهَلَكَ مَا لَهَا عِنْدَنَا مِنَ الحُرْمَةِ الخَطِيرَةِ. وَكُنَّا أَمَرْنَاهُ أَنْ يُقْلِعَ عَنْهَا وَلاَ يَتَعَرَّضَ لِانْتِجَاعِ شَيْءٍ مِمَّا هُوَ مِنْهَا فَلَمْ يَمْتَثِلْ لَنَا فِي ذَلِكَ أَمْرًا وَلاَ كَمُلَ لَنَا فِي احْتِرَامِهَا قَصْدًا وَلاَ وَطْرًا. وَتَعْلَمُونَ أَنَّ الجَزِيرَةَ المَذْكُورَةَ مِمَّنْ تُوُفِّيَ فِيهَا جَدُّنَا رَحِمَهُ اللَّهُ وَبِهَا إلَى الآنَ قَبْرُهُ وَلَهَا عَلَى مَنْ سِوَى ذَلِكَ شُفُوفٌ لاَ يَجْهَلُ قَدْرَهُ وَلاَ يَخْفَى عَنْكُمْ مَا فِي هَذَا مِمَّا لَمْ يَسْلُكْ فِيهِ

طَرِيقَ الْمُجَامَلَةِ وَلاَ حُسْنَ الْمُحَاوَلَةِ. وَقَدْ كَانَ تَسَوَّرَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ابْنِ الأَحْمَرِ شِنَانٌ كَمَا عَلِمْتُمْ وَكَمَا جَرَتْ العَادَةُ أَنْ يَتَسَوَّرَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أَهْلِ مِلَّتِكُمْ. وَإِذَا هُوَ قَدْ بَعَثَ الصَّالِحِينَ وَالْمُرَابِطِينَ وَأَهْلَ الدِّينِ لِطَلَبِ الْمُصَالَحَةِ وَعَقْدِ أَسْبَابِ الْمُوَاصَلَةِ وَالْمُصَافَحَةِ. فَلَمْ يُمْكِنَّا إِلاَّ أَنْ أَسْعَفْنَا فِي ذَلِكَ مَطْلَبَهُ وَكَمَّلْنَا فِيهِ قَصْدَهُ وَمَأْرَبَهُ تَوَفِّيًا لِمَا يَجِبُ مِنْ حَقِّ الإِسْلاَمِ وَيَلْزَمُ مِنْ تَتْمِيمِ وَاجِبِهِ عَلَى الدَّوَامِ. كَمَا أَنَّهُ لَوْ وَقَعَ بَيْنَكُمْ أَنْتُمْ وَبَيْنَ أَهْلِ مِلَّتِكُمْ شِنَانٌ وَدَخَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مَنْ يُزِيلُ ذَلِكَ لاَ أَزَلْتُمُوهُ فِي أَقْرَبِ أَوَانٍ وَأَجَبْتُمْ لَهُ كُلَّ الإِجَابَةِ وَأَنَبْتُمْ لَهُ أَتَمَّ إِنَابَةٍ. وَلَمْ نَصُدُّكُمْ عَنْهُ وَلَمْ نَمْنَعْكُمْ مِنْهُ.

ثُمَّ إِنَّ رَسُلَكُمْ جُزْبَرْت الْمَذْكُورَ بَعَثَ لَنَا رُسُلاً مِنْ قِبَلِهِ بِرَسْمِ طَلَبِ تَرْكِ الثُّلُثِ الْمَذْكُورِ وَالزَّرْعِ الَّذِي كُنَّا أَمَرْنَا لَهُ بِهِ. فَعَجِبْنَا مِنْ طَلَبِهِ لِهَذَا الشَّأْنِ وَهُوَ قَدْ ضَرَّرَ مِنْهُ مَا بَيَّنَّا لَكُمْ كُلَّ البَيَانِ. فَأَعْرَضْنَا فِي ذَلِكَ عَنْ مَطْلَبِهِ وَلَمْ نُسْعِفْهُ فِي مَأْرَبِهِ. فَإِنَّهُ لَوْ كَمُلَ مَا وَقَعَ عَلَيْهِ

الإِشْرَاطُ وَنَزَلَ الحَدَّ فِيمَا رَبَطْنَا مَعَهُ كُلَّ الاِرْتِبَاطِ لِمَا صَدَرَ لَهُ مِنَّا تَعَسُّفٌ وَلاَ بَدَا (Sic) لَهُ مِنْهُ فِي كُلِّ وَجْهٍ فِيهِ تَوَقُّفٌ وَإِنْ كَانَ وَهَذَا قَدْ اتَّفَقَ شَأْنُهُ وَصَحَّ دَلِيلُهُ وَبُرْهَانُهُ فَودُّنَا لَكُمْ لَمْ يَتَغَيَّرْ وَمَوْرِدُ حُبِّنَا فِيكُمْ لَمْ يَتَكَدَّرْ بَلْ الاِعْتِقَادُ بَاقِيًا عَلَى مَا تَعْهَدُونَ وَالإِعْتِنَاءُ بِكُمْ كَمَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ وَتُجَّارُكُمْ لَمْ يَزَالُوا فِي بِلاَدِنَا مُكَرَّمِينَ مَبْرُورِينَ عَلَى عَوَايِدِهِمْ مُعَامَلِينَ بِالرَّعْيِ التَّامِّ فِي جَمِيعِ مَصَادِرِهِمْ وَمَوَارِدِهِمْ لاَ تُخْرَقُ لَهُمْ عَادَةٌ وَلاَ تُزَادُ عَلَيْهِمْ زِيَادَةٌ اعْتِنَاءً بِجَانِبِكُمْ وَتَتْمِيمًا لِأَغْرَاضِكُمْ وَمَذَاهِبِكُمْ فَثِقُوا بِذَلِكُمْ وَاتَّفِقُوا عَلَى مَا عِنْدَنَا مِنْ حِفْظِ عَهْدِكُمْ هُنَالِكُمْ. وَاللَّهُ يُلْهِمُكُمْ لِمَا يُسْنِي مُرَادَكُمْ وَيُمْضِي سَدَادَكُمْ وَرَشَادَكُمْ.

وَكُتِبَ فِي الرَّابِعِ وَالعِشْرِينَ لِشَهْرِ رَبِيعٍ الآخَرِ عَامَ تِسْعَةٍ وَسَبْعِمَايَةٍ.

وَكُتِبَ فِي التَّارِيخِ.

ـ التّحليل

يَقوم السّلطان سليمان بن أبي عامر في القسم الأوّل من الرّسالة بتأكيد روابط الصّداقة والمودّة التي تربطه بملك أراغون وحرصه على إرضائه وتلبية رغباته ثمّ يخبره بوصول رسوله "جُزبرت" وبحسن استقباله له وباتّفاقه معه على ما يحقّ من الخدمة والشّروط وعلى الطّريقة التي ينبغي أن يتمّ بها استعمال الأجفان واستغلالها في البحر لصالح السّلطان المرينيّ. وبيّن له أنّه مكّنه من أجل ذلك ممّا أراد: الزّرع والحبوب لتزويد الأجفان وترك الثّلث ممّا يعود للدّولة المرينيّة من التّجّار القطلانيّين إكراما للملك أراغون واحتفاءً به.

غير أنّ هذا الرّسول لم يحترم الاتّفاق ولم يقم بواجبه وبما هو مطلوب منه بل على العكس اشتغل بما يعنيه ويعود عليه بالنّفع الشّخصيّ مخالفا أوامر السّلطان والأعمال الموكولة له. فبادر بمحاصرة بلاد ابن الأحمر وشنّ

الغارات عليها وارتكب نقيض المطلوب. فـنزل بـالجزيرة[1] وهتك ما لها من حرمة عند السّلطان. ونهـاه السّلطان عـن ذلك فلم يمتثل. ويذكّره بأهمّيّة الجزيـرة وحرمتهـا الكبيرة عنده لأنّه كان دفن بها جدّه السّلطان يعقوب وعُقدت بينـه وبـين صاحبهـا ابـن الأحمـر مصالحـة ومصافحـة بعـد الاختلاف الذي كان بينهما، وكان ذلك بتدخّل من رجـال الدّين والمرابطين والصّالحين رعايـة لحـقّ الإسلام وواجبـه على الدّوام.

ويتعـرّض السّلطان في القسم الأخـير مـن الرّسـالة إلى موقف "جزيرت" الغريب فلقدْ بعث رُسُلا للسّلطان يعلمونه بقرار "جزيرت" بترك الثّلث المطلوب من مداخيل الدّيوانـة والزّرع المقدّم للأجفان وكأنّه يبحـث عـن حجّـة يُعلّل بهـا غاراته وتبرّر سلوكه لدى ملكه جاقمو الثاني. لكنّ السّلطان بَيّـنَ أنّه تفطّن للأمر ورفض طلبه وواصـل رعايتـه للتّجّـار

(1) ـ Algeziras الجزيرة على ساحل الأندلس تابعة لغرناطة وقتئذ.

القطلانيّين وحسن معاملتهم تقديرا للملك وحفظا للعهد.

ـ التّعليق

تؤكّد هذه الرّسالة ما كنّا استنتجناه في وثائق سابقة من أنّ هذه العهــود لا تحـترم غالبـا وأنّ المعـاهدات المبرمـة لا تدوم إلى أمدها المعقود ويتـمّ تجاوزهـا إن اقتضـت مصلحـة أحد الأطراف ذلـك: السّـلطان والملـك والقراصنـة أنفسـهم. ونلاحظ أنّه كثيرا ما يقوم القُطّاع بالقرصنة بموافقة السّلطان أو الملـك إن كـان الطّـرف الآخـر خاصّـة في حالـة ضعـف. فسُلوك هذا الرّسول والقرصان في آن واحد "جزبرت" يشرح الوضع ويشير إلى حقيقـة السّياسـة الـتي ينتهجهـا جـاقمو الثّاني في علاقاته مع المرينيّين ولا سيّما السّلاطين الضّعفـاء من بينهـم.

7°) ـ الوثيقة رقم 83 بالأرشيف

ـ التّقديم

هذا كتاب من عليّ[1] بن أبـي سعيد بـن أبـي يوسـف يعقوب بن عبد الحقّ إلى جاقمو الثّاني بتاريخ 5 ربيع الأوّل من سنة 723هـ الموافق لـ 14 مارس من سنة 1323م يردّ فيـه على طلـب ملـك أراغـون مـن السّلطان بمـدّه بمائـة فـارس نصرانيّ لغزو سردانية.

---

(1) ـ كان السّلطان عليّ ثار على والده السّلطان أبي سعيد وكان أصغر من أخيه أبي الحسن وكـان أبـوه يحبّـه كثيرا وكلّفـه بمهمّـات عديـدة وعيّنه على تلمسان وقائد الجنـد بهـا فحـاول أن يسـتبدّ علـيّ بكـلّ الأمر ويعجّل بافتكاك كلّ النّفوذ بتحريـض مـن الوشـاة والمتـآمرين، حين علم بمرض والده وبإمكانيّة تعيينه لأبي الحسن وليّا لعهده وهو فعلا ما تمّ بعد المواجهة وانتصار جيوش أبي سعيد.

- نصّ الرّسالة

مِنَ الأَمِيرِ عَلِيٍّ اِبْنِ مَوْلاَنَا أَمِيرِ المُسْلِمِينَ أَبِي سَعِيدٍ ابْنِ مَوْلاَنَا أَمِيرِ المُسْلِمِينَ أَبِي يُوسُفَ يَعْقُوبَ ابْنِ عَبْدِ الحَقِّ أَيَّدَهُمْ اللَّهُ تَعَالَى بِنَصْرِهِ وَأَمَدَّهُمْ بِمَعُونَتِهِ وَعَضْدِهِ وَيُسْرِهِ إِلَى السُّلْطَانِ الأَجَلِّ الأَسْنَى الشَّهِيرِ الأَضْخَمِ الأَفْخَمِ الصَّادِقِ الوَفِيِّ دُونَ جَاقِمُه مَلِكِ أَرَغُونَ وَبَرْجَلُونَةَ وَسَرْدَانِيَةَ وَقُرْصِغَةَ وَقُمْطِ بَرْجَلُونَةَ. وَفَّقَهُ اللَّهُ وَأَرْشَدَهُ.

أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى وَالصَّلاَةِ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلاَنَا مُحَمَّدٍ رَسُولِهِ الكَرِيمِ وَنَبِيِّهِ المُصْطَفَى وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَعْلاَمِ الإِسْلاَمِ وَأَيِمَّةِ الرُّشْدِ وَالهُدَى وَصِلَةِ الدُّعَاءِ لِحَضْرَةِ مَوْلاَنَا أَيَّدَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِدَوَامِ النَّصْرِ الأَعَزِّ وَاطِّرَادِ الفَتْحِ الأَسْنَى.

فَإِنَّا كَتَبْنَاهُ إِلَيْكُمْ مِنْ حَضْرَةِ مَوْلاَنَا نَصَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِمَدِينَةِ فَاسَ حَرَسَهَا اللَّهُ وَلاَ نَاشِئَ بِفَضْلِ اللَّهِ

وَحْدَهُ وَبَرَكَةِ مَوْلاَنَا وَالَى اللَّهُ تَعَالَى نَصْرَهُ وَعَضَدَهُ إلاَّ خَيْرَاتٌ تَنْسَكِبُ كَالمَطَرِ وَتَنْسَحِبُ عَلَى البَشَرِ وَتَقْضِي بِعَادَةِ النَّصْرِ وَالظَّفَرِ وَسَعَادَةِ الوِرْدِ وَالصَّدْرِ. وَالحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ عَلَى ذَلِكَ حَمْدًا يُيَسِّرُ كُلَّ أَمَلٍ وَوَطَرٍ.

وَإِلَى هَذَا أَرْشَدَكُمْ اللَّهُ تَعَالَى فَإِنَّا نُعَرِّفُكُمْ بِوُصُولِ كِتَابِكُمْ. وَوَقَفْنَا عَلَيْهِ وَعلِمْنَا مَا ذَكَرْتُمُوهُ مِنْ طَلَبِكُمْ مِنَّا التَّوَسُّطَ عِنْدَ مَوْلاَنَا أَيَّدَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي أَنْ يُعِينَكُمْ بِمِايَةِ فَارِسٍ مِنَ النَّصَارَى بِرَسْمِ الحَرَكَةِ مَعَكُمْ إِلَى جَزِيرَةِ سَرْدَانِيَةَ.

وَنَحْنُ نُعَرِّفُكُمْ أَنَّهُ لَوْ طَلَبْتُمْ الإِعَانَةَ بِجَمِيعِ مِنْ بَنِي مَرِينَ أَعَزَّهُمْ اللَّهُ تَعَالَى وَوَفَّرَهُمْ لَأَمْدَدْنَاكُمْ بِذَلِكُمْ وَيَسَّرْنَا فِيهِ جُمْلَةَ آمَالِكُمْ كَمَا تَقَدَّمَتْ بِذَلِكَ عَوَايِدُ أَسْلاَفِنَا الكِرَامِ مَعَ المُلُوكِ أَمْثَالِكُمْ مِثْلَمَا فُعِلَ مَعَ مَلِكِ قَشْتَالَةَ دُونَ شَانْجَهْ حِينَ احْتَاجَ إِلَى إِعَانَتِنَا إِيَّاهُ. وَأَمَّا النَّصَارَى الَّذِينَ طَلَبْتُمْ فَلاَ يُمْكِنُ تَوْجِيهُهُمْ لأَنَّهُ لَمْ تَجْرِ بِهِ عَادَةٌ وَلَمْ يُمْكِنْ فِي ذَلِكَ الخُرُوجُ عَنِ المُعْتَادِ وَلاَ

العُدُولُ عَنْـــهُ لاَ فِــي الإِصْـدَارِ وَلاَ فِــي الإِيـرَادِ فَـاعْلَمُوا ذَلِكُمْ وَتَيَقَّنُوهُ هُنَالِكُمْ. وَاللَّهُ تَعَالَى يُرْشِدُكُمْ.

وَكُتِبَ فِي يَوْمِ الاِثْنَيْــنِ الخَـامِسِ مِنْ شَــهْرِ رَبِيــعٍ الأَوَّلِ المُبَارَكِ الَّذِي مِنْ عَامِ ثَلاَثَــةٍ وَعِشْـرِينَ وَسَـبْعِمَايَةٍ عَرَّفَ اللَّــهُ تَعَـالَى خَـيْرَهُ وَبَرَكَتَـهُ وَيُمْنَـهُ بِمِنِّـهِ لاَ رَبَّ سِوَاهُ وَلاَ مَعْبُودَ إِلاَّ إِيَّاهُ.

صَحَّ ذَلِكَ.

ـ التّحليل

يطلب جاقمو الثّاني من الأمير عليّ وهو بفاس أن يتوسّط لدَى السّلطان والده أبي سعيد كي يمدّه بمائة فارس من الفرسان النّصارى الذين هم عنده ليستعين بهم على غزو جزيرة سردانية. فيجيبه الأمير عليّ بأنّه يمكن مساعدته بما يريد من الفرسان المرينيّين مثلما كان فعل السّلطان مع ملك قشتالة دون شانجو حين طلب الإعانة. أمّا النّصارى فيتعذّر توجيههم لأنّه لم تجْرِ بِهِ العادة ولا يمكن الاستغناء عنهم.

ـ التّعليق

نرى من خلال هذه الرّسالة كيف كان ملوك النّصارى أنفسهم يلتجئون إلى المسلمين وخاصّة للمرينيّين لطلب مساعدتهم. ولقد شاركتْ فعلا فيالقُ مرينيّة في بعض حروب ملوك النّصارى مثلما حدث في مرّتين متتاليتين مع ملك قشتالة دون شانجه حين ثار عليه ابنه.

أمّا ملك أراغون فهو يتوخّى المخادعة ويطلب فرسانا

نصارى وخاصّة أنّ هؤلاء كانُوا أسرى واحتجزوا في مختلف عمليّات القطع والإغارة. وهي طريقة لَبقة لاسترجاع هؤلاء الأسرى، ولا سيّما أنّه كان توجّه مرّات عديدة بطلب تَحريرهم، كما فعل ذلك مع سلاطين تلمسان[1] فرفضوا الطّلب لحاجاتهم لهم لإعمار البلاد وتنميتها.

فملك أراغون حاول الحصول على مائة فارس نصرانيّ بمناسبة غزوه لجزيرة سردانية إمّا لتحريرهم ثمّ رفْض إعادتهم أو لتكوينهم حتّى يمثّلوا نواة له في الجيش المرينيّ أو الحرس السّلطانيّ. ولو كان غرضه مساعدة جيشه بسردانية لطلب فيلقا مرينيّا مثل دون شانجه الذي كان حقّا مهدّدا وساهم المرينيّون في إنقاذه وإعادته إلى عرشه.

فسياسة جاقمو الثّاني مع المرينيّين وسائر الدّول المغاربيّة وإن كانت مرنة وحذرة ومسالمة في غالب الأيان لم تكن صريحة وجليّة المرامي والأهداف بل كانت ملتوية وسمومها مدسوسة.

---

(1) ـ أُنظر علاقة إسبانيا القطلانيّة بتلمسان لعمر سعيدان ودراسة شارل إيمانويل دوفرك: انظر المراجع.

8°) ـ الوثيقة رقم 83 مكرّر بالأرشيف

ـ التّقديم

هذا كتاب من عثمان[1] بن أبي يوسف يعقوب بن عبد الحقّ بفاس إلى جاقمو الثّاني تتعلّق بنفس الموضوع الوارد في الرّسالة السّابقة رقم 83 بتاريخ 5 ربيع الأوَّل من سنة 723هـ الموافق لـ 14 مارس من سنة 1323م.

---

(1) ـ هو السّلطان أبو سعيد.

- نصّ الرّسالة

مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عُثْمَانَ أَمِيرِ المُسْلِمِنَ أَبـي يَعْقُوبَ بْـنِ عَبْـدِ الحَـقِّ أَيَّـدَهُ اللَّـهُ تَعَـالَى بِنَصْـرِهِ وَأَمَـدَّهُ بِمَعُونَتِـهِ وَعَضْدِهِ وَيُسْرِهِ إِلَـى السُّـلْطَانِ الأَجَـلِّ الأَسْنَى الشَّـهِيرِ الأَضْخَـمِ الأَفْخَـمِ الصَّـادِقِ الوَفِـيِّ دُونَ جَاقِمُـه سُـلْطَانِ أَرَغُونَ وَبَرْجَلُونَـةَ وَسَـرْدَانِيَةَ وَقُرْصِغَـةَ وَقُمْطِ بَرْجَلُونَـةَ وَفَّقَهُ اللَّهُ وَأَرْشَدَهُ.

أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ تَعَـالَى وَالصَّـلاَةِ التَّامَّـةِ المُبَارَكَـةِ عَلَـى سَيِّدِنَا وَمَوْلاَنَـا مُحَمَّـدٍ رَسُـولِهِ الكَرِيـمِ وَنَبِيِّـهِ المُصْطَفَى وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الطَّيِّبِـينَ الطَّـاهِرِينَ أَعْـلاَمِ الإِسْلاَمِ وَأَيِمَّةِ الرُّشْدِ وَالهُدَى وَصِلَةَ الدُّعَاء لِهَذِهِ الإِيَالَةِ العَلِيَّةِ العُثْمَانِيَّةِ السَّنِيَّةِ بِالنَّصْرِ الأَعَزِّ وَالفَتْحِ الأَسْنَى.

فَإِنَّا كَتَبْنَاهُ إِلَيْكُمْ مِنْ حَضْرَتِنَا بِمَدِينَةِ فَاسَ حَرَسَهَا اللَّهُ تَعَالَى وَلاَ نَاشِئَ بِفَضْلِ اللَّهِ وَحْدَهُ وَبَرَكَةِ هَذَا المَقَامِ الكَرِيمِ وَالَى اللَّهُ نَصْرَهُ وَعَضْدَهُ إِلاَّ الخَيْرُ الأَتَـمُّ وَاليُسْـرُ الأَعَمُّ وَالحَمْدُ لِلَّـهِ عَلَـى ذَلِـكَ كَثِـيرًا أَثِـيرًا وَإِلَـى هَـذَا

وَفَّقَكُمُ اللَّهُ وَأَرْشَدَكُمْ. فَإنَّا نُعَرِّفُكُمْ بأَنَّهُ وَصَلَنَا كِتَابُكُمْ وَوَقَفْنَا عَلَيْهِ وَعلِمْنَا مَا تَضَمَّنَهُ مِمَّا طَلَبْتُمُوهُ مِنْ أَنْ نُعِينكُمْ مِنْ هُنَا بمِايَةِ فَارس مِنَ النَّصَارَى بِرَسْمِ الحَرَكَةِ مَعَكُمْ إلَى جَزِيرَةِ سَرْدَانِيَةَ. وَنَحْنُ نُعَرِّفُكُمْ بأَنَّهُ لَوْ طَلَبْتُمْ الإعَانَةَ بجَمِيع مِنْ بَنِي مرينَ أَعَزَّهُمُ اللَّهُ وَوفَّرَهُمْ لأَمْدَدْنَاكُمْ بذَلِكُمْ وَيَسَّرْنَا فِيهِ جُمْلَةَ آمَالِكُمْ. كَمَا تَقَدَّمَتْ بذَلِكُمْ عَوَايِدُنَا مَعَ المُلُوكِ أَمْثَالِكُمْ وَمِثْلَمَا فَعَلْنَا مَعَ مَلِكِ قَشْتَالَةَ دُونَ شَانْجُهْ حِينَ احْتَاجَ إلَى إعَانَتِنَا إيَّاهُ. وَأَمَّا النَّصَارَى المَذْكُورُونَ الَّذِينَ طَلَبْتُمْ فَلاَ يُمْكِنُ تَوْجِيهُهُمْ لِأَنَّهُ لَمْ تَجْرِ بهِ عَادَةٌ وَلَمْ يُمْكِنْ فِي ذَلِكَ الخُرُوجُ عَنِ المُعْتَادِ وَلاَ العُدُولُ عَنْهُ فِي حَالَيْ الإصْدَارِ وَالإيرَادِ. فَاعْلَمُوا ذَلِكُمْ وَتَيَقَّنُوهُ هُنَالِكُمْ إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى وَهُوَ سُبْحَانَهُ يُوَفِّقُكُمْ وَيُرْشِدُكُمْ.

وَكُتِبَ فِي الخَامِسِ مَنْ شَهْرِ رَبيعٍ الأَوَّلِ المُبَارَكِ مِنْ عَامِ ثَلاَثَةٍ وَعِشْرِينَ وَسَبْعِمَايَةٍ. عَرَّفَ اللَّهُ خَيْرَهُ وَبَرَكَتَهُ وَيُمْنَهُ. لاَ رَبَّ غَيْرُهُ وَلاَ خَيْرَ إلاَّ خَيْرُهُ.

وَكُتِبَ فِي التَّارِيخِ المُؤَرَّخِ بِهِ.

ـ التّحليل

تحمل هذه الرّسالة نفس التّاريخ الذي تحمله الرّسالة رقم 83. وهي تتناول نفس الموضوع وتعِيدُ نفْسَ اللّفظِ تَقْرِيبا مع اختلاف بسيط في الكلمات والعبارات المؤدّيّة لنفس المعنى وهي تخصّ المائة فارس النّصرانيّ الذين طلبهم جاقمو الثّاني لإعانته في حربه بسردانية. فرفض السّلطان المرينيّ الطّلب معبّرا عن استعداده لمدّه بما يريد من الجنود المرينيّين مثلما كان فعل مع دون جانشه ملك قشتالة. أمّا في خصوص الفرسان النّصارى فقد ذكّر بأنّ هذا الأمر مرفوض وغير معمول به ولم يتعوّد أسلافه القيام به.

ـ التّعليق

يحمل هذا الكتاب التّاريخ نفسه الذي تحمله رسالة الأمير علي بن أبي سعيد 5 ربيع الأوّل سنة 723هـ الموافق لـ 14 مارس 1323م. لكنّ مرسِلها هذه المرّة السّلطان نفسه رافضا الطّلب ومعلّلا الرّفض بأنّ البادرة لم يقم بها الأسلاف ويستحيل تجاوز التّقاليد المعمول بها بدون تعرية الأسباب الحقيقيّة الخفيّة المتّصلة بأغراض جاقمو الثّاني السّرّيّة.

°9) - الوثيقة رقم 84 بالأرشيف

- التّقديم

هذا كتاب من عثمان[1] بن أبي يوسف يعقوب بن عبد الحقّ بفاس إلى جاقمو الثّاني بتاريخ 21 من جُمادى الثّانية لسنة 723هـ الموافق لـ 27 جوان لسنة 1323م يُعلم فيها ملك أراغون بوصول رسوله واستماعه إليه.

---

(1) - هو السّلطان أبو سعيد.

- نصّ الرسالة

مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عُثْمَانَ أَمِيرِ المُسْلِمِينَ ابْنِ أَمِيرِ المُسْلِمِينَ أَبِي يُوسُفَ يَعْقُوبَ بْنِ عَبْدِ الحَقِّ أَيَّدَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِنَصْرِهِ وَأَمَدَّهُ بِمَعُونَتِهِ وَعَضْدِهِ وَيُسْرِهِ إِلَى السُّلْطَانِ الأَجَلِّ الأَسْنَى الأَصْعَدِ[1] الأَرْقَى المُكَرَّمِ الأَظْهَرِ الأَشْهَرِ الأَضْخَمِ الأَحْفَلِ دُونَ جَاقِمُه مَلِكِ أَرَغُونَ وَبَرْجَلُونَةَ وَسَرْدَانِيَةَ. سَنَّى اللَّهُ إِسْعَادَهُ وَشَكَرَ خُلُوصَهُ لِهَذَا الجَانِبِ الكَرِيمِ وَوِدَادَهُ.

وَبَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى وَالصَّلاَةِ التَّامَّةِ المُبَارَكَةِ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلاَنَا مُحَمَّدٍ رَسُولِهِ الكَرِيمِ وَنَبِيِّهِ المُصْطَفَى وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ أَعْلاَمِ الإِسْلاَمِ وَأَيِمَّةِ الرُّشْدِ وَالهُدَى وَصِلَةِ الدُّعَاءِ لِهَذِهِ الإِيَالَةِ العَلِيَّةِ العُثْمَانِيَّةِ السَّنِيَّةِ بِالنَّصْرِ الأَعَزِّ وَالفَتْحِ الأَسْنَى.

فَإِنَّا كَتَبْنَاهُ إِلَيْكُمْ مِنْ حَضْرَتِنَا بِمَدِينَةِ فَاسَ حَرَسَهَا

---

(1) - الأسعد لا الأصْعد.

اللَّهُ تَعَالَى وَلاَ نَاشِئَ بفَضْلِ اللَّهِ وَحْدَهُ وَبَرَكَةِ هَذَا الأَمْرِ العَزِيزِ العَلِيِّ وَالَى اللَّهُ نَصْرَهُ وَعَضُـدَهُ إلاَّ الخَـيْرُ الأَتَـمُّ وَاليُسْرُ الأَعَمُّ. وَالحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى ذَلِكَ حَمْدًا كَثِيرًا أَثِـيرًا وَإِلَى هَـذَا سَنَى اللَّـهُ إسْعَادَكُمْ. فَإِنَّـهُ وَصَلَنَا كِتَـابُكُمْ صُحْبَةَ رَسُولِكُمْ أَرْمُونَ قَرْبيرَة فَوَقَفْنَـا عَلَيْـهِ وَعَلِمْنَـا مَـا لَدَيْهِ وَأَلْقَى إلَيْنَا الرَّسُلُ المَذْكُورُ مَا أَلْقَيْتُمْ إلَيْهِ وَأَوْدَعْتُـمْ لَدَيْهِ وَحَمَلْنَا فِي ذَلِكَ كُلِّهِ عَلَـى التَّصْدِيـق كَمَـا ذَكَرْتُـمْ عَنْهُ. وَقَدْ تَلَقَّى مِنَّا مَـا أَلْقَيْنَـاهُ إلَيْـهِ مِمَّـا يُلْقِيـهِ إلَيْكُـمْ بِالْمُشَافَهَةِ وَهُوَ الْمُصَدَّقُ لَدَيْكُمْ بِحَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى وقُوَّتِهِ.

وَكُتِبَ فِي يَوْمِ الاِثْنَيْنِ الحَادِي وَالعِشْرِينَ مِنْ شَـهْرِ جُمَـادَى الثَّانِيَـةِ الـذِي مِـنْ عَـامِ ثَلاَثَـةٍ وَعِشْـرِينَ وَسَبْعِمِايَةٍ. عَرَفَ اللَّهُ خَيْرَهُ بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ وَجُـودِهِ. لاَ رَبَّ غَيْرُهُ وَلاَ خَيْرَ إلاَّ خَيْرُهُ.

وَكُتِبَ فِي التَّارِيخِ الْمُؤَرَّخِ بِهِ.

ـ التّحليل

تتّصف هذه الرّسالة بالغموض المقصود. فلم يشأْ السّلطان أن يفصح عن مهمّة رسول جاقمو الثّاني أرمون قربيرة الذي سَلّمَهُ كتابَ جاقمو وأبْلغهُ رسالته الشّفويّة فوعاها وتفهّمها وردّ عليها مشافهة وتلقّى منه الرّسول ما يُلقيه إلى الملك شفاهيّا وهو محلّ ثقته والمصدّق لديه.

ـ التّعليق

فنتساءل عن حقيقة هذه المهمّة وخفاياها وعلاقتها بالوضع السّياسيّ بالمنطقة: مصالحة المرينيّين مع قشتالة وبني الأحمر من جهة والوضع الدّاخلي المرينيّ المتوتّر: فتن السّلاطين الأمراء المتكالبين على الحكم بفاس فظهور بني عبد الواد من جديد بتلمسان وتهديدهم للمرينيّين خاصّة السّلطان أبي تاشفين بن يغمراسن صاحب تلمسان وصديق ملك أراغون والقطلانيّين عموما لدور رئيس حرسه المسيحيّ القطلانيّ وأمّه النّصرانيّة ذات الأصل القطلانيّ. فلقد أعانه رئيس حرسه على قتل والده والتّخلّص منه[1].

[1] ـ ابن خلدون: التّاريخ. الجزء السّادس. دوفرك: دراسته. فصل تلمسان.

°10) - الوثيقة رقم 84 مكرّر بالأرشيف

- التّقديم

هذا كتاب بتاريخ 19 ذي القعدة من سنة 703هـ الموافق لـ 14 جوان سنة 1304م. لم يُذكرْ فيها اسم الباعث ولا اسم المرسل إليه الكتاب. ويبدو أنّ سُلطَانَ فاس المرينيّ أبو يوسف يعقوب وجّهه إلى ملك أراغون جاقمو الثّاني لإعلامه بجواز الجيوش المرينيّة والمساعدات المطلوبة.

- نصّ الرّسالة

وَصَلَ اللّٰهُ مُجَامَلَتَكُمْ. كُنَّا أَرَدْنَا أَنْ يَجُوزَ بَنُو مَرِينَ الَّذِينَ عِنْدَكُمْ مِنْ قَرْتَجَانَةَ إِلَى هُنَا ثُمَّ ظَهَرَ أنّ ذَلِكَ [Roto] لِأَجْلِ مَا يَلْحَقُهُمْ مِنْ مَشَقَّةِ البَحْرِ وَلِأَجْلِ الأَجْفَانِ فَإِنَّا قُلْنَا رُبَّمَا تَكُونُ غَيْرَ مُتَيَسِّرَةٍ عِنْـ[ـدَهُ] فَأَمَرْنَاهُمْ بِالجَوَازِ مِنَ الجَزِيرَةِ لِأَجْلِ عِيَالِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ، فَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِمْ. وَمَتَى كَانَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أَهْلِ قَشْتَالَةَ نِفَاقٌ فَيَجُوزُ إِلَيْكُمْ مِنْ هُنَا مِنْ جُيُوشِنَا أَلْفُ فَارِسٍ أَوْ أَلْفَانِ مَتَى احْتَجْتُمْ إِلَيْهِمْ فَذَلِكَ عِنْدَنَا مُتَيَسِّرٌ لِأَجْلِ مَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ مِنَ المُجَامَلَةِ وَالمُحَاسَنَةِ فَثِقُوا بِذَلِكُمْ وَأَبْسَطُوا بِهِ أَمَلَكُمْ فَإِنَّا نُوَفِّي بِهِ بِفَضْلِ اللّٰهِ وَاللّٰهُ يَجْعَلُ الخَيْرَ شَامِلاً بِمَنِّهِ وَإِسْعَادِهِ عَلَيْكُمْ.

كُتِبَ فِي التَّاسِعِ عَشَرَ لِشَهْرِ ذِي القَعْدَةِ مِنْ عَامِ ثَلَاثَةٍ وَسَبْعِمَائَةٍ. أَدَامَ اللّٰهُ مُوَافَقَتَكُمْ عَلَى مَا يُرْضِي. ذَكَرَ بَنُو مَرِينَ الوَاصِلِينَ إِلَى هُنَا أَنَّكُمْ أَخَذْتُمْ مِنْهُمْ

أربعَ رَهَاينَ فِي الحِصْنِ الذِي هُمْ فِيهِ وَقَدْ انْفَصَلُوا الآنَ كَمَا عَرَّفْنَاكُمْ. فَـاقْبِضُوا حِصْنَكُـمْ وَرُدُّوا لَهُـمْ الرَّهَـاينَ. وَأَنْتُمْ فِي ذَلِـكَ مَشْـكُورُونَ. وَالثَّنَـاءُ عَلَيْكُـمْ بِـهِ جَمِيـلٌ بحَوْلِ اللّهِ تبَارَك وَتَعَالَى.

ـ التّحليل

هذه الرّسالة بالوثيقة 84 مكرّر أرسلت بتاريخ 14 جوان سنة 1304م بعد 80 يوما من رسالة 24 مارس سنة 1304م بالوثيقة رقم 77 التي وجّهها السّلطان يوسف بن عبد الحقّ وهو محاصر لتلمسان، من تلمسان الجديدة، حول التّعاون بين البلدين والتّحالف المنشود الذي تحقّق، كما وضّحتْه لنا الوثيقة رقم 79 أي الرّسالة إلى جاقمو الثّاني بتاريخ 23 جوان سنة 1304م الموافق لـ 18 ذي القعدة سنة 703هـ.

فلقد وجَّهَ هذه الرّسالة السّلطان يوسف بن عبد الحقّ فعلا وهو يعلمه بعُدُوله عن جواز المرينيّين من مرسى[1] قرطاجنّة بالسّاحل الإسبانيّ إلى المغرب وقراره بالجواز من الجزيرة بالسّاحل الأندلسيّ القريبة من المغرب حتّى لا يحتاجوا إلى أجفان ويتحمّل عيالهم كبير مشقّة ويعلمه أنّه على استعداد لمساعدته بألف أو ألفيْ فارس مرينيّ في حربة

---

[1] ـ هذا المرسى أصبح تابعا لأراغون.

مع قشتالة إن كان في حاجة إلى ذلك، للتّحالف القائم بينهما ولما بينهما من صداقة ومجاملة.

وفي الآخر يطلب السّلطان من جاقمو الثّاني تسريح الرّهائن الأربعة الذين كان أخذهم من الحصن الذي هم فيه، إذا أنفصل المرينيّون عن الحصن. وعليه بردّ الرّاهائن وتسلّم حصنه.

ـ التّعليق

تشير هذه الرسالة إلى نوع من التّعاون الذي كان قائما بين أراغون والمرينيّين، فملك أراغون يعمل على مساعدتهم في جوازهم وتنقّلهم ببلاد الأندلس سواء لمحاربة القشتاليّين أو لمساعدة مُسلِمي الأندلس وبني الأحمر أو لغزو ما تبقّى من رواسب ملوك الطّوائف ومواجهة ملوك غرناطة بني الأحمر المهدّدين من حين لآخر للمرينيّين والمتعاونين أحيانا مع القشتاليّين.

وتبدو الدّولة المرينيّة مع السّلطان يوسف في أوج قوتّها

وهي في بدايتها، فهي لا تتردّد في توجيه فيالق هامّة من المرينيّين: ألفيْ فارس وأكثر للأندلس وقشتالة.

ونستنتج أخيرا أنّ الثّقة بين القوّتين: المرينيّة والأراغونيّة معدومة رغم التّحالف بين البلديْن، فنرى كيف عمد ملك أراغون إلى أخذ رهائن أربعة حين قام بتمكين الجنود المرينيّين من أحد الحصون ببلاده: فالتّحالف هشّ والتّخطيط الاستراتيجيّ للانقضاض والتّراجع قائم دومًا.

11°) ـ الوثيقة رقم 85 بالأرشيف

ـ التّقديم

هذه رسالة من السّلطان عثمان[1] ابن أمير المسلمين أبي يوسف يعقوب بن عبد الحقّ إلى دون ألفونسُ ابن جاقمو الثّاني ملك أراغون بتاريخ 21 جمادى الثّانية من سنة 723هـ الموافق لـ 27 جوان من سنة 1323م.

---

(1) ـ هو السّلطان أبو سعيد والد السّلطان أبي الحسن.

ـ نصّ الرّسالة

مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عُثْمَانَ أَمِيرِ المُسْلِمِنَ ابْنِ أَمِيرِ المُسْلِمِينَ أبي يُوسفَ يَعْقُوبَ بْـن عَبْـدِ الحَـقِّ أَيَّـدَهُ اللَّـهُ تَعَـالَى بِنَصْرِهِ وَأَمَدَّهُ بِمَعُونَتِهِ وَعَضَـدَهُ وَيَسَّـرَهُ إِلَـى الأَفَـانْتِ[1] الأَجَـلِّ الأَسْنَى المُكَـرَّمِ الأَمْجَـدِ الأَصْعَـدِ الفُونْـشَ بْـن السُّلطَانِ الأَجَلِّ الأَسْنَى الأَمْجَدِ المُكَرَّمِ الأَظْهَـرِ الأَشْهَرِ الأَفْخَـمِ الأَضْخَـمِ دُونَ جَاقمُـه مَلِـكِ أَرَغُـونَ وَبَرْجَلُونَـةَ وَسَـرْدَانِيَةَ. سَنَى اللَّـهُ إسْعَادَهُ وَشَكَرَ خُلُوصَـهُ لِهَـذَا الجَانِبِ الكَرِيمِ وَوِدَادَهُ.

وَبَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى وَالصَّلاَةِ التَّامَّةِ المُبَارَكَةِ عَلَـى سَيِّدِنَا وَمَوْلاَنَـا مُحَمَّـدٍ رَسُـولِهِ (Sic) الكَرِيـمِ وَنَبِيِّـهِ المُصْطَفَى وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الطَّيِّبِـينَ الطَّـاهِرِينَ أَعْـلاَمِ الإِسْلاَمِ وَأَيِمَّةِ الرُّشْدِ وَالهُدَى وَصِلَةِ الدُّعَاء لِهَذِهِ الإِيَالَةِ العَلِيَّةِ السَّنِيَّة السَّـعِيدَةِ العُثْمَانِيَّـةِ بِـدَوَامِ النَّصْـرِ الأَعَـزِّ وَاطِّرَادِ الفَتْحِ الأَسْنَى.

---

[1] ـ أفانت : L'Infant.

فَإنَّا كَتَبْنَاهُ إِلَيْكُمْ مِنْ حَضْرَتِنَا بِمَدِينَةِ فَاسَ حَرَسَهَا اللَّهُ تَعَالَى وَلاَ نَاشِئَ بِفَضْلِ اللّهِ وَحْدَهُ وَبَرَكَةِ هَذَا الأَمْرِ العَلِيِّ وَالَى اللَّهُ نَصْرَهُ وَعَضْدَهُ إلاَّ الخَيْرُ الهَامِي الرَّبَابَ وَاليُسْرُ المُقْتَبَلُ الشَّبَابُ وَالحَمْدُ للَّهِ عَلَى ذَلِكَ كثِيرا أَثِيرًا. وَإلَى هذا أَرْشَدَكُمْ اللَّهُ إسْعَادَكُمْ. فَإنَّا نُعَرِّفُكُمْ بِوُصُول كِتَابِكُمْ صُحْبَةَ رَسُولِكُمْ الزِّمُونَ قَرْبِيرَةَ. وَوَقَفْنَا عَلَيْهِ وَعَلِمْنَا مَا تَضَمَّنَهُ. وَأَلْقَى إلَيْنَا رَسُلُكُمْ المَذْكُورُ مَا أَلْقَيْتُمْ إليْهِ وَأَحَلْتُمْ فِي تَبْلِيغِهِ عَلَيْهِ. وَحَمَلْنَاهُ فِي ذَلِكَ عَلَى التَّصْدِيق كَمَا ذَكَرْتُمْ عَنْهُ. وَقَدْ تَلَقَّى مِنَّا مَا يُلْقِيهِ إلَيْكُمْ بِالْمُشَافَهَةِ، وَهُوَ المُصَدَّقُ فِيمَا يَنْقُلُهُ إلَيْكُمْ وَيَنُصُّهُ عَلَيْكُمْ بِحَوْلِ اللَّهِ وَقُوَّتِهِ.

وَكُتِبَ فِي الحَادِي وَالعِشْرِينَ مِنْ شَهرِ جُمَادَى الثَّانِيَةِ مِنْ عَامِ ثلاثَةٍ وَعِشْرِينَ وَسَبْعِ مِايَةٍ عَرَّفَ اللَّهُ تَعَالَى خَيْرَهُ وَبَرَكَتَهُ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ. لاَ رَبَّ غَيْرُهُ وَلاَ خَيْرَ إلاَّ خَيْرُهُ.

وَكُتِبَ فِي التَّارِيخِ المُؤَرَّخِ بِهِ.

ـ التّحليل

إنّ هذه الرّسالة تعيد الوثيقة رقم 84 الموجّهة إلى دون ألفونس ابن ملك أراغون جاقمو الثّاني. وتتناول نفس الموضوع بالألفاظ عينها مع اختلاف بسيط وتغيير لبعض الكلمات بأخرى لها نفس المدلول.

يقوم السّلطان عثمان بإعلام ألفونس بوصول كتابه صحبةَ الرّسول "اَلَرْمُون قربيرة" وتحميله الرّدّ شفاهيّا لصدقه وأمانته.

ومن التّعابير التي تمّ تغييرها قوله:

ـ "إلاَّ الخَيْرُ الهَامِي الرُبَابَ واليُسْرُ المُقْتَبَلُ الشَّبَابُ" عوض "إلاّ الخَيْرُ الأَتَمُّ واليُسْرُ الأعَمُّ".

ـ "وَعَلِمْنَا مَا لَدَيْهِ" عوض "وَعَلِمْنَا مَا تَضَمَّنَهُ".

ـ "مَا أَلْقَيْتُمْ إلَيْهِ وأَوْدَعْتُمْ لَدَيْهِ" عوّضها بقوله "مَا أَلْقَيْتُمْ إلَيْهِ وأَحَلْتُمْ فِي تَبْلِيغِهِ عَلَيْه".

ـ "وَهُوَ المُصدَّقُ لَدَيْكُمْ" عوض "وَهُوَ المُصـدَّقُ فِيمَـا يَنْقُلُـهُ إِلَيْكُمْ وَيَنُصُّهُ عَلَيْكُمْ".

ـ التّعليق

نتسـاءل هـل أنّ هـذه الرّسـالة كتبـت حقّـا بصيغتــين وبطريقتين وأرسِلتْ مرّتين فاحتفظ لنا الأرشيفُ بالرّسـالتين أم أنّ التّغيير تمّ عند التّرجمة واحتفظ لنا التّــاج بـترجمتين مختلفتين للنّصّ الأصلّي الذي كان باللّغة القطلانيّـة. ذلـك أنّ النّصّ القطلانيّ واحد.

°12) ـ الوثيقة رقم 86 بالأرشيف

ـ التّقديم

هذا كتاب من عثمان[1] بن أبي يوسف يعقوب بفاس إلى جاقمو الثّاني بتاريخ 22 رجب الأوّل من سنة 724هـ الموافق لـ 16 يونيو من سنة 1324م، يردّ فيه على رسالة ملك أراغون الخاصّة بطلب سراح الفارس دِمِنْجوال النّصرانيّ.

---

(1) ـ عثمان بن أبي يوسف يعقوب هو السّلطان الملقّب بأبي سعيد والد السّلطان أبي الحسن صهر السّلطان الحفصي أبي بكر والفاتح لتلمسان وإفريقيّة. ولقد كان ثار على أبي سعيد ابنه أبو عليّ وليّ عهده فخلعه وعيّن ابنه أبا الحسن وليّا للعهد. وتوفّي السّلطان أبو سعيد سنة 731هـ.

ـ نصّ الرّسالة

مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عُثْمَانَ أَمِيرِ المُسْلِمِنَ ابْنِ أَمِيرِ المُسْلِمِنَ أَبي يَعْقُوبَ بْن عَبْدِ الحَقِّ أَيَّدَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِنَصْرِهِ وَأَمَدَّهُ بِمَعُونَتِهِ وَيُسْرِهِ إِلَى السُّلْطَانِ الأَجَلِّ الأَسْنَى الأَحَبِّ الأَوْصَلِ الشَّهِيرِ الأَضْخَمِ الأَفْخَمِ الصَّادِقِ الوَفِيِّ دُونَ جَاقْمُه مَلِكِ أَرَغُونَ وَبَرْشَلُونَةَ وَسَرْدَانِيَةَ وَقُرْصِغَةَ وَقُمْطِ بَرْجَلُونَةَ. سَنَى اللَّهُ إِسْعَادَهُ وَأَلْهَمَهُ تَوْفِيقَهُ وَإِرْشَادَهُ.

وَبَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى وَالصَّلاَةِ التَّامَّة المُبَارَكَةِ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلاَنَا مُحَمَّدٍ رَسُولِهِ الكَرِيمِ وَنَبِيِّهِ المُصْطَفَى وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ الكِرَامِ البَرَرَةِ أَعْلاَمِ الإِسْلاَمِ وَأَيمَّةِ دِينِ الرُّشْدِ وَالهُدَى وَصِلَةِ الدُّعَاء لِهَذِهِ الإِيَالَةِ العَلِيَّةِ السَّنِيَّة العُثْمَانِيَّةِ السَّعِيدَةِ بِدَوَامِ النَّصْرِ وَالعِزِّ وَاطِّرَادِ الفَتْحِ الأَسْنَى.

فَإِنَّا كَتَبْنَاهُ إِلَيْكُمْ مِنْ حَضْرَتِنَا بِمَدِينَةِ فَاسَ حَرَسَهَا اللَّهُ تَعَالَى وَلاَ نَاشِئَ بِفَضْلِ اللَّهِ وَحْدَهُ وَبَرَكَةِ هَذَا الأَمْرِ العَلِيِّ وَالَى اللَّهُ تَأْيِيدَهُ وَعَضْدَهُ إِلاَّ الخَيْرَاتُ الهَامِيَةُ السَّحَائِبِ وَالصَّنَائِعُ المُؤْذِنَةُ بِبُلُوغِ الأَمَلِ وَتَيْسِيرِ

الرَّغَايِبِ وَالحَمْدُ للَّهِ عَلَى ذَلِكَ حَمْدًا كَثِيرًا.

وَإِلَى هَذَا أَرْشَدَكُمُ اللَّهُ وَسَنَى إِسْعَادَكُمْ فَإِنَّهُ وَصَلَنَا كِتَابُكُمْ الأَثِيرُ وَوَقَفْنَا عَلَيْهِ وَعلِمْنَا مَا لَدَيْهِ مِنْ حُبِّكُمْ فِي هَذَا الجَانِبِ الكَرِيمِ وَانْطِوَائِكُمْ لَهُ عَلَى الخُلُوص الصَّحِيحِ فِي الحَدِيثِ وَالقَدِيمِ. وَقَدْ شَكَرْنَا ذَلِكُمْ وَعَلِمْنَا أَنَّهُ المُنَاسِبُ لِأَمْثَالِكُمْ. وَتَعَرَّفْنَا مَا رَغْبَتُمْ فِيهِ مِنْ سَرَاحِ القَارِس دِمِنْجُوَالَ النَّصْرَانِي إلى بِلاَدِ النَّصَارَى. وَقَدْ أَسْعَفْنَا رَغْبَتَكُمْ فِي شَأْنِهِ. وَعَمِلْنَا عَلَى اخْتِيَارِكُمْ فِي صَرْفِهِ عِنْدَ وُرُودِ كِتَابِكُمْ عَلَيْنَا وَإِتْيَانِهِ اعْتِنَاءً بِتَيْسِير أَمَلِكُمْ وَمَطْلَبِكُمْ وَتَسْهِيل غَرَضِكُمْ وَأَرَبِكُمْ. إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى. وَهْوَ سُبْحَانَهُ يُلْهِمُكُمْ التَّوْفِيقَ وَيُرْشِدُكُمْ إِلَى أَنْهَجِ طَرِيقِهِ.

وَكُتِبَ فِي الثَّانِي وَالعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ رَجَبِ الفَرْدِ المُبَارَكِ الَّذِي مِنْ عَامِ أَرْبَعَةٍ وَعِشْرِينَ وَسَبْعِ مَايَةٍ عَرَّفَ اللَّهُ خَيْرَهُ وَبَرَكَتَهُ بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ وَكَرَمِهِ الجَمِّ وَطُولِهِ. لاَ رَبَّ غَيْرُهُ وَلاَ خَيْرَ إلاَّ خَيْرُهُ.

وَكُتِبَ فِي التَّارِيخِ المُؤَرَّخِ بِهِ.

ـ التّحليل

كان جاقمو الثّاني ملك أراغون وحليف السّلطان أبو يوسف يعقوب أرسل كتابا للسّلطان أبي سعيد يطلب فيه منه سراح الفارس دمنجوال النّصراني فبادر أبو سعيد بردّ الجواب وأعلمه في هذا الكتاب باستجابته لطلبه وتحقيقه لرغبته وتسريحه لهذا الفارس احتراما للملك وتقديرا وتأكيدا لإخلاصه للعهد وحرصه على مواصلة التّعاون والتّصافي مثلما كان الأمر في القديم ويتواصل في الحديث.

ـ التّعليق

تؤكّد هذه الرّسالة جوّ الوفاق والوئام القائم بين البلدين منذ عهد السّلطان يوسف بن عبد الحقّ والد أبي سعيد والذي كان ملك أراغون والقشتاليّون أنفسهم يسعون إلى إرضائه وبناء حلف معه.

فكانت العلاقة القطلانيّة المرينيّة ودّيّة تحالفيّة تخدم

مصالح الجهتين ضدّ بني عبد الواد بتلمسان وبني الأحمر أحيانا المتحالفين مع القشتاليّين ضدّ المرينيّين وأراغون.

ونلاحظ أنّ القطع مهدّد دوما لعقود الصّلح المبرمة وللتّحالفات القائمة ويعمد إليه القراصنة حتّى في فترات الصّلح المبرمة.

13°) ـ الوثيقة رقم 99 بالأرشيف

ـ التّقديم

هذا كتاب من علي[1] بـن سـعيد بـن أبـي يوسـف مـن المغرب الأقصى بتاريخ 29 رجب من سنة 751هـ الموافـق لِـ 14 سـبتمبر مـن سـنة 1350م إلى بـترو الرّابـع ملـك أراغـون يخصّ القرقورة التي تمّ خطفها وأُسر من بها مـن المسـلمين ونقض عهد الصّلح المبرم بين البلدين.

---

(1) ـ علي بن سعيد : هو السّلطان أبو الحسن علي بـن السّـلطان عثمـان أبي سعيد ولقد توفّي سنة 752هـ وخلفه أبو عنان فـارس وكـان ثـار عليه وهو بتونس وحاربه في مرّاكش فخرج منها أبو الحسن والتحـق بهنتاتة ومرض هنالك وعفا علـى ابنـه أبـي عنـان. وتوفّـي بهنتاتـة فحمله ابنه أبو عنان ودفنه بفاس. وكان أبو عنـان اسـتقلّ بهـا منـذ سنة 749هـ.

ـ نصّ الرّسالة

مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عَلِيٍّ[1] أَمِيرِ المُسلِمينَ اِبْنِ مَوْلانَا أَمِيرِ المُسلِمِينَ أَبِي سَعِيدٍ ابْنِ مَوْلاَنَا أَمِيرِ المُسْلِمِينَ أَبِي يُوسُفَ يَعْقُوبَ بْنِ عَبْدِ الحَقِّ سُلطَانِ فَاسَ وَمَرَّاكُشَ وَسِجلْمَاسَةَ وَذِرْعَةَ وَسَلاَ وَمِكْنَاسَةَ وَتَازِي وَطَنْجَةَ وَسَبْتَةَ وَجَبَلِ الفَتْحِ وَرَنْدَةَ وَمِرْبَالَةَ وَبِلاَدِ الرِّيفِ وَالجَزَايِرِ وَالمِدْيَةِ وَمِلْيَانَةَ وَبِرْشَكَ بِمَا قَلَّدَهُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ أَيَّدَهُ اللَّهُ وَنَصَرَهُ إِلَى السُّلْطَانِ الكَبِيرِ الشَّهِيرِ الخَطِيرِ الأَضْخَمِ الأَوْفَى بِيتْرَا سُلْطَانِ أَرَغُونَ وَبَلَنْسِيَّةَ وَمَيُورْقَةَ وَسَرْدَانِيَةَ وَقَرْشَغَةَ وَقُمْتِ بَرْشَلُونَةَ وَرُشِيُونَ وَسَرْدَانِيَةَ ابْنِ السُّلْطَانِ الكَبِيرِ الشَّهِيرِ الخَطِيرِ الأَضْخَمِ الأَوْفَى أَلْفُنْشَ[2] وَفَّقَهُ اللَّهُ وَأَرْشَدَهُ. سَلاَمٌ يُرَاجِعُ سَلاَمَكَ.

أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى وَالصَّلاَةِ التَّامَّةِ عَلَى سَيِّدِنَا

---

(1) ـ عبد الله عليّ بن أبي سعيد هو السّلطان أبو الحسن المتوفّي سنة 752هـ الموافق لسنة 1352م.

(2) ـ ألفونسو ملك أراغون الذي خلف أباه جاقمو الثّاني.

وَمَوْلاَنَا مُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ الكَرِيمِ وَرَسُولِهِ المُصْطَفَى وَالرِّضَى عَنْ آلِهِ وَصَحْبِهِ أَعْلاَمِ الإسْلاَمِ وَأَيِمَّةِ دِينِ الرُّشْدِ وَالهُدَى وَصِلَةِ الدُّعَاءِ لِهَذَا الأَمْرِ العَلِيِّ المُؤَيَّدِ المَنْصُورِ العَلَوِيِّ بِدَوَامِ النَّصْرِ الأَعَزِّ وَاتِّصَالِ الفَتْحِ الأَسْنَى.

فَإِنَّا كَتَبْنَاهُ إِلَيْكَ مِنْ مَنْزِلِنَا الأَسْعَدِ بِظَاهِرِ مِلْيَانَةَ أَمَّنَهُ اللَّهُ تَعَالَى. وَلاَ جَدِيدَ إِلاَّ الصُّنْعُ الجَمِيلُ وَالمَنُّ الجَزِيلُ وَالحَمْدُ لِلَّهِ حَقَّ حَمْدِهِ. وَوَفَاؤُكَ عِنْدَنَا مُقَابَلٌ بِمِثْلِهِ وَعَهْدُكَ فِي المُصَالَحَةِ لَدَيْنَا مُتَّصِلٌ إِلَى أَمَدِهِ وَمَحَلِّهِ.

وَإِلَى هَذَا وَصَلَ كِتَابُكَ. عَرَّفْتَ بِوُصُولِ كِتَابِنَا إِلَيْكَ فِي شَأْنِ القَرْقُورَةِ التِي أُخِذَ فِيهَا خُدَّامُنَا وَمَنْ كَانَ مَعَهُمْ مِنَ المُسْلِمِينَ. نَطْلُبُكَ فِيهِ بِمَا يَجِبُ عَلَيْكَ فِي دِينِكَ مِنَ الوَفَاءِ بِالعَهْدِ الذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ إِلَى انْقِضَاءِ أَمَدِهِ وَأَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَانِ بْنَ مَحَمَّدٍ العَدْوِي وَمَسْعُودَ التُّرْجُمَانَ أَوْصَلاَهُ إِلَيْكَ وَأَلْقَيَا لَكَ مَا أُلْقِيَ إِلَيْهِمَا مِنَ

الكَلاَمِ. وَذَكَرْتَ أَنَّكَ لَمَّا وَجَدْتَ كِتَابَنَا بِغَيْرِ طَابِعِ شَمْعٍ وَقَعَ عِنْدَكَ فِيهِ ارْتِيَابٌ فَتَوَقَّفْتَ فِي أَمْرِ القَرْقُورَةِ وَبَعَثْتَ إِلَى وَالِيكَ بِمَيُورْقَةَ بِأَنْ يُوقِفَ جَمِيعَ مَا كَانَ فِيهَا مِنَ الوَسْقِ حَتَّى تَتَحَقَّقَ أَنَّ الكِتَابَ الذِي وَصَلَكَ هُوَ كِتَابُنَا. وَاعْلَمْ أَنَّ العَلاَمَةَ الَّتِي نُوَقِّعُ فِي آخِرِ كَتْبِنَا بِخطِّ يَدِنَا هِيَ عَلاَمَةُ الصِّحَّةِ عَلَى مَا كَتَبْنَاهُ فَوْقَهَا وَأَمَّا طَابِعُ الشَّمْعِ فَلاَ عِبْرَةَ بِهِ وَإِنَّمَا عُمِلَ حِيَاطَةٌ عَلَى الكِتَابِ أَنْ لا يُفَكَّ فَيُقْرَأَ وَقَدْ ذَكَرَ لَنَا عَبْدُ الرَّحْمَانُ وَمَسْعُودُ المَذْكُورَانِ أَنَّكَ لَمَّا فَكَكْتَ الكِتَابَ وَرَأَيْتَ العَلاَمَةَ فِي آخِرِهِ عَقَلْتَهَا وَقُلْتَ هَذِهِ عَلاَمَةُ السُّلْطَانِ. وَالشَّهَادَةُ عَلَى الخُطُوطِ تُقْطَعُ بِهَا الحُقُوقُ. ثُمَّ وَقَفَ مَعَكَ الوَهْمُ بَعْدَ ذَلِكَ وَذَكَرْتَ فِي كِتَابِكَ أَنَّكَ إِذَا أَثْبتَ عِنْدَكَ أَنَّ الكِتَابَ هُوَ كِتَابُنَا تَعْمَلُ الوَاجِبَ فِي هَذَا وَفِي غَيْرِهِ لِأَجْلِ الصُّلْحِ الذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ كَمَا يَعْمَلُ السَّلاَطِينُ لِلسَّلاَطِينِ. وَهَذَا الذِي ذَكَرْتَ مِنَ الوَفَاءِ هُوَ الَّذِي يَلِيقُ بِسُلْطَانٍ كَبِيرٍ مِثْلَكَ. وَيَصِلُكَ كِتَابُنَا هَذَا إِنْ

شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى تَأْكِيدًا للأَوَّلِ، فَأَوْفِهِ بِالعَهْدِ وَمُرْ بِرَدِّ جَمِيعِ مَا أُخِذَ فِيهَا وَمَنْ أُخِذَ، كَمَا هُوَ المَعْهُودُ مِنْ وَفَائِكَ. وَقَدْ قَالَتْ الحُكَمَاءُ المُلْكُ رَحِمٌ فَيَجِبُ عَلَى المُلُوكِ المُرَاعَاةُ فِيمَا بَيْنَهُمْ. وَقَدْ كَانَ سُلْطَانُ قَشْتَالَةَ حِينَ كَايِنَةِ القَيْرَوَانِ[1] انْتَعَرَ إِلَيْنَا وَلَوْ وَجَدَ السَّبِيلَ لِمُصَارَخَتِنَا لَفَعَلَ، وَبَعَثَ أَجْفَانَهُ المَرَّةَ بَعْدَ المَرَّةِ لِتَعْرِفَ أَخْبَارَنَا. وَوَصَلَنَا مِنْهَا اِثْنَانِ إِلَى الجَزَائِرِ فِيهَا إِرْسَالُهُ بِكِتَابِهِ إِلَيْنَا يُقَرِّرُ مَا عِنْدَهُ مِنْ وَفَاءِ العَهْدِ. فَأَجَبْنَاهُ نَشْكُرُ وَفَاءَهُ. وَحِينَ وَصَلَهُ جَوَابُنَا أَرَادَ أَنْ يُقْلِعَ عَنْ جَبَلِ الفَتْحِ وَفَاءً بِالعَهْدِ فَعَاجَلَتْهُ الوَفَاةُ. وَلَمَّا وَصَلَتْهَا القَرْقُورَةُ التِي حَمَلَتْ أَثْقَالَنَا مِنْ تُونِسَ وَحَوَايِجَنَا أَمَرَ بِتَفْرِيغِ جَمِيعِ مَا فِيهَا بِالجَزِيرَةِ وَجَعَلَهُ تَحْتَ أَقْفَالٍ

---

(1) ـ كاينة القيروان: يشير إلى محنته بالقيروان حين كان بإفريقيّة وثورة العرب وأنصار السّلطان أبي الفضل بن السّلطان أبي بكر الحفصي عليه واحتمائه بسوسة ثمّ رجوعه إلى المغرب ومنع الحفصيّين ببجاية الماء عنه فغرق سفنه بالبحر ونجاته من كلّ ذلك فبعث سلطان قشتالة يواسيه ويعرب عن استعداده لنجدته.

وَأُمَنَاءَ بِالشَّهَادَةِ حَتَّى يَرُدَّهُ إِلَيْنَا. وَقَبْلَ ذَلِكَ وَجَّهَ إِلَيْنَا وَلَدَنَا وَأَخَوَاتِهِ عَلَى أَتَمِّ التَكْرِيمِ وَالحِفْظِ. وَلَمْ نَطْلُبْهُ بِذَلِكَ. بَلْ نَنْزَعُ بِهِ كَمَا يَفْعَلُهُ المُلُوكُ لِلْمُلُوكِ. وَهَكَذَا تُعْرَفُ أَحْوَالُ المُلُوكِ فِيمَا بَيْنَهُمْ.

وَاعْلَمْ أَنَّ فِي بِلاَدِنَا السَّاحِلِيَّةِ مِنْ تُجَّارِ النَّصَارَى القَطْلاَنِيِّين مَنْ يَفِي فِي المُكَافَيَةِ بِأَضْعَافِ تِلْكَ القَرْقُورَةِ وَلَكِنَّا وَقَفْنَا عَنْهُمْ هَذَا الأَمْرَ وَفَاءً بِعَهْدِ الصُّلْحِ. وَأَعَدْنَا كِتَابَنَا هَذَا إِلَيْكَ إِبْلاَغًا فِي الإِعْذَارِ حَتَّى تَرْتَفِعَ الحُجَّةُ وَلاَ يَبْقَى لَوْمٌ.

وَاعْلَمْ أَنَّ وَلَدَنَا الأَسْعَدَ النَّاصِرَ أَسْعَدَهُ اللّهُ قَدْ أَخَذَ المِدْيَةَ عُنْوَةً بِالسَّيْفِ. وَكَانَ بِهَا نَحْوَ أَلْفٍ مِنْ أَشْقِيَاء بَنِي عَبْدِ الوَادِي فَأُخِذُوا بِخَيْلِهِمْ وَتَدْرِيعِهِمْ وَمَا كَانَ عِنْدَهُمْ وَصَارُوا فِي حُكْمِ الثِّقَافِ. وَلَمَّا تَخَلَّصَ مِنْ أَمْرِ المِدْيَةَ تَوَجَّهَ بِالجَيْشِ المُبَارَكِ وَقَبَائِل العَرَبِ فَأَخَذَ مِلْيَانَةَ بَعْدَ أَنْ هَرَبَ جَمِيعُ مَنْ كَانَ بِهَا مِنْ أَشْقِيَاء

مِغْرَاوَةَ حِينَ تَحَقَّقُوا خُرُوجَنَا فِي حَرَكَتِنَا الْمُبَارَكَـةِ مِـنَ الجَزَائِرِ. وَكَانَ سَـفَرُنَا مِنْهَـا بِـالجَيْشِ الْمُبَـارَكِ وَقَبَـائِلِ سَلِيمٍ وَرِيَـاحٍ وَأَشْيَاخِ بَنِـي مُلْـكٍ يَـوْمَ السَّـبْتِ الثَّـانِي وَالعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ التَّارِيخِ بِأَتَمِّ العَزْمِ. وَلَحِقْنَـا بِوَلَدِنَـا وَجُيُوشِنَا الْمُبَارَكَةِ بِظَاهِرِ مِلْيَانَةَ بَعْدَ أَخْذِهِ لَهَا بِيَوْمَيْنِ. وَفِي غَدٍ إِنْ شَـاءَ اللَّـهُ تَعَـالَى نَرْحَـلُ وَنُوَالِـي الرَّحِيـلَ بِالعَزْمِ حَتَّى يَأْخُذَ اللَّهُ كُلَّ مُعَانِدٍ مُنَافِقٍ حَيْـثُ كَـانَ، وَنَسْتَرْجِعَ بِلاَدَنَا الشَّرْقِيَّةَ وَالغَرْبِيَّةَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى. وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ وَعَلَيْهِ التُّكْلاَنُ وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعمَ الوَكِيلُ. فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ. وَالسَّلاَمُ يُرَاجِعُ سَلاَمَكَ.

وَكُتِبَ فِي يَوْمِ السَّـبْتِ التَّاسِعِ وَالعِشْـرِينَ لِشَـهْرِ رَجَبِ الفَرْدِ الْمُبَارَكِ مِنْ عَامِ أَحَدٍ وَخَمْسِينَ وَسَبْعِ مَايَـةٍ عَـرَّفَ اللَّـهُ خَـيْرَهُ. وَاعْلَمُـوا أَنَّ الكُتُـبَ التِـي نَكْتُبُهَـا لِمَحَلِّ وَلَدِنَا السُّـلْطَانِ الأَصْـلِ أَبِـي الحَجَّـاجِ صَـاحِبِ غَرْنَاطَةَ هِي دُونَ طَابَعٍ لأَنَّ عَلاَمَتَنَا بِخَطِّنَا هِيَ الأَصْلُ.

فَاعْلَمُوا ذَلِكُمْ. وَاعْمَلْ فِي الوَفَاءِ بِرَدِّ جَمِيعِ مَا أُخِذَ فِي القَرْقُورَةِ مَا يَلِيقُ بِالوَفَاءِ وَالصِّدْقِ. وَعِنْدَ كَتْبِ هَذَا الكِتَابِ وَصَلَ الخَبَرُ بِأَخْذِ شَرْسَالَ وَثِقَافِ جَمِيعِ مَنْ كَانَ بِهَا مِنْ حِصَّةِ الشَّقِيِّ المِغْرَاوِي وَدُخُولِهَا فِي طَاعَتِنَا. وَقَدْ عَلِمْتَ أَنْتَ وَجَمِيعُ مُلُوكِ الأَرْضِ مَا فَعَلْنَا مَعَ بَنِي عَبْدِ الوَادِ حِينَ أَخْذِ تِلِمْسَانَ مِنْ حَقْنِ دِمَائِهِمْ وَالإِنْعَامِ عَلَيْهِمْ فَهُمْ عُتَقَاءُ سُيُوفِنَا وَلَمْ يُرَاعُوا ذَلِكَ وَخَانُوا وَجَحَدُوا النِّعْمَةَ فَأَخَذَهُمْ اللَّهُ بِغَدْرِهِمْ وَبِأَخْذِهِمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى وَكَذَلِكَ يَفْعَلُ اللَّهُ بِكُلِّ غَادِرٍ. وَسَيَعْلَمُ الذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ بِحَوْلِ اللَّهِ وَقُوَّتِهِ.

وَكُتِبَ فِي التَّارِيخِ المُؤَرَّخِ بِهِ.

- التّحليل

. وجّه السّلطان أبو الحسن المرينيّ هذه الرّسالة إلى الملك ألفونس الذي خلف أباه جاقمو الثّاني يعلمه فيها بوصول كتابه الذي عرّفه فيه باتّصاله برسالته الخاصّة بالقرقورة المرينيّة المختطفة بمن فيها من رعايا السّلطان وأهله من المسلمين ويطالبه فيها باحترام الصّلح المعقود والوفاء للعقود واحترام الأمد المحدود وعدم التّنكّر للعهود كما تقرّه ديانته والدّين الإسلاميّ الحنيف.

وذكر السّلطان عليّ أبو الحسن الملك ألفونس بأنّه كان أرسل الكتاب مع مبعوثيْه عبد الرّحمان بن محمّد العدوي ومسعود التّرجمان اللّذين شرحا له الأمر وألقيا عليه ما كان حمّلهما إيّاه في موضوع الكتاب الذي زعم ألفونس أنّه غير مختوم بخاتم السّلطان ولا يحمل طابعه وعلامته. فأكّد له السّلطان أنّ الكتاب كتابُه والخطّ المذيّل به خطُّه وأنّ لا قيمة لطابع الشّمع الذي يمنع الكتاب من الفكّ دون المسّ بمضمونه. وبيّن له تناقضه إذ كان ذكر أنّه عَقَلَ علامته

حين فكّ الكتاب وأدرك أنّه صادر عن السّلطان ولم يرجع حمولة القرقورة بل احتفظ بها حتّى يتحقّق من الأمر ويتيقّن من أنّ الكتاب هو كتاب السّلطان لذلك ذكر له أنّه لم يعمل الواجب وأنّه على استعداد لاحترام الصّلح والقيام بما ينبغي أن يقوم به الملوك مع الملوك وفاء بالعهد واحتراما له.

وحثّه على المبادرة بردّ جميع ما أخذ والإيفاء حقّا بالعهد والتّصرّف تصرّف ملك قشتالة معه في محنته بالقيروان حين بادر بإرسال أجفانه إلى مرسى الجزائر للتّعرّف على أخباره ومساعدته. وكان ملك قشتالة عبّر عن استعداده وفاء للعهد بإخلاء جبل الفتح الذي كان افتكّه من ابنه أبي عنان حين ثار على أبيه السّلطان أبي الحسن وأمر بإفراغ قرقورة السّلطان حين وصلت من تونس حاملة أدباشه وحوائجه بمرسى الجزيرة وحافظ عليها غير أنّ المنيّة عاجلته فلم يسلّم جبل طارق للسّلطان. وكان سلوكه سلوك ملوك بحقّ يتّصف بالنّبل والشّهامة وينمّ عن

الإخلاص للعهد والوفاء للصّلح.

وبعد هذا العتاب بيّن أبو الحسن أنّه أعاد الكرّة إبلاغا في الإعذار وحتّى ترتفع الحجّة ولا يبقى لوم.

وفي الآخر قام بإعلامه باستيلاء ابنه النّاصر على المدية ومليانة حربا من بني عبد الواد بمساعدة قبائل سليم ورياح وأشياخ بني ملك يوم الثّاني والعشرين من شهر رجب سنة 751هـ الموافق لسنة 1350م.

وأنهى السّلطان علي أبو الحسن بلهجة فيها توعّد ووعيد غير مباشر مع إعلامه بوصول خبر افتكاك شرسال والقضاء على من بها من بني عبد الواد وتأكيد عزمه على تأديب كلّ جاحد وغادر واسترجاع كلّ ما اغتصب "وفي غد إن شاء اللّه تعالى نرحل ونوالي الرّحيل بالعزم حتّى يأخذ اللّه كلّ معاند منافق حيث كان إن شاء اللّه تعالى".

وختم الرّسالة بعد التّذكير بأنّ السّلطان أبا الحجّاج محلّ ابنه وفي مقام له اتّصل بكتاب له غير مختوم ومطبوع

بالشّمع علامته خطّ السّلطان فتعرّف عليه وتحقّق من مصدره طالبا من الملك أن يكون وفيا ويردّ ما في القرقورة. فللغادر يومه ومآله ما فعله تعالى ببني عبد الواد الجاحدين الغادرين فكذلك يفعل اللّه بكلّ غادر و"سيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون بحول اللّه وقوّته".

ـ التّعليق

الرّسالة هامّة تنمّ عن شخصيّة السّلطان عليّ أبي الحسن وسطوته وعظمته وبالتّالي مكانته ودروه. لذلك كان في موقف قوّة حادّ اللّهجة قويّ العبارة متوخّيا التّأنيب والتّعنيف والتّهديد، وإن كان بأسلوب صريح غير مباشر.

والرّسالة تشير إلى حقيقة العلاقة القطلانيّة المرينيّة وإن ميّز التّحالف غالبا علاقات البلدين فأبعاد السّياستين مختلفة الأهداف متباينة فملك أراغون متربّص ومنتظر دوما الفرصة السّانحة للانقضاض والارتداد فنراه اغتنم فرصة الحروب الأهليّة الدّاخليّة التي قامت بين السّلطان وابنه

الملك أبي عنان وأذن بالقطع واحتجــاز الجفـن المريـنيّ ولم يعمد إلى التّعبير عن تعاطفه مع السّلطان في محنتـه ويبـادر بنجدته مثلما فعــل عـدوّه ومنافسـه ملـك قشـتالة ألفونـس. فكان الإسبانيّون والقطلانيّون خصوصا يخطبون ودّ المرينيّين ويحـاولون التّعـاطف والتّحـالف معهـم في فــترات قوّتهــم وسطوتهم.

فالرّسـالة صـورة لحقيقـة العلاقــة الإســبانيّة المرينيّــة بتموّجاتها وتقلّباتها.

14°) - الوثيقة رقم 100 بالأرشيف

- التّقديم

هذه رسالة من عبد الرّحمان بن أبي الحسن [أبي عنان][1] (729هـ - 759هـ) سلطان المغرب إلى بترو الرّابع ملك أراغون تتعلّق بالأسرى المسيحيّين والتّجّار الرّاغبين في العمل بالمغرب وذلك بتاريخ 21 من شهر ذي الحجّة سنة 755هـ الموافق لـ 18 ديسمبر من سنة 1354م.

---

(1) - ولي أبو عنان عبد الرّحمان فارس رسميّا الأمر بعد أبيه سنة 752هـ الموافق لسنة 1352م وتوفّي شابّا يوم 28 من ذي الحجّة سنة 759هـ وسنّه ثلاثون سنة. وكان عيّنه أبوه على تلمسان وسجلماسة فعمد إلى الثّورة واغتصاب الملك حين كان أبوه بتونس ومرض في طريقه إلى المغرب. ودارت بينه وبين أبي الحسن أبيه حروب قرب مرّاكش وسجلماسة. ثمّ عفا عنه والده وعيّنه وليّا للعهد. ولمّا توفّي أبو الحسن بهنتاتة خارج مرّاكش دفنه بفاس حاضرة ملكه سنة 752هـ. وبايعه بنو مرين رسميّا سلطانا بعد أبيه فسلك سياسة حازمة. وكان شجاعا مقداما وأديبا عالما وشاعرا رقيقا.

ـ نصّ الرّسالة

مِنْ عَبْدِ اللّهِ المُتَوَكِّل عَبْدِ الرَّحْمَان أمير المُسلِمينَ المُجَاهِدِ فِي سَبيل رَبِّ العَالَمِينَ اِبْن مَوْلاَنَا الأَمِيرِ أَبي الحَسَن ابْنِ مَوْلاَنَا أَمِيرِ المُسْلِمِينَ المُجَاهِدِ فِي سَبيل رَبِّ العَالَمِينَ أَبي عَلِيٍّ ابْن مَوْلاَنَا أَمِيرِ المُسلِمينَ المُجَاهِدِ فِي سَبيل رَبِّ العَالَمِين أَبي سَعِيدٍ ابن مَوْلاَنَا أَمِير المُسلِمينَ وَنَاصِرِ الدِّين المُجَاهِدِ فِي سَبيل رَبِّ العَالَمِينَ أَبي يُوسُفَ بْن عَبْدِ الحَقِّ أَعْلَى اللَّهُ أَمْرَهُ وَأَعَزَّ نَصْرَهُ وَيُسْنِي إِلَيْهِ الفَتْحَ المُبينَ وَيَسَّرَهُ إِلَى مَرِّ دَلاَيل ودِّهِ مَنْطُوقِهِ وَمَفْهُومِهِ. وَمَكَارِمُ الأَخْلاَق لَدَيْهِ مَوْجُودَةٌ وَأَضْدَادُهَا فِيهِ مَعْدُومَةٌ. السُّلْطَانُ الحَافِلُ الأَظْهَرُ البَاسِلُ الهُمَامُ الأَمْضَى الكَبيرُ الأَسْمَى الأَصِيلُ الأَوْفَى المَثِيلُ الأَرْقَى صَاحِبُ أَرغُونَ وَبَرْشَلُونَةَ وَبَلَنْسِيَةَ وَسَرَقُسَا وَشَاطِبَا وَمَيُورَقَا وَمِنُورْقَا وَبَرْبَرْيَانَ وَرُشَلَ وَبيرلاَنِ وَطَرْغُونَةَ وَطَرْطُوشَةَ وَمَرِيلَةَ وشَحْيُتَوَا وَفَيْرِبيررَا

وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنَ الحُصُونِ وَالمَعَاقِلِ، السُّلْطَانُ الجَلِيلُ بدْرُوا أَبْقَاهُ اللَّهُ تعَالى يُجْرِي فِي الفَضَايلِ عَلَى مِنْهَاجِهِ وَيَهْتَدِي فِي الوَفَاءِ بِسِرَاجِهِ سَلاَمٌ كَرِيمٌ طَيِّبٌ بِرٌّ عَمِيمٌ يَسْتَمِدُّ نُورَ الصَّبَاحِ، تَأَلَّقَ بِشْرُهُ وَتَتَهَادَى نَسِيمَاتُ الرِّيَاحِ طِيبَ نَشْرِهِ. وَرَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى وَبَرَكَاتُهُ.

أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ عَلَى الآيَةِ الّتِي تَوَالَتْ دِرَاكًا وَنُعَمَايِهِ الّتِي انْتَظَمَتْ لَدَيْنَا أَسْلاَكًا جَاعِلَ اتّفَاقَ الأَهْوَاءِ وَإِمْحَاظَ الودَادِ لِأُمُورِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا مَلاَكًا. وَالصّلاَةُ وَالسّلاَمُ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلاَنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى سَايِرِ الأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ المَاحِينَ بِصُبْحِ هِدَايَتِهِمْ دَيَاجِيًا لِلشَّكِّ وَأَحْلاَكًا وَالرِّضَاءِ عَنْ آلِهِمْ وَأَصْحَابِهِمْ الَّذِينَ كَانُوا لِأُمّتِهِمْ نُجُومًا حَلُّوا مِنَ الحَقِّ أَفْلاَكًا فَأَصْبَحُوا غُيُوثًا إِنْ أَبَدَهُ السَّمَاءُ إِمْسَاكًا وَلُيُوثًا إِنْ أَثَرَهُ الحَرْبُ عِرَاكًا. وَسَلَّمَ كَثِيرًا.

فَإِنَّا كَتَبْنَا لَكُمْ كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ مِنَ الصُّنْعِ الجَمِيلِ مَا يَحْسِبُ الآمَالَ القَاصِيَةَ وَيسْتَنْزِلُ المَآرِبَ المُتَعَاصِيَةَ مِنْ مَنْزِلِنَا الأَسْعَدِ يَمَنَّهُ اللَّهُ بظَاهِرِ المَدِينَةِ البَيْضَاء فَتَحَهَا اللَّهُ تَعَالَى وَالنَصْرُ خَافِقَةٌ أَعْلاَمُهُ وَالتَّأْيِيدُ يُؤَكِّدُ عَقْدَهُ وَإِبْرَامَهُ. وَقَدْ انْتَظَمَتْ وَالحَمْدُ للَّهِ فِي سِلْكِ طَاعَتِنَا جَمِيعُ البِلاَدِ الغَرْبِيَّةِ وَصِرْنَا وَابْنُ عَمِّنَا السُّلْطَانُ المُعَظَّمُ الأَمْجَدُ أَبو العَبَّاس أَحْمَدُ[1] يَدًا وَاحِدَةً وَآرَاؤُنَا وَالحَمْدُ لِلَّهِ شَامِلَةٌ وَعَزَايِمُنَا عَلَى العَدُوِّ[2] مُتَوَالِيَةٌ. وَقَدْ اضْطَرَرْنَاهُ إِلَى الإنْجِحَارِ وَأَذَقْنَاهُ أَلِيمَ النَّكَال وَالحِصَارِ. وَعَنْ قَرِيبٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ يَصِلُكُمْ أَخْذُهُ وَالاسْتِيلاَءُ عَلَيْهِ بِفَضْلِ اللَّهِ وَحَوْلِهِ.

وَعِنْدَنَا مِنْ وِدِّكُمْ وَحُسْنِ الظَّنِّ بِجَمَالِكُمْ عُقُودًا لاَ

---

(1) ـ أبو العبّاس أحمد: يبدو أنّ الأمير بن السّلطان الحفصي أبي بكر، سلطان بلاد الجريد وجنوب إفريقيّة الذي تصالح مع أبي عنان بعد ثورته إثر مغادرة أبي الحسن إفريقيّة وتونس.

(2) ـ العدوّ : بنو عبد الواد.

يَعْـرِفُ الإنْفِصَـامُ عُرَاهَـا وَقَضَايَـا يُؤَكِّـدُ أَوَّلُهَـا أُخْرَاهَـا وَسَرَايَا ودَادٍ يُحْمَدُ عِنْدَ صُبْـحِ الاخْتِبَـارِ سَـرَاهَا. وَإِلَـى هَذَا أَكَّدَ اللَّهُ مَحبَّتَكُمْ وَأَثْبَتَ مَدَى الأَيَّامِ مَبَرَّتَكُمْ.

فَإِنَّنَا وَرَدَ عَلَيْنَـا كِتَـابُكُمْ المَـبْرُورُ وَخِطَـابُكُمْ المَـأْثُورُ صُحْبَةَ رَسُولِكُمْ جلْيَامَ مَرِينَرَ أَرْشَدَهُ اللَّـهُ فَتَعَرَّفْنَـا مِنْـهُ وِدَّكُـمْ وَحُسْـنَ عَـهْدِكُـمْ. وَحَضَـرَ لَدَيْنَـا (Sic) رَسُـولُكُمْ مَحْضَرَ البِرِّ الوَاجِبِ لِمَنْ يَصِلُ مِنْ ذَلِكَ الجَانِبِ وَقَـرَّرَ مَا لِمُقَامِكُمْ مِنْ جَمِيلِ المَذَاهِبِ وَغَرَضَ مَـا يَلْتَمِـسُ مِـنَ المَآرِبِ وَأَلْقَى مَا أَشَرْتُمْ مِنْ حَسْمِ مَوَادِ الإِعْرَاضِ وَيُسْـرِ مَسَالِكِ الاِعْتِرَاضِ لِتُجَّارِ النَّصَارَى. وَقَدْ تَقَدَّمَ كَتْبُنَا لَكُمْ وَأَوْفَيْنَا الآنَ بالإِحَالَةِ. وَمَا ذَكَرْتُمْ عَـنْ المَـأْخُوذِينَ فَقَـدْ حَضَرَ لَدَيْنَا مِنْهُمْ عِشْرُونَ رَجُلاً وَهَا هُمْ يَصِلُـوا لِبَـابِكُمْ وَمَنْ يَحْضُرُ مِنْ أَ[مـْ]ـثَالِهِمْ[1] نُلْحِقُوهُ إِلَـى حَضْرَتِكُـمْ وَلَوْ دَعَتْنَا إِلَيْهِمْ حَاجَةُ اسْـتِكْثَارٍ وَطَلَـبُ اعْتِـدَادٍ عَلَـى

---

[1] ـ زيادة ما بين معقّفين لاستقامة المعنى.

العَدُوِّ وَاسْتِظْهَارُ لَمْ نُؤْثِرْ القَلِيلَ عَلَى الكَثِيرِ وَلاَ أَرْجَحْنَا التَّافِهَ عَنِ الخَطِيرِ، إذْ مَقَامُكُمْ عِنْدَنَا مَقَامُ تَعْظِيمٍ وَتَوْقِيرٍ مَا نَعْتَدِمُ مِنْ صِدْقِكُمْ وَوَفَايكُمْ. وَقَدْ حَقَّقَ عِنْدَنَا رَسُولُكُمْ مِنْ ذَلِكَ مَا يُقَرِّبُ لَكُمْ أَنْبَاءَهُ وَيُمَهِّدُ بِسَاحَتِكُمْ بِنَاءَهُ. فَقَدْ آلَتْ هَذِهِ القَضِيَّةُ إلى مَا يُرْضِيكُمْ مِنْ جَمِيلِ الغَرَضِ وَمُشَاكَلَةِ القَصْدِ المُفْتَرَضِ فَلْتَأْمُرُوا مَنْ بِبِلاَدِكُمْ وَنَوَاحِيكُمْ مِنْ تُجَّارِ النَّصَارَى أَنْ يَصِلُوا إِلَى بِلاَدِنَا لِتِجَارَتِهِمْ وَعَلَى عَوَايِدِهِمْ مِنَ البِرِّ وَالإِكْرَامِ وَالرَّعْيِ وَالاحْتِرَامِ.

وَقَدْ أَلْقَيْنَا إِلَى رَسُولِكُمْ مِنْ ذَلِكَ مَا وَسَعَتْهُ مِنْهُ الثِّبَانُ وَبَيَانُ الإِنْسَانِ وَهُوَ بَعْضُ مَا فِي الجِنَانِ. وَمِثْلُكُمْ مَنْ يَتَلَقَّى ذَلِكَ بِمُقْتَضَى الخِلاَلِ الحِسَانِ وَالمَكَارِمِ الوَاشِحَةِ البَيَانِ. وَغَرَضُنَا مِنْكُمْ أَنْ تُجْلُوا لَنَا وَجْهَ كُلِّ مُشْكِلٍ مَهْمَا عَرَضَ وَتَعْرِضُوا عَلَيْنَا كُلَّ شَكٍّ مَهْمَا عَرَضَ لِنَبْسُطَ لَكُمْ فِي كُلِّ ذَلِكَ مَا يُوَافِقُ مِنْكُمْ الغَرَضَ

بحَوْل اللَّهِ تَعَالَى. وَهُوَ سُبْحَانَهُ يَصِلُ سَعْدَكُمْ وَيَحْـرِسُ مَجْدَكُمْ. وَالسَّلاَمُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ تعَالى وَبرَكَاتُهُ.

كُتِبَ فِي الحَـادِي وَالعِشْرِينَ لِشَـهْرِ ذِي الحَجَّـةِ عَـامَ خَمْـس وَخَمْسِـينَ وَسَـبْعِمَايةٍ. عَـرَّفَ اللَّـهُ خَـيْرَهُ وَبَرَكَتَهُ بَمَنِّهِ.

وَكُتِبَ فِي التَّارِيخِ الْمُؤَرَّخِ بِهِ.

ـ التّحليل

كـان السّلطـان أبـو عنان بـن أبـي الحسـن (729هـ ـ 759هـ) السّلطان الفعليّ بعد موت أبيه أبي الحسن والحاكم الكامل للْمغربين الأقصى والأوسط. فلقـد استطاع أن يبسُط نفوذه على البلاد الشّرقيّة والاستيلاء علـى تلمسـان الّـتي استرجعها بنو عبد الواد عند محنة أبيه أبي الحسـن أثنـاء عودته من تونس، بل توجّه كذلك إلى إفريقيّـة لاحتلالهـا، وفتح تونس من جديد مثلما كان الأمـر مـع أبيـه، فاستولى علـى بجايـة وطـرد صهـر أبيـه أبـا الفضـل بـن أبـي بكـر الحفصي. وتقدّم إلى تونس ففتح معظـم المنـاطق. ولم يدخـل تونـس. وقفـل راجعـا إلى المغـرب للفـتن الدّاخليّـة الـتي ظهرت.

فكان طموحه كبيرا واندفاعـه قويّا وتحرّكـه متواصلا فـنراه في هـذه الرّسـالة يبلّـغ جـاقمو الثّـاني ملك أراغـون بدخـول كـامل البـلاد في طاعتـه وباستيلائه علـى تلمسـان واتّفاقه مع ابن عمّه أبي العبّاس واستتباب الأمر نِهائيّا له.

وبعد إبلاغه ملك أراغون انتصاراته وعزمه على مواصلة التّقدّم ودحر الأعداء، أعلم أبو عنان بترو الرّابع بوصول كتابه إليه صحبة رسوله "جلْيَام مرينر" الّذي أبلغه ما يكنّه من ودٍ له وما يرغب فيه من تصفية الأجواء وتيسير الأحوال للتّجّار والمسافرين لتعاطي تجارتهم. وكان بترو الرّابع طلب من أبي عنان تسريح التّجّار النّصارى المحجوزين فأعلمه السّلطان في هذا الكتاب بسراح عشرين منهم وتوجيههم إلى أراغون وأنَّهُ حريص على إرسال أثاثهم حال وصوله. وعلى كلّ فهو قد عمل على إرضائه تقديرا واحتراما لكانته. وحمّل رسوله رسالة تُحقّق للملك كلّ أغراضه ورغباته في هذه القضيّة.

ورجاه في الآخر إرسال تجّاره النّصارى لبلاد المغرب للقيام بتجارتهم على عوائدهم في أمن واطمئنان وإعلامه بأيّ مشكل يحدث أو معضلة تعرض حتّى يقوم بنفسه بحلّها بما يدخل على الملك الغبطة والرّضا.

- التّعليق

نستنتج من هذه الرّسالة أمرين هامّين:

1 ـ المناخ السّياسيّ القائم بين المرينيّين والقطلانيّين: يعتمد التّفاهم والتّوافق والاسترضاء المتبادل. فلقد حرص على تحقيق هذا التّحالف مع المرينيّين جاقمو الثّاني مع السّلطان القويّ والباني للدّولة المرينيّة الممتدّة الأطراف السّلطان يوسف يعقوب. وواصل سياسته كلّ من أبي سعيد وابنه أبي الحسن وحفيده أبي عنان. فالدّولة المرينيّة كانت آنذاك في عنفوان شبابها وشوكتها قويّة مهابة.

2 ـ أهَمِّية التّجارة في سياسة بترو الرّابع مثلما كانت عليه مع جدّه جاقمو الثّاني ملك أراغون وحرصه على تواصلها في كنف السّلم والأمن. فعن طريقها كان يبني قوّته وسطوته ويخطّط سياسته.

وأخيرا نقف من خلال هذه الرّسالة على طموح المرينيّين وسلاطينهم العظماء. فكانوا دوما متوجّهين نحو المغرب الأوسط وإفريقيّة، وشمالا نحو السّواحل الأندلسيّة والأندلس عموما. وكانوا عمليّا الحامين للإسلام والمسلمين بهذه الرّبوع.

°15) - الوثيقة رقم 101 بالأرشيف

- التّقديم

هذا كتابٌ من فارس[1] بن أبي الحسن بفـاس إلى بِـتْرُو الرّابع ملك أراغون يعلـن فيـه عـن إرسـاله سـفيرا لمناقشـة الصّلح ويؤكّد له مساندته له فيما يخصّ علاقاتـه مـع ملـك قشتالة وذلك بتاريخ 28 ذي القعدة لسنة 750هـ الموافـق لـ 27 من ديسمبر سنة 1349م.

---

[1] - هو أبو عنان فارس تولّى الأمر بعد وفاة أبيه أبي الحسن أواخر سنة 1352م.

- نصّ الرّسالة

مِنْ عَبْدِ اللّهِ فَارِسَ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ المُتَوَكِّلِ عَلَـى رَبِّ العَـالَمِينَ ابْـنِ أَمِـيرِ المُسْلِمِينَ أَبِـي الحَسَـنِ ابْـنِ أَمِـيرِ المُسْلِمِينَ أَبِي سَـعِيدٍ ابْـنِ أَمِـيرِ المُسْـلِمِينَ المُجَـاهِدِ فِـي سَبِيلِ رَبِّ العَالَمِينَ أَبِي يُوسُفَ يَعْقُوبَ بْنِ عَبْدِ الحَـقِّ أَيَّدَ اللَّهُ تَعَالَى سُلْطَانَهُمْ وَأَسْعَدَ عَصْرَهُمْ وَأَزْمَانَهُمْ وَعَمَّرَ بِالبَشَايِرِ وَالخَيْرِ الهَابِرِ أَوْطَـانَهُمْ بِمَنِّـهِ. إِلَـى السُّـلْطَانِ الكَبِيرِ فِي مِلَّتِهِ المُعَظَّمِ فِي أَتْبَاعِهِ وَحِلَّتِهِ بِطْرُو صَاحِبِ أَرَغُونَ وَبَلَنْسِيَّةَ وَمَيُورَقَةَ وَسَرْدَانِية وَبَرْجَلُونَة[1] وَصِقِلِّيَةَ وَصَلَ اللَّهُ تَعَالَى إِرْشَادَهُ وَيَسَّرَ لَهُ مِـنْ أَسْبَابِ الهُدْنَـةِ مُرَادَهُ بِمَنِّهِ.

أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى وَلِيِّ الحَمْدِ وَأَهْلِـهِ وَكَـافِي مَـنْ تَوَكَّـلَ عَلَـى فَضْلِـهِ وَطُولِـهِ وَالصَّـلاَةِ عَلَـى سَـيِّدِنَا وَمَوْلاَنَـا مُحَمَّـدٍ سَيِّدِ أَنْبِيَائِـهِ الكِرَامِ وَرُسُلِهِ المَبْعُـوثِ

(1) - برجلونة: هي برشلونة.

بالهُدَى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَالرِّضَى عَنْ آلِهِ وَصَحْبِهِ المُرْشِدِينَ بِهِ فِي فِعْلِهِ وَقَوْلِهِ الفَائِزِينَ... التَّقْدِيمِ وَفَضْلِهِ، وَالدُّعَاء لِهَذَا المَقَامِ العَلِيِّ الفَارِسِيِّ المُتَوَكِّلِي بِنَصْرٍ يُرْهِبُ الزَّمَانَ حَدُّ نَصْلِهِ وَعِزٍّ يَرْتَعُ الإِسْلَامُ وَأَهْلُهُ فِي كَنَفِ ظِلِّهِ.

فَإِنَّا كَتَبْنَاهُ إِلَيْكُمْ كَتَبَ اللَّهُ تَعَالَى لَكُمْ رَأْيًا فِي صَلَاحِ ذَاتِ البَيْنِ سَدِيدًا وَفِعْلاً فِي تَهْدِينِ المِلَّتَيْنِ حَمِيدًا مِنْ حَضْرَتِنَا العَلِيَّةِ فَاسَ البَيْضَاء حَرَسَهَا اللَّهُ تَعَالَى وَعِنَايَاتُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ بِهَذَا المَقَامِ العَلِيِّ تُبْدِي أَوْجُهَ العَجَايِبِ وَبَرَكَاتُ التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ تَهْدِي ضُرُوبَ الرَّغَائِبِ وَالحَمْدُ لِلَّهِ تَعَالَى كَثِيرًا.

وَإِلَى هَذَا فَإِنَّهُ وَصَلَ إِلَى بَابِنَا العَلِيِّ أَسْمَاهُ اللَّهُ تَعَالَى التَّاجِرُ المَرْعِيُّ مُجِيلُ القَطْلَانِيُّ مِنْ جِهَةِ ثِقَتِكُمْ

الأَنْجَدِ جيلَ اَلْبيرْطَ[1] مِـنْ مَيُورَقَـةَ بكِتَـابٍ مِـنْ جيـلَ المَذْكُورِ يَذْكُرُ أَنَّ مُجيلاً تَحَدَّثَ مَعَهُ فِي أَمْرِ الصُّلْحِ بَيْنَ النَّصَارى وَالمُسْلِمِينَ وَيُقَرِّرُ مَا عِنْدَهُ مِنَ الرَّغْبَـةِ فِي ذَلِـكَ لِمَا فِيهِ مِنَ العِمَارَةِ وَالتَّهْدِينِ. وَأَنَّهُ لاَ يُمكِنُهُ الأَخْذُ فِي ذَلِكَ مَعَكُمْ إلاَّ بكِتَابٍ مِنَّا إلَيْهِ وَإشَارَةٍ مِنْ جَنَابنَا العَلِيِّ دَالَّةٍ عَلَيْهِ لِيَتَّخِذَ بذَلِكَ عِنْدَكُمْ سَبيلاً وَيُقِيـمَ مِنْـهُ عَلَـى هَذَا المَقْصَدِ دَلِيلاً. فَأَسْعَفْنَا مَطْلَبَهُ فِي الكَتْبِ بمَـا ذَكَـرَ وَسَارَعْنَا إلَى ذَلِكَ لِمَا فِيـهِ مِـنَ الخَـيْرِ العَمِيـمِ وَاليُسْـرِ المُنْتَشِرِ. وَكَتَبْنَا إلَيْهِ لِيَأْخُذَ فِي ذَلِكَ مَعَكُمْ وَيُطَالِعَ بمَـا عِنْدَهُ فِيهِ حَضْرَتَكُمْ. وَخَاطَبْنَاكُمْ بهَـذَا الكِتَـابِ الكَرِيـمِ إعْلاَمًا بذَلِكَ وَتَعْرِيفًـا بمَـا فِـي هَـذَا المَسْـلَكِ مِـنْ بَسْـطِ الأَمَانِ وَتَيْسِيرِ المَرَافِقِ هُنَا وَهُنَالِكَ. وَقَدْ تَعَرَّفْنَا مَا كَـانَ مِنْ أَمْرِكُمْ مَعَ صَاحِبِ قَشْتَالَةَ وَتَحَقَّقْنَا أَقْوَالَـهُ فِـي مَـا

---

(1) ـ جيل برنـات: السّفير الـذي أرسـله بـترو لمناقشـة موضـوع الصّلـح وشروطه مع السّلطان فارس ويتّضح ذلك في الوثيقة الموالية رقـم 102 .Giles Albert

بَيْنَكُمْ وَأَعْمَالَهُ. وَلَكُمْ عِنْدَنَا مِنَ النَّظَرِ الجَمِيلِ وَالاعْتِنَاء الجَزِيلِ وَالتَيْسِيرِ لِمُرَامِكُمْ لَدَيْنَا وَالتَّسْهِيلِ مَا يُقَرِّبُ لَكُمْ كُلَّ التَّأْمِيلِ وَيُعِينُكُمْ عَلَى جَمِيعِ مَنْ عَادَاكُمْ وَيُرِيكُمْ أَغْرَاضَكُمْ فِي مَنْ بَعُدَ عَنْكُمْ وَدَانَاكُمْ. فَكُونُوا بِذَلِكُمْ وَاثِقِينَ وَإِلَيْهِ رَاكِنِينَ وَعَلَيْهِ عَامِلِينَ.

وَقَدْ وَجَّهْنَا كِتَابَنَا هَذَا صُحْبَةَ الخَدِيمِ الأَجَدِّ الأَنْجَدِ الأَنْهَضِ مَنْصُورِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ سُلَيْمَانَ الـ...اباني وَالخَدِيمِ الأَجَدِّ الأَنْهَض إبْرَاهِمَ بْنِ مَحْفُوظٍ. وَأَمَرْنَاهُمَا أَنْ يُلْقِيَا[1] إِلَيْكُمْ مَا أَلْقَيْنَاهُ إِلَيْهِمَا فَلْتَصَدِّقُوهُمَا[2] (Sic) فِي جَمِيعِ مَا يُلْقِيَانِهِ إِلَيْكُمْ وَيَعُودَان سَرِيعًا بِمَا تُودِعُو[نَـ]ـهُ[3] إِيَّاهُمَا. وَاللَّهُ تَعَالَى يُيَسِّرُ رُشْدَكُمْ وَيُسْنِي قَصْدَكُمْ. وَإِذَا وَصَلاَ مِنْ عِنْدَكُمْ بِحَدِيثِ الصُّلْحِ وَتَيَسَّرَتْ بِذَلِكَ أَسْبَابُ النُجْحِ أَخَذْنَا

---

(1) ـ أَنْ يُلْقِيَا : (عوض) لا يلقِيَان.

(2) ـ فَلْتَصَدِّقُوهُمَا : (عوض) لا فلْتَصدِّقاهُمَا.

(3) ـ بما تودعونَهُ : (عوض) بما تُودعوه.

فِي عَقْدِهِ وإِبْرَامِهِ وَإِكْمَالِهِ عَلَـى أَتَـمِّ أَحْكَامِـهِ، إِنْ شَـاءَ اللَّهُ تَعَالَى، وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الوَكِيلُ.

وَكُتِبَ فِي الثَّامِنِ وَالعِشْرِينَ لِـذِي [الـ]ـقَعْدَةَ عَـامَ خَمْسِينَ وَسَبْعِمَايَةٍ.

وَكُتِبَ فِي التَّارِيخِ.

ـ التّحليل

كان بترو الرّابع ملـك أراغـون بـادر بمكاتبـة السّـلطان فارس عند تولّيه الأمر بعد موت أخيه واطّلاعه على علاقته بملك قشتالة وبجوّ العداء القائم بينهما، وبمطالبته بمواصلة العمل بالحلف المبرم بين الدّولتين منذ السّلطان يوسف بـن عبد الحقّ وبدعم الصّداقة والتّعاون القائم بينهما.

فقام السّلطان فارس بردّ الجواب وبتـأكيد دعمـه لبـترو الرّابع ومساندته لموقفه وإعانته على أعدائه فيقـول: "ولكـم عندنا من النّظر الجميل والاعتناء الجزيل والتّيسـير لمرامكـم لدينا ... ويعينكم على جميع من عاداكم ويريكم أغراضكـم في من بَعُد عنكم ودَاناكُم. فكونوا بذلكم واثقين وإليه راكنين وعليه عاملين".

وكان في أوّل الكتاب أعلمه بوصول مبعوث ميورقي هـو مُجيل القطلاني من قِبل السّـفير جيـل البـيرط Giles Albert صديق بترو بكتاب من جيل نفسـه يرغـب فيـه عقـدَ صلـحٍ

بين النّصارى والمسلمين لتوفير مناخ من الأمن والسّلم يزيل جوّ العِمَارة والتّهديد السّائد والذي يُعيقُ التّنقّل والاتّجار. وكان "جيل" بيّن في رسالته أنّه لا يستطيع التّحدّث مع ملك أراغون في هذا الموضوع إلاّ بعد حصوله على كتاب من السّلطان يدعم هذا المسعى. فبادر السّلطان بإرسال مبعوثين من ثقاته هما: منصور بن عليّ بن سليمان اليباني وإبراهيم بن محفوظ ليتحدّثا مع الملك في موضوع هذا الصّلح ويعقدا معه أسباب إبرامه وإكماله على أتمّ أحكامه وذلك سنة 750هـ بعد أشهر من تولّي فارس الأمر بفاس.

- التّعليق

إنّ هذا الكتاب هو بمثابة تجديد للحلف القائم بين الدّولتين ضدّ القشتاليّين وتواصل لعقود الصّلح المبرمة مع السّلطان أبي عنان بن أبي الحسن. وإنْ كان الجوّ بين الملكين في آخر أيّام أبي عنان بدأ يكفهرّ كما كانت أشارت إليه الوثيقة السّابقة رقم 100 والوثيقة رقم 199 التي اشتكى فيها أبو عنان من نقض الصّلح والإقدام على أسر المسلمين.

16°) ـ الوثيقة رقم 102 بالأرشيف

ـ التّقديم

هَذَا كتاب من فارس[1] بن أبي الحسن بن أبي سعيد بفاس إلى بترو الرّابع ملك أراغون يعلمه فيه بوصول رسوله "جيل البارت" Gil Albert وَمَعه رسالته حول موضوع الصّلح بتاريخ 11 ربيع الثّاني من سنة 751هـ الموافق لـ 18 جوان من سنة 1350م.

[1] ـ هو السّلطان أبو عنان فارس.

- نصّ الرّسالة

مِنْ عَبْدِ اللّهِ فَارِسَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَوَكِّلِ عَلَـى رَبِّ العَـالَمِينَ ابْـنِ أَمِـيرِ الْمُسْلِمينَ أَبِـي الحَسَـنِ ابْـنِ أَمِـيرِ الْمُسْلِمِينَ أَبِي سَـعِيدٍ ابْـنِ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ الْمُجَـاهِدِ فِـي سَبِيلِ رَبِّ العَالَمِينَ أَبِي يُوسُفَ بْــنِ عَبْـدِ الحَـقِّ. أَيَّـدَ اللَّهُ تَعَالَى أَمْــرَهُ وَأَسْعَدَ زَمَانَـهُ الكَرِيـمَ وَعَصْـرَهُ. إِلَـى السُّلْطَانِ الْمُعَظَّمِ فِي مِلَّتِـهِ الكَبِـيرِ فِـي أَشْيَاعِهِ وَحِلَّتِـهِ بطْـرُو صَـاحِبِ أَرَغُـونَ وَبَلَنْسِـيَّةَ وَمَيُورَقَــةَ وَسَــرْدَانيةَ وَسَرَقُسْطَةَ وَجُورْسِقَةَ وَقُمْطَـيْ بَرْشَـلُونةَ(Sic) وَسَـرْدَانَةَ. وَصَلَ اللَّهُ تَعَالَى رُشْدَهُ وَسَنَى فِـي مُـوَلاَةِ[1] هَـذَا المَقَـامِ العَلِيِّ أَمَلَهُ وَقَصْدَهُ.

أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى وَالصَّلاَةِ التَّامَةِ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلاَنَـا مُحَمَّـدٍ رَسُولِهِ وَعَلَـى آلِـهِ وَأَصْحَابِـهِ تَــتْرَا[2]

---

(1) - مُوالاة: (عوض) لا مولاة.

(2) - تترا: تتواصل.

وَتَتَوَالَى وَصْلَةُ الدُّعَاء لِهَذَا المَقَامِ العَلِيِّ المُؤَيَّدِ السُّلْطَانِيِّ الفَارسيِّ المُتَوَكِّلِي بِالنَّصْرِ الذِي يَتَّصِلُ اتِّصَالاً. فَإِنَّا كَتَبْنَاهُ إِلَيْكُمْ مِنْ حَضْرَتِنَا العَلِيَّةِ المَدِينَةِ البَيْضَاء[1] حَرَسَهَا اللَّهُ تَعَالَى. وَبَرَكَاتُ التَّوكُّلِ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ تُسَهِّلُ الصِّعَابَ وَتَقْضِي لَنَا بِبُلُوغِ الأَوْطَارِ وَالآرَابِ. وَالحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى ذَلِكَ كَثِيرًا. وإِلَى هَذَا وَصَلَ اللَّهُ تَعَالَى لَكُمْ عَمَلاً مَبْرُورًا وَسَعْيًا مَشْكُورًا.

فَقَدْ وَصَلَ كِتَابُكُمْ عَلَى يَدَيْ رَسُولِكُمْ الزَّعِيمِ جِيلَ البَرْطَ. وَقَدْ أَلْقَى إِلَيْنَا مَا أَلْقَيْتُمْ لَهُ. وَتَلَقَّيْنَاهُ مِنْهُ بِالسُّرُورِ وَالرَّعْيِ المَوْفُورِ. وَقَدْ أَمَرْنَا بِعَقْدِ الصُّلْحِ وَكَتْبِ العُقُودِ بِذَلِكَ عَلَى أَوْثَقِ العُهُودِ وَأَوْضَحِ المَسَالِكِ. وَطَلَبَ مِنَّا رَسُولُكُمْ المَذْكُورُ أَنْ يَتَوَجَّهَ إِلَيْكُمْ وَيَنُصَّ جَمِيعَ مَا أَلْقَيْنَاهُ إِلَيْهِ عَلَيْكُمْ وَيَنْعَقِدَ الصُّلْحُ المَذْكُورُ عَلَى الكَمَالِ وَالتَّمَامِ وَالعُهُودُ الثَّابِتَةُ الأَحْكَامِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

---

[1] ـ المدينة البيضاء : فاس الجديدة.

وَاعْلَمُوا أَنَّ لَكُمْ عِنْدَنَا عِنَايَةً كَامِلَةً وَحِفَايَةً شَامِلَةً فَثِقُوا بِذَلِكُمْ. وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ يُرْشِدُكُمْ وَيُسْنِي فِي مُوَالاَةِ هَذَا الْمَقَامِ الْعَلِيِّ قَصْدَكُمْ. وَالسَّلاَمُ يَخُصُّكُمْ كَثِيرًا.

وَكُتِبَ فِي الأَحَدِ يَوْمَ الحَادِي عَشَرَ لِشَهْرِ رَبِيعِ الثَّانِي مِنْ عَامِ أَحَدٍ وَخَمْسِينَ وَسَبْعِمَايَةٍ. عَرَّفَ اللَّهُ تَعَالَى خَيْرَهُ وَبَرَكَتَهُ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ. لاَ رَبَّ غَيْرُهُ.

وَكُتِبَ فِي التَّارِيخِ.

ـ التّحليل

وجّهَ السّـلطان المريـنيّ فـارس بـن أبـي الحسـن لبـترُو الرّابع ملك أراغون هذا الكتاب بعد وصول رسـوله وسـفيره "جيل اَلْبَارت" واطّلاعه على الرّسالة التي حملها معـه مـن بترو الرّابع واستماعه لما ألقاه له باسم الملـك حـول موضـوع الصّلح وبنوده. فعبّر السّلطان فارس عن موافقته على مقترح الملك وعلى عقد الصّلح مع إبرام العهـود الثّابتـة الأحكـام، وأمر بكتابة العقود، وسمح للسّفير المذكور بالتّوجّه إلى ملكه لإمضاء العقد وإبلاغه ما ألقاه إليه الملـك مـن مسـائل تؤكّـد عناية السّلطان الكاملة باقتراحات الملك وحفاوتـه بكـلّ مـا يصدر عنه لمكانته عنده وعلوّ قدره وهمّته لديه.

ـ التّعليق

تبدو من خلال هذه الرّسالة العلاقة بـين الملكـين طيّبـة والمشاعر حميمة والثّقة متبادلة. ففارس الـذي خلـف أخـاه أبا عنان بن أبي الحسـن لا يـزال في حاجـة لتوطيـد ملكـه

وتثبيت عرشه وتأمين حدود بلاده وحصونها من القشتاليّين والأندلسيّين شمالا ومن بني عبد الواد شرقا وجنوبا، فقد سار على نهج أجداده وأسلافه وعمل على توفير الأمن من جهة القطلانيّين ومواصلة التّحالف معهم والتّعاون مع بترو الرّابع وعقد صلح معه يضمن للطّرفيْن السّلم وحرّيّة التّنقّل برّا وبحرا والكسب والاتّجار.

وبادر كلّ منهما بإمضاء عقد الصّلح كما تعرّفنا بذلك كلّ من الوثيقتين المواليتين 103 و104. وإن كان احترام العقد غير مضمون فمختلف الأطراف تعمد إلى التّعامل بالعهود المبرمة بما يخدم مصلحتها فلا تتردّد عن القطع وحجز المراكب وأسر التّجّار. فالرّبح ـ تجارةً أو قرصنةً ـ هو سيّد الموقف.

17°) ـ الوثيقة رقم 103 بالأرشيف

ـ التّقديم

هذا كتابٌ من فارس[1] بن أبي الحسن بفـاس إلى بـترو الرّابع يردّ فيها على طلبات بترو الخاصّة بالقراصنة وذلـك بتاريخ 28 رجب من سنة 752هـ الموافق لـــ 20 سـبتمبر مـن سنة 1351م.

(1) ـ هو السّلطان أبو عنان فارس بن السّلطان أبي الحسـن المتوفّـي سـنة 1352م.

ـ نصّ الرّسالة

مِنْ عَبْدِ اللَّهِ فَارسَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَوكِّل عَلَى رَبِّ العَالَمِينَ (Sic) ابْنِ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ أَبِي الحَسَنِ ابْنِ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ أَبِي سَعِيدٍ ابْنِ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ رَبِّ العَالَمِينَ أَبِي يُوسُفَ بْنِ عَبْدِ الحَقِّ. أَعْلَى اللَّهُ تَعَالَى أَمْرَهُ وَأَعَزَّ نَصْرَهُ. إلَى السُّلْطَانِ الكَبِيرِ فِي قَوْمِهِ الْمُعَظَّمِ فِي مِلَّتِهِ صَاحِبِ أَرْغُونَ. وَصَلَ اللَّهُ تَعَالَى رُشْدَهُ وَسَنَى فِي مُوَالاَةِ هَذَا المَقَامِ العَلِيِّ أَمَلَهُ وقَصْدَهُ. سَلاَمٌ يُرَاجِعُ سَلاَمَكَ.

أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى وَالصَّلاَةِ التَّامَّةِ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلاَنَا مُحَمَّدٍ الْمُصْطَفَى وَالرِّضَى عَنْ آلِهِ وَصَحْبِهِ أَعْلاَمِ الإسْلاَمِ وَأَيِمَّةِ دِينِ الرُّشْدِ والهُدَى والدُّعَاء لِهَذَا الأَمْرِ العَلِيِّ الْمُؤَيَّدِ الكَرِيمِ الفَارِسِيِّ الْمُتَوَكِّلِي بِالنَّصْرِ الأَعَزِّ والفَتْحِ الأَسْنَى.

فَإِنَّا كَتَبْنَاهُ إِلَيْكَ مِنْ حَضْرَتِنَا العَلِيَّةِ بِفَاسَ حَرَسَهَا

اللَّهُ تَعَالَى. وصُنْعُ اللَّهِ جَمِيلُ وَفَضْلُهُ سُبْحَانَهُ بكُلِّ خَيْرٍ كَفِيلٌ. وَالحَمْدُ للَّهِ كَثِيرًا.

وَإِلَى هَذَا فَإِنَّهُ وَصَلَ كِتَابُكَ وَوَقَفْنَا عَلَيْهِ وَعَلِمْنَا مَا لَدَيْهِ. ذَكَرْتَ أَنَّ أَهْلَ مَيُورَقَةَ تَشَكَّوْ لَكَ بقَضِيَّةِ الشِّيطِي[1] وذَكَرْتَ عَمَّا يَلْزَمُكَ مِنَ النَّظَرِ فِي مَصَالِحِ رَعَايَاكَ.

وَاعْلَمْ ـ وَفَّقَكَ اللَّهُ ـ أَنَّهُ كَمَا يَلْزَمُكَ النَّظَرُ فِي مَصَالِحِ رَعَايَاكَ فَكَذَلِكَ يَلْزَمُنَا نَحْنُ أَنْ نَنْظُرَ فِي صَلاَحِ رَعَايَانَا بأَحْسَنِ النظَر. وَقَدْ كَثُرَتْ الشِّكَايَاتُ[2] بمَقَامِنَا الكَرِيمِ أَسْمَاهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الأَوْلاَدِ والأَيْتَامِ والنِّسَاء بقَضِيَّةِ نَاسِهِمْ الَّذِينَ ببِلاَدِكَ أَسْرَى. وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى مَنْ تَسَبَّبَ فِي إفْسَادِ الصُّلْحِ العِقَابُ فَالصُّلْحُ ثَابِتٌ بَاقٍ عَلَى عَقْدِهِ وَصَحِيحٌ عَهْدُهُ. وَلَوْ كَانَ

---

(1) ـ الشّيطي : مركب بحريّ سريع.

(2) ـ الشّكايات : (عوض) الشيكات.

العِقَابُ يَجِبُ عَلَى مَنْ أَفْسَدَ الصُّلْحَ لَعَاقَبْتَ خُدَّامَكَ الذِينَ أَخَذُوا الشِّيَاطِي بِمَقْرُبَةٍ مِنْ جَبَلِ الفَتْحِ[1] حَرَسَهَا اللَّهُ تَعَالَى وَتُجَّارَكَ الذِينَ تَعَدَّوْا عَلَى أَخْذِ القَرْقُورَةِ[2]. وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ أَنَّ التُّجَّارَ يَتَوَجَّهُونَ عَلَى حُكْمِ الأَمَانِ فِي أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ فَذَلِكَ صَحِيحٌ. وَاعْلَمْ أَنَّ ابْنَ الخَطِيبِ مَا تَعَرَّضَ لِلشِّيطِي المَذْكُورِ إِلاَّ بَعْدَ أَنْ أَشْهَرَ التُّجَّارُ الَّذِينَ كَانُوا بِهِ السِّلاَحَ وَأَظْهَرُوا القِتَالَ. وَقَدْ وَصَلَنَا بِذَلِكَ عَقْدٌ مَشْهُودٌ. وَمَا حَبْسُ الشِّيطِي المَذْكُورِ إِلاَّ لَمَّا تَحَقَّقْنَا مِنْ أَنَّهُ لِلتُّجَّارِ الذِينَ أَخَذُوا لَنَا القَرْقُورَةَ. وَقَدْ كَانَ سَبَبُ حَبْسِ الشِّيطِي المَذْكُورِ وَإِنْ أَنْكَرَ التُّجَّارُ أَنَّهُمْ أَخَذُوا القَرْقُورَةَ المَذْكُورَةَ فَجِيلُ بَرْطَ المَذْكُورُ كَانَ أَخْبَرَ عَنْهُمْ بِذَلِكَ. وَإِلاَّ فَلَمْ يَبْقَ إِلاَّ أَنَّ جِيلَ بَرْطَ المَذْكُورَ هُوَ الذِي أَخَذَهَا. هَذَا هُوَ الظَّاهِرُ إِنْ أَنْكَرَ التُّجَّارُ أَخْذَهَا. وَاعْلَمْ أَنَّ جَمِيعَ مَا كَانَ

---

[1] ـ جبل الفتح: جبل طارق.

[2] ـ القرقورة: مركب بحريّ : Carraca.

بالشِّيطِي المَذْكُورِ هُوَ مَحْفُوظٌ بَـاقٍ عِنْدَنَـا فَـأْمُرْ[1] (Sic) تُجَّارُكَ بِـرَدِّ جَمِيـعِ مَـا كَـانَ فِـي القَرْقُـورَةِ. ونَصْـرِفُ عَلَيْهِمْ جَمِيعَ مَا كَانَ بِالشِّيطِي المَذْكُورِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ العَهْدَ الَّذِي بَيْنَنَا بَاقٍ عَلَى صَحِيحِ عَقْـدِهِ وَرَسْمِهِ. وكَذَلِكَ التُّجَّارُ في حُكْمِ الأَمَـانِ والاطْمِئْنَـان. لاَ يَعْرِضُهُمْ أَحَدٌ وَلاَ يَتَوَصَّلُ إِلَيْهِمْ بِمَكْرُوهٍ. فَـاعْلَمْ ذَلِـكَ. وَاللَّهُ المُرْشِدُ. وَكُتِبَ فِي الثَّامِنِ والعِشْرِينَ لِرَجَـبَ عَـامَ اثْنَيْنِ وَخَمْسِينَ وَسَبْعِمَايَةٍ.

وَكُتِبَ فِي التَّارِيخِ.

---

(1) ـ فأْمر: (عوض) فامر.

ـ التّحليل

تهُمّ هذه الرّسالة مسائل القطع والقرصنة التي كانت تَحدُث من حين لآخر بين البلدين رغم انعقاد الصّلح بينهما وما تخلّفه من ويلاتٍ ونكبات وتجرّه من مصائب لبعض الرّعايا. فكان بترو الرّابع بعث برسالة للسّلطان فارس يشتكي فيها من تعرّض قرصان مرينيّ هو ابن الخطيب لشيطي[1] ميورقيّ وحبْسه والسّطو عليه بما فيه. وطالب الملك بتسريح هذا الشّيطي وبيّن أنّه يقوم بواجبه نحو رعاياه ويتولّى الدّفاع عنهم وهذا من حقّه.

وقد كان ردّ السّلطان أبي عنان فارس في هذا الكتاب مُفحِما عنيفا ينمّ عن اعتذار وثقة في النّفس وإصرار على الدّفاع عن أهله ورعاياه كما يحقّ للملك أراغون الدّفاع عن رعاياه والبادئ أظلم. فحبس هذا المَركب حدث فعلا ولا ينكره السّلطان بل يؤكّد أنّه تمّ كردّ فعل على استيلاء

---

(1) ـ الشيطي: مركب بحريّ سريع.

التّجّار القطلانيّين بمضيق طارق على القرقورة[1] المرينيّة.
وبيّن له أنّ التّجّار الذين كانوا بالشّيطي كانوا أشهروا السّلاح وكانوا هم أنفسهم الذين بادروا بالاستيلاء على القرقورة حسب ما ذكره التّاجر "جيل برط". فلقد ادّعى هذا الأخير أنّه ليس له عليهم سلطة لإجبارهم على إرجاع المركب المختطف. ولاحظ أنّ التّجّار أنكروا الأمر ممّا يشير إلى أن جيل برط هو صاحب الفعلة والمحتفظ بالقرقورة أمّا الشّيطي بما فيه فباق محفوظ عند المرينيّين.

ويطالب السّلطان في الآخر من الملك أن يأذن لتجّاره بتسريح المركب المرينيّ "القرقورة" وإرجاع كلّ ما فيها حتّى يمكن له الإذن بإرجاع الشّيطي المذكور وجميع ما كان به. ولا سيّما أنّ العهد ما زال قائما آنذاك ورسم العقد صحيحا ومعمولا به حتّى يكون التّجّار في حكم الأمان والإطمئنان لا يصلهم أذى أو مكروه.

---

[1] ـ القرقورة: مركب بحريّ Carraca

ـ التّعليق

إنّ هذا الكتاب يفضح حقيقة العلاقة القائمة بين القطلانيّين والمرينيّين ويؤكّد عدم استجابة القراصنة والتّجّار القراصنة لبنود العقود وشروط الصّلح وعدم احترامهم لها. ويكشف أنّ القطع كان غالبا يتمّ بموافقة السّلطة نفسها وكتعبير عن موقف ما أو كردّ فعل على ما كان حدث من أعمال معادية. فالقطع كان وسيلة من وسائل الضّغط والمشاغبة والحرب غير المباشرة وغير المعلنة. وكان التّجّار من كلاّ البلدين دوما ضحيّة هذه السّياسة.

ونلاحظ في الختام صلابة موقف السّلطان فارس وشدّته وجرأته ومعاملته ملكَ أراغون معاملة النّدّ للنّدّ ومن موقف قوّة لا ضعف وهو من كبار السّلاطين المرينيّين وعظمائهم.

18°) ـ الوثيقة رقم 104 بالأرشيف

ـ التّقديم

إنّها رسالةٌ مِن فارس بن أبي الحسن[1] من فاس إلى بترو الرّابع يعلمه فيها بموافقته على عقد الصّلح مع مملكة أراغون وإمضائه له والعمل بكلّ بنوده. وُجِّهَتْ بتاريخ 7 شوال من سنة 751هـ الموافق لـ 8 ديسمبر من سنة 1350م.

---

(1) ـ هو السّلطان أبو عنان فارس. وقد وافق على عقد صلح وحلف مع بترو الرّابع.

- نصّ الرّسالة

مِنْ عَبْدِ اللَّهِ فَارِسَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَوكِّلِ عَلَى رَبِّ العَالَمِينَ ابْنِ أَمِيرِ الْمُسلِمينَ أَبِي الحَسَنِ ابْنِ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ أَبِي سَعِيدٍ ابْنِ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ الْمُجَاهِدِ فِي سَبيل رَبِّ العَالَمِينَ أَبِي يُوسُفَ بْنِ عَبْدِ الحَقِّ. أَيَّدَ اللَّهُ تَعَالَى أَمْرَهُ وَأَسْعَدَ زَمَانَهُ الكَرِيمَ وَعَصْرَهُ. إِلَى السُّلْطَانِ الكَبِيرِ فِي أَهْلِ مِلَّتِهِ الْمُعَظَّمِ فِي أَشْيَاعِهِ وَحُلَّتِهِ دُونَ بطْرُه صَاحِبِ أَرَغُونَ وَبَلَنْسِيَّةَ وميُورقَةَ وَسَرْدَانِيَةَ. وَصَلَ اللَّهُ تَعَالَى رُشْدَهُ وَبَلَّغَهُ فِي مُوَالاَةِ هَذَا الْمَقَامِ العَلِيِّ أَمَلَهُ وقَصْدَهُ.

أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى وَالصَّلاَةِ التَّامَّةِ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلاَنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ تَتْرَا وَتَتَوَالَى وَالدُّعَاء لِهَذَا المَقَامِ العَلِيِّ الْمُؤَيَّدِ الكَرِيمِ بالنَّصْرِ الذِي يَتَصِّلُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ اتِّصَالاً.

فَإِنَّا كَتَبْنَاهُ إِلَيْكُمْ ــ كَتَبَ اللَّهُ تَعَالَى لَكُمْ عَمَلاً

مَبْرُورًا وسَعْيَا مَرْضِيًا مَشْكُورًا ـ مِنْ حَضْرَتِنَا العَلِيَّةِ بفَاسَ المَحْرُوسَةِ. وَصُنْعُ اللَّهِ جَمِيلٌ وَفَضْلُهُ سُبْحَانَهُ بِكُلِّ خَيْرٍ كَفِيلٌ. وَالحَمْدُ للَّهِ عَلَى ذَلِكَ.

وَقَدْ وَصَلَنَا كِتَابُكُمْ صُحْبَةَ رَسُولِكُمْ ثِقَتِكُمْ اِفْرَنْسِيسَ بَرْتِيلَ أَرْشَدَهُ اللَّهُ. وقَرَأْنَاهُ. وَعَلِمْنَا مَا لَدَيْهِ. كَتَبْتُمْ بِأَمْرِ الصُّلْحِ المُبَارَكِ عَلَى بِلاَدِنَا المَحْرُوسَةِ بَرًّا وَبَحْراً وَبَعثْتم بذلكم عهدا بطابعكم وخطّكم وقد أمضينا هذا الصّلح المذكور وأبرمنا أحكامه وكتبنا بذلك إلى سائر بلادنا المحروسة وَأَشَعْنَا[1] خَبَرَهُ فِي نَوَاحِيهَا لِيَأْمَنَ بِذَلِكَ مَنْ يَتَرَدَّدُ مِنْ هُنَالِكُمْ مِنَ النَّصَارَى فِي كُلِّ أَحْوَالِهِمْ. وَيَتَرَدَّدُونَ عَلَى حُكْمِ الأَمْرِ وَالأَمَان إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَوَصَّلَ إِلَيْهِمْ أَحَدٌ بِوَجْهٍ وَلاَ عَلَى حَال.

وَكَتَبْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابَنَا هَذَا بِتَمَامِ هَذَا الصُّلْحِ المَذْكُور وَإِمْضَائِهِ عَلَى الكَمَالِ وَالتَّمَامِ. فَأَعْلَمْنَاكُمْ بِذَلكُمْ. وَاللَّهُ

---

[1] ـ أشَعْنَا [من أشَاعَ الخبر] (عوض): أَشْعَيْنَا.

سُبْحَانَهُ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الوَكِيلُ. وَالسَّلاَمُ يُرَاجِعُ سَلاَمَكُمْ.

وَكُتِبَ فِي السَّابِعِ لِشَوَالَ مِنْ عَامِ أَحَدٍ وَخَمْسِينَ وَسَبْعِمَايَةٍ. عَرَّفَنَا اللَّهُ تَعَالَى خَيْرَهُ وَبَرَكَتَهُ. لاَ رَبَّ غَيْرُهُ وَلاَ خَيْرَ إلاَّ خَيْرُهُ.

وَكُتِبَ فِي التَّارِيخِ.

- التّحليل

أرسل هذا الكتاب السّلطان فارس بن أبي الحسن من فاس إلى بترو الرّابع ملك أراغون يؤكّد له فيه وصول سفيره افرنسيس برتيل واطّلاعه على بُنود الصّلح وشروطه وما يوفّره من أمن برّا وبحرًا وعلى العهد المختوم بطابع الملك وخَطِّهِ، وَيعْلِمُهُ بموافقته على الصّلح المذكور وإمضائه عليه وإرساله إلى سائر أنحاء البلاد مُشيعا خبره على النّصارى والمسلمين وما يوفّره من أمانٍ ويضمنه من سلام للجميع.

وكان هذا الصّلح امتدادا للصّلح الذي كان بين بترو والسّلطان أبي عنان بن أبي الحسن والتحالف المبرم بين الطّرفين في هذه الفترة الزّمانيّة التي اشتدّ فيها التّنافس بين أراغون وقشتالة وضغْط القشتاليّين على المرينيّين ولا سيّما على أحلافهم بني الأحمر بغرناطة.

- التّعليق

يبدو من خلال هذا الكتاب الجوّ طيّبا بين المرينيّين والقطلانيّين والتّحالف الذي تمّ بين الدّولتين منذ عهد السّلطان يوسف المرينيّ الذي كان أوقف زحف القشتاليّين وتهديدهم لمسلمي الأندلس وغرناطة لا يزال متواصلا.

فما زالت الدّولة المرينيّة وقتئذ منيعةً قويّة وحامية للأندلس والإسلام بإسبانيا. فهي مع أبي الحسن وابنه أبي عنان فارس في عنفوان شبابها وأوج قوّتها.

19°) ـ الوثيقة رقم 105 بالأرشيف

ـ التّقديم

هذا كتاب من السّلطان أبي عنان فارس بن أبي الحسن من فاس إلى بترو الرّابع يُخبره فيه بتوجيه رسول إليه يتفاوض معه في موضوع المركب المحتجز ويؤكّد احترامه الكلّيّ لعقد الصّلح المبرم في رمضان من سنة 751هـ وذلك بتاريخ 3 شعبان من سنة 752هـ الموافق لـ 25 سبتمبر من سنة 1351م.

- نصّ الرّسالة

مِنْ عَبْدِ اللَّهِ فَارِسَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَوكِّلِ عَلَى رَبِّ العَالَمِينَ اِبْنِ أَمِيرِ الْمُسلِمِينَ أَبِي الحَسَنِ اِبْنِ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ أَبِي سَعِيدٍ ابْنِ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ الْمُجَاهِدِ فِي سَبيلِ رَبِّ العَالَمِينَ أَبِي يُوسُفَ بْنِ عَبْدِ الحَقِّ. أَعْلَى اللَّهُ تَعَالَى أَوَامِرَهُ وَخَلَّدَ آثَارَهُ الكَرِيمَةَ ومَآثِرَهُ.

إِلَى السُّلْطَانِ فِي قَوْمِهِ الْمُعَظَّمِ فِي أَشْيَاعِهِ الأَوْفَى بطْرُه صَاحِبِ أَرَغُونَ. وَصَلَ اللَّهُ رُشْدَهُ وَسَنَى فِي مُوَالاَةِ هَذَا المَقَامِ العَلِيِّ أَمَلَهُ وقَصْدَهُ. سَلاَمٌ يُرَاجِعُ سَلاَمَكَ.

أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى وَالصَّلاَةِ التَّامَّةِ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلاَنَا مُحَمَّدٍ الْمُصْطَفَى وَالرِّضَى عَنْ آلِهِ وَصَحْبِهِ أَعْلاَمِ الإِسْلاَمِ وَأَيمَّةِ دِينِ الرُّشْدِ والهُدَى، وَالدُّعَاء لِهَذَا المَقَامِ العَلِيِّ الْمُؤَيَّدِ الكَرِيمِ الْمُتَوَكِّلِيِّ بِالنَّصْرِ الأَعَزِّ وَالفَتْحِ الأَسْنَى.

فَإِنَّا كَتَبْنَاهُ إِلَيْكُمْ مِنْ حَضْرَتِنَا العَلِيَّةِ بِمَدِينَــةِ فَـاسَ المَحْرُوسَـةِ. وَلاَ جَدِيـدَ بِفَضْـلِ اللَّــهِ تَعَــالَى وبَرَكَــاتِ التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ وَصَرْفِ الأُمُورِ إِلَيْهِ إِلاَّ الخَيْرُ التَّامُّ وَالنَّصْرُ المُسْتَدَامُ. وَالحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيرًا.

وَقَدْ كَانَ وَصَلَنَا كِتَابُكَ. وَأَنْتَ تَذْكُرُ فيهِ عَنْ قَضِيَّـةِ الشَّيطِي[1] الذِي أَخَذَهُ ابْنُ الخَطِيبِ. وَقَدْ وَعَيْنَا جَمِيعَ مَا ذَكَرْتَ فِيهِ وَعَلِمْنَاهُ. وَقَدْ أَجَبْنَاكَ عَلَى كِتَابِكَ فَصْـلاً فَصْلاً بِمَا تَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ فِي قَضِيَّـةِ الشَّـيطِي المَذْكُـورِ. وأَعْطَيْنَا الكُتُبَ المَذْكُورَةَ لإِرْسَالِكَ.

وَقَدْ اقْتَضَى نَظَرُنَا السَّدِيدُ أَنْ وَجَّهْنَا إِلَيْكَ خَدِيمَنَـا الأَجَدَّ الأَنْهَضَ إِبرَاهِيمَ بْنَ مَحْفُوظٍ أَعَانَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي قَضِيَّةِ الشِّيطِي المَذْكُورِ. وَأَلْقَيْنَا إِلَيْهِ مَا يُلْقِيـهِ إِلَيْـكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى. فَإِذَا وَصَلَ إِلَيْـكَ إِبْرَاهِيـمُ بْـنُ مَحْفُـوظٍ المَذْكُورُ فَهُوَ يُعْلِمُكَ بِجَمِيعِ مَا أَلْقَيْنَـا إِلَيْـهِ فِـي قَضِيَّـةِ

---

[1] ـ الشيطي: مركب بحريّ سريع Saetiá.

الشِّيطِي المَذْكُور وَبا[لَّذِي] يَكُونُ عَلَيْهِ عَمَلُكَ فِي ذَلِـكَ. وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ يُرْشِدُكَ.

وَأمَّا قَضِيَّة الصُّلْحِ فَهُوَ صَحِيحُ الرَّسْمِ ثَابتُ الحُكْـمِ لَمْ يُنْقَلْ عَنْ حَالِهِ بوَجْهٍ وَلاَ عَلَى حَال. وَكَذَلِكَ جَمِيـعُ تُجَّارُكِ يُحْمَلُونَ ببلاَدِنَا المَحْرُوسَـةِ عَلَّـى الأَمَـان التَّـامِّ وَالاعْتِنَاء وَالإِكْرَام. فَاعْلَمْ ذَلِـكَ. وَاللَّـهُ سُـبْحَانَهُ يَصِـلُ رُشْدَكَ وَيُسْنِي فِي مُوَالاةِ هَذَا المَقَامِ العَلِيِّ قَصْدَكَ.

وَكُتِـبَ فِـي الثَّـالِثِ لِشَـعْبَانَ المُكَـرَّمِ عَـامَ اثْنَيْـن وَخَمْسِيـنَ وَسَبْعِمَـايَةٍ. عَـرَّفَ اللَّهُ خَيْـرَهُ وَبَرَكَتُـهُ. لاَ رَبَّ غَيْرُهُ.

وَكُتِبَ فِي التَّارِيخِ.

ـ التّحليل

أرسل السّلطان أبو عنان فارس هذا الكتاب لبترو الرّابع ليؤكّد له مواصلة احترامه الكامل لعقد الصّلح المبرم بينهما ويفسّر له عن طريق السّفير الذي وجّهه إليهِ، وهو إبراهيم بن محفوظ، أسباب حجز أحد رعاياه المرينيّين "ابن الخطيب" للشّيْطي القطلانيّ الذي كان كاتب في شأنه بترو الرّابع السّلطان المرينيّ.

ويُعلم أبو عنان فارس ملك أراغون أنّ سفيره كُلّف بشرح قضيّة الشّيطي وموقفه منها ويؤكّد حسن معاملته للتّجّار القطلانيّين وتوفير الأمن لهم.

ونلاحظ أنّ هذه العمليّة تحدث بعد عشَرة أشهر من عقد الصّلح لمدّة لا تتجاوز الأربعة عشر شهرا.

ـ التّعليق

إنّ هذه الوثيقة التي تحمل رقم 105 تتمثّل في رسالة

أبي عنان فارس للملك بترو وتتعلّق بعقد الصّلح المُبرم والوارد نصّه في وثيقة رقم 106. أي بعد هذه الرّسالة. والمفروض أن يسبق العقد الرّسالة ويحمل رقم 105 وتحمل الرّسالة رقم 106. إنّه مجرّد خطإ، ولا شكّ في التّوثيق. أمّا مضمون الرّسالة فهو يؤكّد لنا أنّ عقود الصّلح كثيرا ما تكون شكليّة وآنيّة لا تُحترم بنودها إذا ما اقتضت الضّرورة ومصلحة الملك أو السّلطان ذلك.

ويتّضح جليّا أنّ القطع هو الوسيلة المفضّلة للضّغط على العدوّ وابتزازه إن كان في حالة ضعف.

ويبدو في الختام السّلطان أبو عنان واثقا من نفسه ومسيطرا على الوضع. وفِعْلاً لقد كان من أقوى سلاطين الدّولة المرينيّة وأكثرهم علما وكفاءة سياسيّة وحربيّة. وكان عمره وهو يعقد هذا الصّلح لا يتجاوز الثّالثة والعشرين، إذ توفّي سنة 759هـ وهو في الثّلاثين.

20°) ـ الوثيقة رقم 106 : معاهدة صلح

ـ التّقديم

هذه الوثيقة تمثّل عقد صلح تمّ إبرامه بين أبي عنان فارس بفاس وبترو الرّابع ملك أراغون بتاريخ 25 رمضان من سنة 751هـ الموافق لـ 26 نوفمبر من سنة 1350م.

- نصّ الرّسالة

هَذَا كِتَابُ عَهْدٍ أُبْرِمَتْ بِيَدِ التَوْفِيقِ مَعَاقِدُهُ وأُحْكِمَتْ عَلَى أَوْضَحِ الطَّرِيقِ قَوَاعِدُهُ وَصَدَقَتْ فِي بَسْطِ الهُدْنَةِ وَالأَمَانِ شَوَاهِدُهُ. أَمَرَ بِعَقْدِهِ وَإِحْكَامِهِ وَالْتِزَامِ شُرُوطِهِ وَأَحْكَامِهِ عَبْدُ اللَّهِ فَارِسُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَوكِّلُ عَلَى رَبِّ العَالَمِينَ ابْنُ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ أَبِي الحَسَنِ ابْنِ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ أَبِي سَعِيدٍ ابْنِ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ رَبِّ العَالَمِينَ أَبِي يُوسُفَ يَعْقُوبَ بْنِ عَبْدِ الحَقِّ. عَقَدَ اللَّهُ أَسْبَابَ السَّعَادَةِ بِإِيرَادِهِ وَإِصْدَارِهِ وحَرَسَ عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ بَاهِرَ أَنْوَارِهِ.

مَعَ السُّلْطَانِ الكَبِيرِ فِي أَهْلِ مِلَّتِهِ الْمُعَظَّمِ فِي أَشْيَاعِهِ وَحُلَّتِهِ دُونَ بِطْرُه صَاحِبِ أَرَغُونَ وَبَلَنْسِيَةَ وَمَيُورَقَةَ وسَرْدَانِيَةَ. أَرْشَدَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَسَدَّدَهُ عَلَى الْمُهَادَنَةِ والأَمَانِ وَالصُّلْحِ الشَّامِلِ لِجَمِيعِ مَا تَحْتَ حُكْمِهِمَا مِنَ الرَّعِيَةِ وَالبُلْدَانِ.

فَيَتَرَدَّدُ جَمِيعُ مَنْ أَرَادَ السَّفَرَ مِنْ بِلَادِ كُلِّ وَاحِدٍ

مِنَ السُّلْطَانَيْن المَذْكُورَيْن فِي البَرِّ والبَحْرِ عَلَى حُكْمِ التَّأْمِين والعَافِيَةِ وَلاَ يُعْتَرَضُ مِنْهُمْ مُقِيمٌ وَلاَ مُسَافِرٌ وَلاَ يُطْلَبُ مَتَرَدِّدٌ مِنْهُمْ وَلاَ تَاجِرٌ بِشَيْءٍ مِنَ المَطَالِبِ وَالتَّكَالِيفِ إلاَّ الوَاجِبُ لِبَيْتِ المَالِ.

تَمَّمَهُ اللَّهُ تَعَالَى صُلْحًا ثَابِتَ الرَّسْمِ مُسْتَقِرَّ الحُكْمِ لِمُدَّةٍ مِنْ أَرْبَعَةِ عَشَرَ شَهْرًا مِنْ شَهْرِ تَارِيخِهِ. وَعَلَيْهِمَا فِي ذَلِكَ عَهْدُ اللَّهِ تَعَالَى وَمِيثَاقُهُ فِي تَتْمِيمِ هَذَا الصُّلْحِ المَذْكُورِ لِأَمَدِهِ مِنْ غَيْرِ إخْلاَلٍ بِشَيْءٍ مِنْ قَوَاعِدِهِ وَلاَ نَقْضٍ لِأَحْكَامِهِ ومَعَاقِدِهِ.

وَكَتَبَ أَعْلَى اللَّهُ تَعَالَى أَمْرَهُ وَأَعَزَّ نَصْرَهُ خَطَّ يَدِهِ الكَرِيمَةِ إعْلاَمًا بِصِحَّةِ هَذَا العَقْدِ المُبَارَكِ وَتَقَرُّرًا لِحُكْمِهِ فِي الخَامِسِ والعِشْرِينَ لِشَهْرِ رَمَضَانَ المُعَظَّمِ الَّذِي مِنْ عَامِ أَحَدٍ وخَمْسِينَ وسَبْعِمَايَةٍ. عَرَّفَ اللَّهُ تَعَالَى بَرَكَتَهُ وَيُمْنَهُ وأَجْمَلَ بِمَنِّهِ خَتْمَهُ. لاَ رَبَّ غَيْرُهُ.

وَكُتِبَ فِي التَّارِيخِ المُؤَرَّخِ أَعْلاَهُ.

ـ التّحليل

تتمثّل الوثيقة في عقد صلح بين الدّولتين: المرينيّة بفاس وأراغون ببرشلونة، يضمن الأمن لرعايا البلدين في تنقّلهم برًّا وبحرًا بالنّسبة للمقيمين وللمسافرين فيتاجرون بصفة حرّة وطليقة ولا يُطالَبون بدفع شيء ما عَدا الإتاوة المعلومة والمتّفق عليها.

وتقرّر العقد لمدّة أربعة عشر شهرا لا يمكن الإخلال بأحد بنوده في أمده. ولقد أمضى عليه السّلطان بنفسه إعلاما بصحّته.

ـ التّعليق

أُبرِم هذا العقد لمدّة قصيرة لا تتجاوز الأربعة عشر شهرا. وهذا أمد قصير جدّا لا نَعلم سببه. فالعقود المماثلة تُبرم عادةً لمدّة لا تقلّ عن أربع سنوات وتمتدّ إلى عشرة أعوام. فلعلّ السّلطان أبا عنان فارس الذي عُيّنَ رسميّا وَليَّ العهد وتصالح مع أبيه. وكان قضى على كلّ الثّورات

والفتن واسترجع تلمسان وما إليها. كان آنذاك غير مستعدّ للالتزام بالسّلم لمدّة طويلة. وهو الطّموح جدّا والحريص على استعادة كلّ البلاد التي كان استولى عليها والده السّلطان أبو الحسن: أي من سواحل الأندلس المتوسّطيّة المتكوّنة من مملكة بني الأحمر: غرناطة إفريقيّة إلى طرابلس والمغربين الأوسط والأقصى.

ومن المعلوم أنّ الوسيلة المجدية المعتمدة للضّغط على العدوّ كانت تتمثّل في القطع والقرصنة.

أمّا الملك بترو الرّابع فكان مثل جدّه جاقمو الثّاني مهتمّا بالتّجارة ومردودها عن طريق كراء الأجفان والإتاوة التي يدفعها التّجّار المسلمون والقطلانيّون والتّبادل الذي يتمّ بفضل مساعدة الجالية اليهوديّة والسّيطرة على طريق الذّهب عبر سجلماسة[1].

---

(1) ـ أُنظر: طريق الذّهب في دراستنا "علاقات القطلانيّين بتلمسان (وثائق ودراسات).

21°) - الوثيقة رقم 107 بالأرشيف

- التّقديم

هذا كتاب من أبي عنان فارس بن أبي الحسن بفاس إلى السمَلِكَةِ "دونه لِيونور" يؤكّد فيه موافقته على عقد الصّلح مع أخيها فريدريك ملك صقلّيّة بتاريخ 3 صفر من سنة 759هـ الموافق لـ 15 يناير من سنة 1358م.

ـ نصّ الدّراسة

مِنْ عَبْدِ اللَّهِ الْمُتَوكِّل عَلَى اللَّهِ فَارس[1] أَمِير الْمُؤْمِنِينَ الْمُجَاهِدِ فِي سَبيلِ رَبِّ العَالَمِينَ اِبْنِ مَوْلاَنَا أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ الْمُجَاهِدِ فِي سَبيلِ رَبِّ العَالَمِينَ أَبِي الحَسَنِ ابن مولانا أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ الْمُجَاهِدِ فِي سَبيلِ رَبِّ العَالَمِينَ أَبِي سَعِيدٍ ابْنِ مَوْلاَنَا أمير المسلمين المجاهد في سبيل ربّ اعالمين أبي يُوسُفَ بْنِ عَبْدِ الحَقِّ سُلْطَان فَاسَ وَمكْنَاسَةَ وَسَلاَ وَمَرَّاكِشَ وَبِلاَدِ السُّوس وَسِجلْمَاسَةَ وبِلاَدِ القِبْلَةَ وَتَازِي وَتِلِمْسَانَ وَالجَزَايِرِ وَبِجَايَةَ وقُسَنْطِينَةَ وَبَلَدِ العُنَّابِ وَبِسْكَرَةَ وبِلاَدِ الزَّابِ وَبِلاَدِ إفْرِيقِيَّةَ وَقَابِسَ وَبِلاَدِ الجَرِيدِ وَطَرَابُلْسَ وَطَنْجَةَ وَسِبْتَةَ وَجَبَلِ الفَتْحِ وَرَنْدَةَ وَمَا إِلَى ذلِكَ مِنَ البِلاَدِ الغَرْبِيَةِ وَالشَّرْقِيَّةِ وَالأَنْدَلُسِيَّةِ. وَصَلَ اللَّهُ سَعدَهُ وَوَالَى عَضْدَهُ .

---

[1] ـ أبو عنان فارس بن أبي الحسن : هو السّلطان المرينيّ أبو عنان الذي توفي في موفّى ذي الحجّة سنة 759هـ.

إِلَـى الحَظِيَّـةِ المُؤْثَـرَةِ المَرْعِيَّـةِ المَلْحُوظَـةِ لِيَنُـور[1] أَكْرَمَهَا اللَّهُ تَعَالَى بِتَقْوَاهُ وَهَيَّأَ لَهَا أَسْبَابَ رِضَاهُ.

أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ تَعَـالَى وَالصَّلاَةِ التَّامَّـةِ وَالسَّلاَمِ عَلَـى سَيِّدِنَا وَمَوْلاَنَـا مُحَمَّـدٍ نَبِيِّـهِ الكَرِيـمِ وَرَسُـولِهِ المُصْطَفَى وَالرِّضَاء عَنْ آلِهِ وَصَحْبِهِ الكِرَامِ أَيِمَّةِ الإِسْلاَمِ وَأَعْـلاَمِ الرُّشْـدِ وَالهُـدَى وَالدُّعَـاءِ لِهَـذَا الأَمْـرِ العَلِـيِّ الإِمَـامِيِّ المُجَـاهِدِيِّ المُتَوَكِّلِيِّ الفَارِسِـيِّ بِـالنَّصْرِ الأَعَـزِّ وَالفَتْحِ الأَسْنَى.

فَكَتَبْنَاهُ إِلَيْكُمْ مِنْ حَضْرَتِنَا العَلِيَّةِ بِالمَدِينَـةِ البَيْضَـاء يَمَنَّهَا اللَّهُ تَعَالَى. وَصُنْعُ اللَّهِ تَعَالَى جَمِيلٌ وَإِنْعَامُهُ عَزَّ وَجَلَّ بِكُلِّ خَيْرٍ كَفِيلٌ. وَلِلَّهِ الحَمْدُ كَثِيرًا.

وَإِلَى هَذَا فَقَدْ وَصَـلَ كِتَـابُكُمْ فَوَقَفْنَـا عَلَيْـهِ وَعَلِمْنَـا مَضْمَنَهُ وَمَا لَدَيْهِ. وَقَـدْ شَـكَرْنَا قَصْدَكُـمْ وَاسْتَحْسَنَّا مَـا

[1] ـ ملكة أراغون زوجة الملك بترو الرّابع وأخت ملـك صقلّيـة فريدريـك ربطت علاقات مودّة بأبي عنان ووزيره محمّد بـن حـي بـن يوسـف الحسيني.

عِنْدَكُمْ مِنَ السُّرُورِ بالْمُصَالَحَةِ التِي وَقَفَتْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ السُّلْطَانِ الكَرِيمِ صَاحِبِ أَرَغُونَ أَكْرَمَهُ اللَّهُ تعَالى بتَقْوَاهُ وَمَا طَلَبْتُمُوهُ مِنْ أَنْ نَعْقِدَ الصُّلْحَ لأَخِيكُمْ فُلُدْرِيجَ صَاحِبِ صِقِلِّيَّةَ. فَقَدْ أَسْعَفْنَاكُمْ بِمَطْلَبِكُمْ فِي ذَالِكَ وأَنْعَمْنَا عَلَيْكُمْ بهِ. وإنْ أَرَدْتُمْ تَمَامَهُ فَتَبْعَثُونَ مِنْ ثِقَاتِكُمْ مَنْ يَعْقِدُ ذَلِكَ وَيَتَحَدَّثُ فِيهِ بِحَضْرَتِنَا إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى. وَهُوَ سُبْحَانَهُ يُكْرِمُكُمْ بتَقْوَاهُ وَيُهَيِّئُ لَكُمْ أَسْبَابَ رِضَاهُ. وَالسَّلاَمُ يُرَاجِعُ سَلاَمَكُمْ.

وَكُتِبَ فِي الثَّالِثِ مِنْ صَفَرِ الْمُبَارَكِ عَامَ تِسْعَةٍ وَخَمْسِينَ وَسَبْعِمَايَةٍ[1]. عَرَّفَ اللَّهُ تَعَالَى خَيْرَهُ.

وَكُتِبَ فِي التَّارِيخِ.

[1] ـ السّنة التي هلك فيها السّلطان أبو عنان فارس.

ـ التّحليل

يراسل السّلطان أبو عنان فارس بهذا الكتاب الملكة "لِيُونُورَ" مباشرة ويخبرها باتّصاله برسالتها واطّلاعه على موقفها من المصالحة مع ملك أرغوان زوجها وسرورها بها. ويعلن موافقته على طلبها بعقد الصّلح مع فريديريك ملك صقلّية شقيقها.

فتبدو الملكة حريصة على تَحقيق الصّلح لفائدة زوجها بترو الرّابع وشقيقها ملك صقلّيّة وساعية بشتّى الوسائل للوصول إلى غرضها كما يتّضح ذلك في مراسلات لاحقة.

ـ التّعليق

من خلال هذه الرّسالة نتوقّف على اتّساع مُلك السّلطان أبي عنان وسيطرته على كلّ المغرب الأقصى والمغربين الأوسط والأدنى وبعض السّاحل الأندلسيّ: جبل الفتح ورندة. فمُلكه يمتدّ من طنجة إلى طرابلس. وكان يحكم البلاد أحيانا مباشرة عن طريق الأمراء والشّيوخ من بني

مرين، وتارة بكيفيّة غير مباشــرة عـن طريـق الحفصيّـين أو الزّيّانيّين الموالين له والدّاعين باسمــه. وهـذا الوضـع جعـل ملوك النّصارى يهابونه ويطلبون عقد الصّلح معه.

فتبدو الدّولـة المرينيّـة معـه في عنفـوان قوّتهـا وشـبابها مثلما كانت عليه أيّـام أبيـه السّـلطان الكبـير أبـي الحسـن المرينيّ. ولنا أن نتساءل في الختـام عـن الأسـباب الخفيّـة التي دفعت الملكة دونه ليونور إلى التّدخّل بنفسها ومراسـلة السّلطان الشّابّ أبي عنان ومطالبته بالمصالحة مـع أراغـون وصقلّيّة، ثمّ أن تستقبل موفده بنفسها وتحمّله رسالة سـرّيّة للسّلطان، وتطلـب مـن الملـك اسـتقباله في بيتـه، وتحميلـه رسـالة سـرّيّة هامّـة تتّصـل بـالوضع في المنطقـة بـالجزيرة المغاربيّة والجزيرة الإيبيريّة ؟

إنّ الأمر يتعلّق فيما يبدو بملك قشتالة والأندلس.

°22) - وثيقة رقم 108 بالأرشيف

- التّقديم

هذه رسالة بتاريخ 4 صفر من سنة 759هـ الموافق لـ 16 ينـاير من سنة 1358م من محمّد بْنِ حيّ الحسيني مستشار السّلطان المتوكّل أبي عنان إلى الملكة دونه ليونُور يخبرها فيها بوصول كتابها إلى حضرة السّلطان فيما يخصّ الصّلح المقترح مع أخيها فريديريك ملك صقلّيّة.

ـ نصّ الرّسالة

الزِّينَةُ المُكَرَّمَةُ المُعَظَّمَةُ المُرَفَّعَةُ لِيُنُورُ امْرأَةُ السُّلْطَانِ المُكَرَّمِ المُعَظَّمِ صَاحِبِ أَرَغُونَ أَسْعَدَهَا اللَّهُ بِتَقْوَاهُ وَوَفَّقَهَا لِلْعَمَلِ بِمَا فِيهِ رِضَاهُ مُوثِرُ جَنَابِهَا وَمُكَرِّمُهُ (Sic) مَمْلُوكُ المَقَامِ العَلِيِّ الإمَامِيِّ المُتَوَكِّلِي أَدَامَ اللَّهُ أَيَّامَهُ وَأَمْضَى فِي تَأْيِيدِ المِلَّةِ الحَنِيفِيَّةِ اعْتِزَامَهُ الشَّرِيفُ مُحَمَّدُ بْنُ حَيٍّ الحُسَيْنِي يَتَعَهَّدُهَا[1] بِالبِرِّ الوَافِرِ وَالإكْرَامِ المُتَظَافِرِ مِنَ الحَضْرَةِ العَلِيَّةِ الإمَامِيَّةِ المُتَوَكِّلِيَّةِ حَضْرَةِ مَوْلاَنَا أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ مَثَابَةِ الحَقِّ وَمُفِيضِ عِهَادِ الامْتِنَانِ عَلَى الخَلْقِ أَبِي عِنَانٍ أَدَامَ اللَّهُ بَسْطَةَ مُلْكِهِ وَنَظَمَ البَسِيطَةَ فِي سِلْكِ مُلْكِهِ. وَلاَ نَاشِئَ بِفَضْلِ اللَّهِ سُبْحَانِهِ. ثُمَّ بِبَرَكَةِ مَقَامِ مَوْلاَنَا أَيَّدَهُمْ اللَّهُ تَعَالَى إلاَّ مَا عَوَّدَ سُبْحَانَهُ مِنْ فَضْلِهِ العَمِيمِ وَمَنْحِهِ الجَمِيمِ. وَالحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ.

وَإلَى هَذَا فَإنَّ مُكَرِّمَ جَنَابِكِ لَمَّا وَرَدَ عَلَى حَضْرَةِ مَوْلاَنَا

---

(1) ـ يتعهدُّها: في الأصل يعتهدُها.

دَفَعَ لَهُمْ كِتَابُكِ وَقَرَّرَ مَا تَلَقَّاهُ مِنْ بِرِّكِ وَتَحْفِيكِ بِمَقَامِهِمْ الأَعْلَى وَبِشْرِكِ وَعِنَايَتِكِ بِجَنَابِهِمْ الكَرِيمِ وَجَرْيكُمْ فِي حِفْظِ أَسْبَابِ الوَصْلَةِ عَلَى المَنْهَجِ القَوِيمِ واسْتَحْسَنُوا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ذَلِكَ مِنْ أَدَبِكِ وَرَأَوْا أَنَّهُ المُنَاسِبُ لِمَنْصِبِكِ وَشَافَهْتِهِمْ بِمَا أَلْقَيْتِهِ إِلَيَّ مُشَافَهَةً مِنْ حَدِيثِ صُلْحِ أَخِيكَ فِرْذِيقَ قَارْوَا صَاحِبِ سِقِلِّيَةَ مَعَهُمْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَمُوجِبَةً رَغْبَتَكُمْ فِي ذَلِكَ. وَقَدْ أَسْعَفَ أَيَّدَهُ اللَّهُ تَعَالَى رَغْبَتَكِ وَقَابَلَ بِالقَبُولِ طِلْبَتَكِ تَيَمُّنًا[1] لِمَسَرَّتِكِ وَجَرْيًا عَلَى اقْتِرَاحِكِ لِعِلْمِهِ بِقَدْرِكَ وَمَا سَبَقَ مِنْ وِدَادِكِ وَبِرِّكِ. فَأُعْقِدَ الصُّلْحُ كَمَا ذَكَرْتِ بِالتَّفْوِيضِ الذِي جَعَلَ لَكِ أَخُوكِ وَيَعْقِدُهُ أَخُوكِ عَلَى نَفْسِهِ. وَمَوْلاَنَا يُمْضِيهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ إِكْمَالاً لِرَغْبَتِكِ. وَهُوَ سُبْحَانَهُ يَحْفِظُ مَقَامَ مَوْلاَنَا وَيُمْتِعُ المُسْلِمِينَ بِطُولِ بَقَائِهِ بِمَنِّهِ.

وَكُتِبَ فِي الرَّابِعِ لِصَفَرٍ مِنْ عَامِ تِسْعَةٍ وَخَمْسِينَ وَسَبْعِمَايَةٍ.

---

(1) ـ تَيَمُّنًا: في الأصل تقمنا.

ـ التّحليل

يقوم الحاجب محمّد بن حيّ الحسيني وزيـر السّلطان المرينيّ أبي عنان بـإعلام الملكـة دونـه لِيونـور زوجـة بـترو الرّابع بوصول كتابها واطّلاع السّلطان عليه وموافقتـه علـى ما فيه، واقتراحها بعقد صلح بينـه وبـين الملـك فريديريـك ملك صقلّيّة.

ويؤكّد الحاجبُ في هذه الرّسالة علـى الطّريقـة اللاّئقـة والحفاوة البالغة التي عاملتْ بها وفده وعلـى الرّغبـة الـتي عبّرت عنها ليتمّ عقد الصّلح مع أخيهـا فريديريـك وأخـيرا على موافقته على أن يُـبرم الصّلـح معهـا بتوكيـل وتفويـض رسميّين منه.

ـ التّعليق

نستنتج من هذه الرّسالة الدّور الهامّ الذي كانت تلعبـه زوجـة الملك في السّياسة القطلانيّة وفي عقد مختلف العلائـق والتّحالفات بين الدّول، وأخيرا الدّور الذّاتيّ والشّـخصيّ في ربـط هـذه العلائـق وعقـد هـذه التّحالفـات بـل دور المـــرأة الأساسي في السّياسة الدّوليّة في القديم مثلما هو في الحاضر.

23°) ـ الوثيقة رقم 109 بالأرشيف

ـ التّقديم

رسالة من محمّد بن حيّ بنِ يوسف الحسَيْني[1] الوزيـر المرينيّ باسم أمير المؤمنين سلطان فاس إلى ملك أراغون بترو الرّابع بتاريخ 11 صفر الخير من سنة 759هـ الموافـق لـ 23 ينـاير مـن سـنة 1358م تخـصّ عقـد الصّلـح المُـرادُ إبرامـه والمـهادنة المقترحة على مـلـك صقلّيّـة والملكـة ليُنُـوره أخـت صاحب صقلّيّة.

---

[1] ـ وزير السّلطان أبي عنان فارس الذي توفّي سنة 1359م/759هـ.

ـ نصّ الرّسالة

المَلِكُ المُعَظَّمُ الأَرْفَعُ الأَعَزُّ الأَكْرَمُ الأَوْفَى بطْرُه مَلِكُ أَرَغُونَ ومَا إِلَيْهَا أَسْعَدَهُ اللّهُ بتَقْوَاهُ وَوَفَّقَهُ لِلْعَمَلِ بمَا فِيهِ رِضَاهُ مُؤْثِرُ تَكْرُمَتِهِ وَبرِّهِ العَالِمُ بمَنْصِبهِ وَقَدْرِهِ مَمْلُوكُ المُقَامِ العَلِيِّ الإِمَامِيِّ المُتَوَكِّلِيِّ أَدَامَ اللّهُ لَهُ بَسْطَةَ التَّأْيِيدِ وَحفِظَ ببَقَائِهِ نِظَامَ الوُجُودِ الشَّرِيفِ[1] مُحَمَّدُ بْنُ حَيٍّ بْنِ يُوسُفَ الحُسَيْنِي يَعْتَهِدُ[2] مَحَلَّهُ بالبرِّ الوَافِرِ والإِكْرَامِ المُتَظَافِرِ مِنْ بَابِ مَوْلاَنَا أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ المُتَوَكِّلِ عَلَى اللَّهِ أَيَّدَهُ اللَّهُ تَعَالَى بعَزِيزِ نَصْرِهِ وَلَيْسَ بفَضْلِ اللّهِ تَعَالَى ثُمَّ ببَرَكَةِ هَذِهِ الخِلاَفَةِ المَوْلَوِيَّةِ المُتَوَكِّلِيَّةِ التِي هِيَ ظِلُّ اللَّهِ عَلَى الأَنَامِ وَمَصْدَرُ العَدْلِ الذِي بهِ أَشْرَقَتِ الأَيَّامُ وَاعْتَزَّ المُسْلِمُونَ والإِسْلاَمُ. وَصَلَ اللّهُ مَضَاءَ اعْتِزَامِهَا وَسَعَادَةِ أَيَّامِهَا إِلاَّ الخَيْرُ الذِي أَفَاضَ عِهَادَهُ وَسَهَّلَ قِيَادَهُ. والحَمْدُ لِلّهِ كَثِيرًا. وَعِنْدَ مُؤْثِرِكُمْ

---

(1) ـ هو السّلطان أبو عنان بن السّلطان أبي الحسن.

(2) ـ يتعهدُ: في الأصل يعتهدُ.

لِجَانِبِكُمْ إِيثَارٌ وَتَكْرِيمٌ وَمَبَرَّةٌ يَجْرِي فِيهَا عَلَى المَنْهَجِ القَوِيمِ.

وَقَدْ وَرَدَ عَلَى حَضْرَةِ مَوْلاَنَا أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ أَدَامَ اللَّهُ بَسْطَةَ سُلْطَانِهِ وَقَرَّرَ لَهُمْ رِضَى اللَّهِ عَنْهُمْ مَا تَلَقَّاهُ مِنْ جَمِيلِ اعْتِقَادِكَ فِيهِمْ وَكَرِيمِ مَنَاحِيكَ فِي الاعْتِدَادِ بِعَلِيِّ مَقَامِهِمْ وَالرُّكُونِ إِلَى مَأْلُوفِ وَفَائِهِمْ وَالثِّقَةِ بِعَظِيمِ عَنَائِهِمْ.

وَذَكَرْتَ لَهُمْ سُرُورَكَ بِإِجَابَتِهِمْ أَيَّدَهُمُ اللَّهُ إِلَى مَا عَرَضْتَهُ عَلَيْهِمْ مِنَ الصُّلْحِ الذِي أَوْجَبَ هَذِهِ الأُلْفَةَ وَحَفِظَ أَسْبَابَ الوَصْلَةِ. فَسَرَّهُمْ أَيَّدَهُمُ اللَّهُ ذَلِكَ مِنْكَ وَقَابَلُوهُ بِأَوْفَرِ حُظُوظِ البِرِّ وَأَجَلِّ أَقْسَامِ الاعْتِنَاءِ.

فَلَكَ مِنْهُمْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بِإِزَاءِ بِرِّكُمْ مِنَ التَّكْرُمَةِ وَالمَبَرَّةِ الخَالِصَةِ المُسْتَحْكَمَةِ مَا تَجِدُونَ أَثَرَهُ وَتَجْنُونَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ثَمَرَهُ.

وَقَدْ عَرَضْتَ عَلَيْهِمْ أَبْقَاهُمُ اللَّهُ تَعَالَى الصُّلْحَ الذِي عَقَدْتُمُوهُ عَلَى أَنْفُسِكُمْ فِي الخَمْسَةِ الأَعْوَامِ الأَخِيرَةِ الَّتِي

وَقَعَتْ بِهَا إِشَارَةُ ابْنُ الأَحْمَرِ[1] عَلَيْكُمْ فِي كِتَابِهِ المُصَدَّرِ إِلَيْكُمْ. فَأَمْضَوْهُ أَيَّدَهُمْ اللَّهُ عَلَى نَفْسِهِمْ الكَرِيمَةِ إِعْمَالاً لِغَرَضِكُمْ وَإِيثَارًا لاقْتِرَاحِكُمْ وَجَرْيًا عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ خَالِصْ مَحَبَّتِكُمْ فِيهِمِ وَإِيثَارِكَ لِمَنَاحِيهِمْ. وَأَوْقَفْتَهُمْ أَيَّدَهُمْ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى تَرْجَمَةِ الكُتُبِ الدَّايِرَةِ بَيْنَكَ وَبَيْنَ صَاحِبِ قَشْتَالَةَ[2] فَرَأَوْا مِنْ مَقَاصِدِكَ فِيهَا مَا دَلَّهُمْ عَلَى وَفَائِكَ وَنَفْيِ البَغْيِ عَنْ جِهَتِكَ.

وَعَرَضْتَ عَلَيْهِمْ أَبْقَاهُمْ اللَّهُ تَعَالَى كِتَابَ الرِّينَةِ لِيُنُورَةَ[3] فِي شَأْنِ مُصَالَحَةِ أَخِيهَا صَاحِبِ صِقِلِّيَةَ وَقَرَّرْتَ لَهُمْ مَعَ ذَلِكَ مَا صَدَرَ مِنْ بِرِّهَا وَشُكْرِهَا وَأَلْقَيْتَ لَهُمْ رَغْبَتَهَا فِي الاِلْتِئَامِ وَالاِنْتِظَامِ بِمُصَالَحَةِ أَخِيهَا.

---

(1) ـ ابن الأحمر: ملك غرناطة.

(2) ـ صاحب قشتالة : الملك فردينان الذي كان يريد محاربة المرينيّين والاستيلاء على جبل طارق والمضيق فنصحه ملك أراغون بالمهادنة.

(3) ـ عرضَتْ الملكة ليُنُورة ملكة أراغون وزوجة بترو الرّابع وأخت صاحب صقلّية جاقمو على أخيها أن يعقد صلحا مع المرينيّين سنة 759هـ الموافق لسنة 1358م.

فَأَجَابَ أَيَّدَهُ اللَّهُ إِلَى ذَلِكَ رَعْيًا لِمَحَلِّهَــا مِنْـكَ وَالْتِفَاتًـا لِقَدْرِهَا وَمَا سَبَقَ مِنْ بِرِّهَا.

وَتَعَرَّفَ مَوْلاَنَا أَيَّدَهُمْ اللَّهُ مَا كَتَبْتُمُوهُ لاِبْنِ بَرْطِيـلِ مِـنَ الحَوَائِجِ التِي أَمَرْتُمُوهُ بِشِرَائِهَا لَكُـمْ مِـنْ هُنَـا فَصَدَرَ أَمْرُهُـمْ الكَرِيـمُ بِـأَنْ تَخْـرُجَ لَكُـمْ جَمِيـعُ تِلْكُـمْ الحَوَائِـجُ مِـنْ دَارِهِـمْ الكَرِيمَةِ فَإِنَّهُ لاَ يَلِيــقُ بِمَقَـامِهِمْ الأَعْلَـى أَنْ يُشْـتَرَى لَكُـمْ مَـا يَخْتَصُّ بِكُمْ مِنْ مِثْلِ هَذَا وَمَخَازِنُهُمْ الوَاسِعَةُ مَمْلُوءَةٌ بِجَمِيعِ ذَخَائِرِ الدُّنْيَا.

وَجَمِيـعُ الحَوَائِـجِ المَذْكُورَةِ وَارِدَةٌ عَلَيْـكَ صُحْبَـةَ ابْـــنِ بَرْطِيلَ. وَهْيَ مُفَسَّرَةٌ فِي الزِّمَامِ الوَارِدِ عَلَيْـكَ فِـي بَطْـنِ هَـذَا الكِتَابِ.

وَأَمَّا حَدِيثُ السِّرِّ الذِي تَحَالَفْتُ فِيهِ مَعَـكَ فِـي مَـنْزِلِكَ فَقَدْ قَرَّرْتُهُ لِمَوْلاَنَا فِي خَلْوَةٍ بِحَيْثُ لاَ يَسْمَعُنَا أَحَـدٌ حَسْـبَمَا وَقَعَ عَلَيْهِ اليُمْنُ.

وَعَلِمَ أَيَّدَهُ اللَّهُ ذَلِكَ كُلَّهِ وَوَقَعَ مِنْهُ أَحْسَــنَ مَوْقِـعٍ فَـتَرَوْا

فِيمَا يَصْنَعُ فِي ذَلِكَ إِذْ المَسْأَلَةُ عَظِيمَةٌ فَوَقَفَ رأْيُهُ المُبَارَكُ عَلَى أَنْ تُوَجِّهُوا مِنْ ثِقَاتِكُمْ الَّذِي تَسْتَقِيمُونَ لَهُ وَتُفْضُونَ بِأَسْرَارِكُمْ إِلَيْهِ مَنْ يَتَحَدَّثُ مَعَ مَوْلاَنَا فِيهِ سِرًّا وَيُبْرَمُ مَعَهُ فِي ذَلِكَ مَا يَعْتَمِدُهُ الفَرِيقَان إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، لَكِنْ بَعْدَ أَنْ تَجْعَلَ لِمَنْ تُوَجِّهُهُ فِي ذَلِكَ تَفْوِيضًا يُمْضِي بِهِ عَلَيْكَ مَا يَقَعُ عَلَيْهِ الاتِّفَاقُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى. فَخَاطَبْتُكُمْ بِهَذِهِ عِلْمًا مِنِّي بِأَنَّهَا تَحِلُّ مِنْكُمْ مَحَلَّ المَسَرَّةِ. وَهُوَ سُبْحَانَهُ يُسْعِدُكَ بِتَقْوَاهُ وَيَسْتَعْمِلُكَ بِمَا فِيهِ رَضَاهُ.

وكُتِبَ فِي الحَادِي عَشْرَةَ لِشَهْرِ صَفَرٍ مِنْ عَامِ تِسْعَةٍ وَخَمْسِينَ وَسَبْعِمَائَةٍ.

ـ التّحليل:

هذه رسالة هامّة من وزير سلطان فاس المرينيّ ومستشاره محمّد بن حيّ بن يوسف الحسيني تَخصّ علاقات سلطان فاس أبي عنان بملك أراغون بترو الرّابع وبسياسة المَلِكَين بالمنطقة وبالمخطّطات السّرّيّة التي وُضِعَتْ لِصالح البلدين وضدّ الأعداء المنافسين: ملك قشتالة بالنّسبة لأراغون وبني عبد الواد وبني الأحمر بالنّسبة للمرينيّين.

ـ يذكّر الوزير بحسن استقبال ملك أراغون بترو للوفد الذي أرسله إليه السّلطان، وبالرّغبة التي عبّر عنها الملك لعقد الصُّلح ودعم أواصر الصّداقة والمحبّة بين الملكين، وشكره على المراسلة التي كانت له مع ملك قشتالة لإثنائه عن عزمه على محاربة المرينيّين بعد غزوهم لجبل طارق ويتخلّص إلى الكتاب الذي أرسلته ملكة أراغون زوجة بترو الرّابع وأخت ملك صقلّية "دونه ليُنُوره" والخاصّ بالصّلح

الذي تريد أن يُبرمه أخوها مع السّلطان المرينيّ أبي عنان فارس، وتؤكّد فيه موافقة ملك صقلّيّة على العقد واستعداده لإمضائه.

وفي الختام يبادر الوزير بإعلام الملكة بأنّ السّلطان علِمَ بما طلبته الملكة من السّفير ابن بَرْطِيل من اشتراء حوائج وأشياء خاصّة بها فأصدر السّلطان قراره بإعطاء الملكة كلّ ما طلبتْه من مخازنه وبيّن أنّه لا يمكن السّماح باشتراء أشياء هي متوفّرة بمخازن السّلطان إلى جانب كلّ "ذخائر الدّنيا". ويبلغها أنّ جميع ما طلبته واصل إليها مع ابن برطيل الذي يحمل إليها كذلك كتابا سرّيّا فيه ردّ على المسائل التي تمّ طرحها أثناء زيارة الوزير لبرشلونة.

وينهي محمّد بن حيّ الحسيني حاجب السّلطان الرّسالة بأمر خطير كان حدّثه في شأنه ملكُ أراغون سرّا ببيته فيعلمه أنّه تحدّث مع السّلطان في الموضوع فوافق عليه ويقترح عليه أن يرسل أحدا ممّن يثق فيهم ويحفظ

أسراره ليتّفق معه على الأمر ويمضيا عليه. وهو ما من شأنه أن يُدخل عليه كامل الغبطة والسّرور.

ـ التّعليق

إنّ هذه الرّسالة تُطلعنا على الطّريقة التي كانت تعتمد في المفاوضات والاتّصالات والوساطات التي تتّخذ لتحقيق المآرب والأهداف.

وتبيّن لنا عمق العلائق التي كانت قائمة بين السّلطان ووزيره والتّاج الأراغونيّ إلى درجة سمحت بربط علاقة صداقة خاصّة بالملكة نفسها التي كان لها دور سياسيّ كبير وتأثير على الملك وعلى أخيها ملك صقلّيّة.

وتؤكّد قوّة شخصيّة هذا السّلطان الشّابّ وطموحه الكبير.

ونلاحظ الطّريقة التي استقبل بها ملك أراغون موفد السّلطان أبي عنان ووزيره، فلقد استقبله ببيته الخاصّ

وساررە ووضع معه خطّة سرّيّة تُحقّق تحالف البلدين وتخدِم مآرب الملكين.

ولا ننسى الطّموح الكبير الذي كان للسّلطان الكبير أبي عنان والغزوات العديدة التي قام بها واستيلاءه على جبل طارق والجزيرة وسبتة وتلمسان وتهديده لملك قشتالة الذي كان يُعدُّ الفرص للانقضاض عليه. لذلك كان هذا التّحالف مع ملك أراغون.

وأخيرا نشير إلى الوسائل المشبوهة التي كان يعمد إليها الملوك ووزراؤهم مثل الهدايا والعطاءات الماليّة والوعود المريبة. وفي هذا الإطار تتحقّق التّحالفات وتسقط دول وتنشأ أخرى.

24°) ـ الوثيقة رقم 110 بالأرشيف

التّقديم

كتاب من إبراهيم بن أبي الحسن[1] بمرّاكش السّلطان المرينيّ سلطان فاس وتلمسان إلى بترو الرّابع ملك أراغون يعلمه فيه بفتح تلمسان وبما قام به بعض القراصنة من رعايا الملك من قطع مخالفين بذلك عقدَ الصّلح المبرم بين البلدين. وكُتبتْ الرّسالة بتاريخ 7 شعبان سنة 761هـ الموافق لـ 24 جوان من سنة 1360.

---

(1) ـ السّلطان إبراهيم سالم: خلف السّلطان أبا عنان بعد الثّورات والفتن التي ظهرت بين الأمراء والوزراء الحاجبين لسلاطينهم الصّبْيَة مثل أبي عنان السّعيد.

ـ نصّ الرّسالة

مِنْ عَبْدِ اللَّهِ الْمُسْتَعِين بِاللَّهِ إبْرَاهِيمَ أَمِـيرِ الْمُسلِمِينَ الْمُجَاهِدِ فِـي سَـبيلِ رَبِّ العَـالَمِينَ اِبْـن مَوْلاَنَـا أَمِـيرِ الْمُسلِمِينَ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ رَبِّ العَالَمِينَ أَبِـي الحَسَـنِ اِبْـن مَوْلاَنَـا أَمِـيرِ الْمُسْلِمِينَ الْمُجَاهِدِ فِـي سَـبِيلِ رَبِّ العَالَمِينَ أَبِي سَعِيدٍ اِبْنِ مَوْلاَنَا أَمِـيرِ الْمُسلِمِينَ الْمُجَـاهِدِ فِي سَبِيلِ رَبِّ العَالَمِينَ أَبِي يُوسُفَ يَعْقُـوبَ ابْـن عَبْـدِ الحَقِّ صَاحِبِ مَدِينَةِ فَاسَ وَمَكْنَاسَـةَ وَتَـازي وَمَرَّاكُـش وَسِجِلْمَاسَةَ وَسَبْتَةَ وَطَنْجَةَ وَجَبَلِ الفَتْحِ وَرَنْدَةَ وَتِلِمْسَانَ وَهُنَيِنَ وَوَهْرَانَ وَتُنُسَ وَالجَزَايِرِ والمِدْيَةِ وَبِسْكَرَةَ وَالـزَّابِ وَمَا إِلَى ذَلِـكَ مِـنَ البِـلاَدِ الغَرْبِيَـةِ والشَّـرْقِيَّةِ والقِبْلِيَّـةِ والسَّاحِلِيَّةِ أَيَّدَ اللَّهُ أَمْرَهُ وَأَعَزَّ نَصرَهُ.

إلَى السُّلْطَان الأَجَلِّ الأَسْنَى المَشْهُور الوَفِيِّ المَشْكُور بِطْـرُه صَاحِبِ أَرَغُـونَ وَبَرْشَلُونَةَ وَبَلَنْسِيَّةَ وَقُرْصِيغَـةَ وَمَيُورْقَةَ. أَكْرَمَهُ اللَّهُ بِتَقْوَاهُ وَيَسَّرَهُ لِمَا فِيهِ رِضَاهُ.

أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى وَالصَّلاَةِ وَالسَّلاَمِ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلاَنَا مُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ الكَرِيمِ وَرَسُولِهِ المُصْطَفَى والرِّضَى عَنْ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَعْلاَمِ الإِسْلاَمِ وَأَيِمَّةِ دِينِ الرُّشْدِ وَالهُدَى، وَصِلَةِ الدُّعَاءِ لِهَذَا الأَمْرِ العَلِيِّ المُؤَيَّدِ الكَرِيمِ الإِمَامِيِّ المُجَاهِدِيِّ المُسْتَعِينِ بِدَوَامِ النَّصْرِ الأَعَزِّ وَالفَتْحِ الأَسْنَى. فَكَتَبْنَاهُ إِلَيْكُمْ مِنْ حَضْرَةِ تِلِمْسَانَ حَرَسَهَا اللَّهُ. وَصُنْعُ اللَّهِ جَمِيلٌ وَفَضْلُهُ جَزِيلٌ وَلُطْفُهُ كَافٍ كَفِيلٌ. الحَمْدُ لِلَّهِ وَإِلَى هَذَا أَكْرَمَكُمْ اللَّهُ.

فَإِنَّا نَعْلَمُ أَنَّكُمْ تُسَرُّونَ بِمَا يَتَزَيَّدُ عِنْدَنَا مِنَ الفَتْحِ وَالخَيْرِ كَمَا أَنَّا نُسَرُّ لَكُمْ بِمَا يَتَزَيَّدُ عِنْدَكُمْ. وَقَدْ فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْنَا فِي هَذِهِ الأَيَّامِ مَدِينَةَ تِلِمْسَانَ وَمَا وَرَاءَهَا مِنَ البِلاَدِ الشَّرْقِيَّةِ وَفَرَّ الأَشْقِيَاءُ الَّذِينَ كَانُوا بِهَا يُظْهِرُونَ الفَسَادَ وَيَجُورُونَ عَلَى الرَّعِيَّةِ وَهُمْ بَنُو عَبْدِ الوَادِ، وَخَرَجُوا مَعَ الأَشْقِيَاءِ المُفْسِدِينَ مِنَ العَرَبِ إِلَى الصَّحْرَاءِ وَدَخَلْنَا نَحْنُ إِلَى البَلَدِ وَمَلَكْنَا جَمِيعَ تِلْكَ البِلاَدِ الشَّرْقِيَةِ، وَوَجَّهْنَا الحِصَصَ إِلَى أَطْرَافِ البِلاَدِ

فِي طَلَبِ الأَشْقِيَاء أَمْكَنَ اللَّهُ مِنْهُمْ. وَعَرَّفْنَاكُمْ بِذَلِكَ لِتُسَرُّوا لَنَا بِهِ.

وَمُوجِبُ كِتَابِنَا إِلَيْكُمْ أَنَّا كُنَّا قَدَّمْنَا إِلَيْكُمْ قَبْلَ هَذَا كِتَابًا فِي شَأْنِ خَدِيمِنَا الشَّيْخِ الأَجَلِّ الأَسْنَى أَبِي عِمْرَانَ مُوسَى بْنِ إِبْرَاهِيمَ خَلَّصَهُ اللَّهُ. وَكُنَّا نَظُنُّ أَنَّهُ وَصَلَ إِلَيْكُمْ. فَلَمَّا تَيَقَّنَّا فِي هَذِهِ الأَيَّامِ أَنَّهُ لَمْ يَصِلْكُمْ أَعَدْنَا الكَتْبَ إِلَيْكُمْ فِي شَأْنِهِ.

وَكَذَلِكَ رَكِبَ البَحْرَ فِي هَذِهِ الأَيَّامِ جَمَاعَةٌ مِنْ خُدَّامِنَا كَانُوا بِجِهَةِ الشَّرْقِ وَقَصَدُوا بَابَنَا الكَرِيمَ فَلَقِيَهُمْ أَجْفَانٌ غَلَبُوا عَلَيْهِمْ بِالكَثْرَةِ وَأَخَذُوهُمْ وَنَحْنُ مَعَ هَذَا كُلِّهِ لَمْ نَزَلْ عَلَى حُكْمِ الصُّلْحِ الَّذِي عَقَدْتُمْ مَعَ أَخِينَا المَرْحُومِ فِي جَمِيعِ بِلَادِنَا وَفِي سَوَاحِلِنَا مِنْ تُجَّارِكُمْ خَلْقٌ كَثِيرٌ مُقِيمُونَ وَوَارِدُونَ وَلَمْ يَتَعَرَّضْ لَهُمْ أَحَدٌ بِمَا يَكْرَهُ جَرْيًا عَلَى حُكْمِ الصُّلْحِ وَإِبْقَاء المَوَدَّةِ. وَقَدْ تَكَرَّرَ مِنْ نَاسِكُمْ هَذَا الفِعْلُ فَأَصْدَرْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابَنَا لِنَرَى مَا

عِنْدَكُمْ فِي ذَلِكَ. فَإِنْ كُنْتُمْ بَاقِينَ عَلَى حُكْمِ الصُّلْحِ فَوَفُّوا شُرُوطَهُمْ كَمَا يَجِبُ وَأَطْلِقُوا جَمِيعَ مَنْ بِبِلاَدِكُمْ مِنْ خُدَّامِنَا لِيَصِلُوا إِلَى مَحَلِّ خِدْمَتِهِمْ مِنْ بَابِنَا الكَرِيمِ، وَإِلاَّ فَعَرِّفُونَا بِمَا عِنْدَكُمْ. وَاللَّهُ يُؤْتِيكُمْ هِدَايَتَهُ وَتَوْفِيقَهُ. وَالسَّلاَمُ يُرَاجِعُ سَلاَمَكُمْ.

وَكُتِبَ لِسَبْعٍ خَلَوْنَ مِنْ شَهْرِ شَعْبَانَ الْمُكَرَّمِ عَامَ أَحَدٍ وَسِتِّينَ وَسَبْعِمَايَةٍ لِلْهِجْرَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ عَلَى صَاحِبِهَا أَفْضَلُ الصَّلاَةِ والتَّسْلِيمِ.

وَبَعْدَ تَمَامِ هَذِهِ النِّعْمَةِ واسْتِرْجَاعِ البِلاَدِ مِنْ أَيْدِي الفَجْرَةِ ظَهَرَ لَنَا أَنْ نَرُدَّ أَمْرَ تِلِمْسَانَ إِلَى حَفِيدِ السُّلْطَانِ أَبِي تَاشْفِينَ الذِي رُبِّيَ بِدَارِنَا وَتَقَلَّبَ فِي نِعْمَتِنَا واسْتَثْنَيْنَا عَلَيْهِ مَا عَدَا مُسْتَغَانِمْ مِنَ البِلاَدِ السَّاحِلِيَّةِ وَشَرَطْنَا عَلَيْهِ السَّمْعَ والطَّاعَةَ لِأَمْرِنَا وتَلَقَّى شُرُوطَنَا بِالقَبُولِ. وأَقَمْنَا بِهَا وَنَحْنُ عَلَى إِعْمَالِ الرِّكَابِ إِلَى حَضْرَتِنَا بِفَاسَ. عَرَّفْنَاكُمْ بِذَلِكَ والسَّلاَمُ مُعَادٌ عَلَيْكَ.

وَكَذَلِكَ وَلَّيْنَا أَمْرَ بِجَايَةَ وَقُسَنْطِينَةَ صَاحِبَيْهِمَا اللَّذَيْنِ كَانَا بِهِمَا مِنْ قَبْلُ. وَهُمَا حَفِيدَا السُّلْطَانِ الْمَرْحُومِ أَبِي يَحْيَى[1]. وَشَرَطْنَا عَلَيْهِمَا السَّمْعَ وَالطَّاعَةَ. وَاللَّهُ الهَادِي إِلَى الخَيْرِ وَالْمُعِينُ عَلَيْهِ.

وَكُتِبَ فِي التَّارِيخِ الْمُؤَرَّخِ بِهِ.

---

(1) ـ أبو يحيى أبو بكر السّلطان الحفصيّ صهر السّلطان أبي الحسن.

ـ التّحليل

يعلم السّلطان إبراهيم بترو الرّابع بفتحه لتلمسان وكلّ البلاد الشّرقيّة[1] وتزايد نصره وتغلّبه على الأعداء ويفترض أنّ مثل هذا النّبإ لا بدّ أن يدخل على صديقه ملك أراغون الغبطة والسّرور للعلاقة الطّيبة القائمة بينهما ولتوفّقه التّغلّب على الأعداء بني عبد الواد ويخبره أنّه كان أرسل إليه كتابا مع سفيره الشّيخ أبي عمران موسى بن إبراهيم ولكنّه لم يصله. لذلك بادر بتوجيه كتاب آخر في نفس الموضوع مع جماعة من شيعة السّلطان غير أنّ بعض الأجفان القطلانيّة اعترضتهم وأغارت عليهم منتهكة بذلك الصّلح المبرم مع المرحوم أخيه السّلطان أبي عليّ بن أبي الحسن.

ويغتنم السّلطان إبراهيم المناسبة ليذكّر ملك أراغون بأن تجّارا قطلانيّين كثيرين من أراغون يقيمون عنده ولم

---

[1] ـ البلاد الشّرقية: السّاحل الجزائريّ الحالي: من وهران إلى بجاية.

يتعـرّض لهـم أحـد بـأذًى. وكـان يمكـن أسـرهم وأخذهـــم رهائن، لكنّه لم يفعل احتراما لعقــد الصّلـح المـبرم وللمـودّة التي تربطــه بـالملك. ويعـبّر عـن اسـتغرابه لتواصـل القطـع وسكوت التّاج الأراغوني على مثل هذا الفعل.

ويطلـب منـه في الختـام الإيفـاء بشـروط العقـد وإطـلاق سراح كـلّ الأسـرى والمحتجزيـن مـن البـلاد المرينيّـة وهـو ينتظر وصولهم. ويشدّد عليه مطالبا بإبلاغــه حقيقـة موقفـه ورأيه في الموضوع إن لم يُطلقْ سراحـهم.

وبعد اختتام الرّسالة يستطرد السّلطان وينتقل إلى إعلام ملك أراغون بأنّه قرّر إبقاء حفيـد السّـلطان أبـي تاشـفين[1] الزّيّاني على رأس مملكة تلمسان ما عـدا مرسـى مسـتغانم بشرط أن يدعو للمرينيّين ويحكم باسمهم خاصّة أنّــه عــاش عندهم ورُبّي ببلاطهم. ويعلمه أيضا باستيلائه علــى بجايـة وقسنطنيّة وافتكاكهما من الحفصيّين وسماحه بترك صاحبي

---

[1] ـ أبو تاشفين: سلطان تلمسان الأسبق كان صديقا للقطلانيّـين وكـانت أمّه نصرانيّة.

بجاية وقسنطينة الحفصيَّيْن حفِيديْ السّلطان الحفصي أبي يحيي أبي بكر بشرط الطّاعة والدّعوة للمرينيّين.

ـ التّعليق

تتّضح لنا من خلال هذه الرّسالة الهامّة نوعيّة العلاقة التي كانت قائمة بين المرينيّين والقطلانيّين والعقليّة السّائدة في البلدين والمتمثّلة في رغبة التّوسّع الدّائمة وفي الاعتماد دوما على القطع للتّهديد والتّرهيب ولتحقيق الأهداف المرسومة.

ونستنتج أربعة ملاحظات أساسيّة:

1 ـ إنّ العداوة التي كان يشعر بها المرينيّون نحو بني عبد الواد ـ أبناء عمومتهم الزّناتيّين ـ كبيرة وكانت سبب كثير من الفتن والحروب التي جرّتْ أكبر الويلات على البلديْن.

2 ـ إنّ احترام شروط الصّلح وبنوده لم يكن دوما تامّا ومثاليّا. فالصّلح وقتيّ ويخدم المصلحة الآنيّة والظّرف

ويمكن تجاوزه إن كانت المصلحة في تجاوزه وعدم احترامه. والملاحظ أنّ الملك والسّلطان لا يُخلاّن بالصّلح المبرم مباشرة بل دوما عن طريق القطع والقراصنة.

3 ـ يكون غالبا التّجّارُ والرّعايا المقيمون بالبلد الآخر هم الضّحيّة. فنرى كيف أنّ السّلطان يهدّد بطريقة مقنعة بحجز التّجّار القطلانيّين وأسرهم وأخذهم رهائن. وإن كان يذكر بأنّه لم يُقدم على مثل هذا العمل للصّدَاقة التي تربطه بالملك بترو.

4 ـ إنّ السّياسة التّوسّعيّة للدّولة المرينيّة كانت سببا من أسباب عدم الاستقرار الذي شهدته المنطقة وقتئذ وإضعاف الدّول المغاربيّة وإن كانت الدّولة المرينيّة في العشريتين الأولى والثّانية من النّصف الثّاني من القرن الرّابع عشر تمثّل قوّة حقيقيّة وخطرا على الدّول المجاورة لها بما في ذلك الممالك المسيحيّة المجاورة.

25°) ـ الوثيقة رقم 112 بالأرشيف

ـ التّقديم

هذا كتاب من إبراهيم بن أبي الحسن[1] المرينيّ سلطان المغرب وتلمسان التي كان سيطر عليها المرينيّون بتاريخ 10 شعبان سنة 761هـ الموافق لـ 27 جوان من سنة 1360م. وهو مُوجَّه إلى "برناط قبريرة" القطلانيّ يطلب منه السّلطان المرينيّ مساعدة رسوله إلى ملك أراغون في مهمّته.

---

(1) ـ السّلطان إبراهيم سالم الذي حكم من سنة 1360م. إلى 1363م.

- نصّ الرّسالة

مِنْ عَبْدِ اللّهِ الْمُسْتَعِينِ باللّهِ إِبْرَاهِيمَ أَمِيرِ الْمُسلِمينَ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ رَبِّ العَالَمِينَ اِبْنِ مَوْلاَنَا أميرِ الْمُسلِمينَ الْمُجَاهِدِ فِي سَبيلِ رَبِّ العَالَمِينَ أَبي الحَسَنِ اِبْنِ مَوْلاَنَا أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ الْمُجَاهِدِ فِي سَبيلِ رَبِّ العَالَمِينَ أَبي سَعِيدٍ اِبْنِ مَوْلاَنَا أَمِيرِ الْمُسلِمينَ الْمُجَاهِدِ فِي سَبيلِ رَبِّ العَالَمِينَ أَبي يُوسُفَ يَعْقُوبَ بْنِ عَبْدِ الحَقِّ. أَيَّدَ اللَّهُ تَعَالَى أَمْرَهُ وَأَسْعَدَ الكَرِيمُ عَصْرَهُ. إِلَى الزَّعِيمِ الْمُكَرَّمِ الْمَشْكُورِ الأَوْفَى بَرْنَاطَ قَبْرِيرَةَ[1] أَكْرَمَهُ اللّهُ تَعَالَى بِتَقْوَاهُ وَأَرْشَدَهُ لِمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ.

أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللّهِ تَعَالَى وَالصَّلاَةِ التَامَّةِ الْمُبَارَكَةِ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلاَنَا مُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ الكَرِيمِ وَرَسُولِهِ الْمُصْطَفَى والرِّضَى عَنْ آلِهِ وَصَحْبِهِ الطَّيِّبينَ الطَّاهِرِينَ أَعْلاَمِ الإِسْلاَمِ وَأَيِمَّةِ دِينِ الرُّشِدِ والهُدَى وَصِلَةِ الدُّعَاء

---

(1) - برناط قبريرة: كان مستشارا قطلانيّا لدى ملك أراغون وصديقا لسلطان فاس.

لِمَقَامِنَا العَلِيِّ المُسْتَعِينِي الإبْرَاهِيمِي المَجَاهِدِي بِدَوَامِ النَّصْرِ الأَعَزِّ وَاطِّرَادِ الفَتْحِ الأَسْنَى.

فَإِنَّا كَتَبْنَاهُ إِلَيْكُمْ مِنْ حَضْرَةِ تِلِمْسَانَ حَرَسَهَا اللَّهُ تَعَالَى. وَصُنْعُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ جَمِيلٌ وَخَيْرُهُ جَزِيلٌ وَالحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيرًا. وَإِلَى هَذَا أَكْرَمَكُمْ اللَّهُ بِتَقْوَاهُ.

فَإِنَّا نُعْلِمُكُمْ أَنَّا قَدْ وَجَّهْنَا الخَدِيمَ المُوثِرَ المَرْعِيَّ يَعْقُوبَ الرُّقَانِي فِي خِدْمَةٍ إِلَى السُّلْطَانِ المُعَظَّمِ الأَوْفَى صَاحِبِ أَرْغُونَ. فَمَتَى احْتَاجَ إِلَى مُشَارَكَتِكُمْ فِي ذَلِكُمْ فَتُشَارِكُونَهُ بِمَعْهُودِ وَفَائِكُمْ وَمَشْكُورِ إِعَانَتِكُمْ. وَكُلُّ مَا تَفْعَلُونَ مَعَهُ نَشْكُرُهُ لَكُمْ وَنَصِلُ بِسَبَبِهِ الاِعْتِنَاءَ قِبَلَكُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى. وَهُوَ سُبْحَانَهُ يَصِلُ إِكْرَامَكُمْ بِتَقْوَاهُ وَإِرْشَادَكُمْ لِمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ.

كُتِبَ فِي العَاشِرِ لِشَعْبَانَ المُكَرَّمِ مِنْ عَامِ أَحَدٍ وَسِتِّينَ وَسَبْعِمَايَةٍ

وَكُتِبَ فِي التَّارِيخِ.

ـ التّحليل

بعث السّلطان إبراهيم بن أبي الحسن المرينيّ[1] بهذه الرّسالة من تلمسان[2] التي كانت وقتئذ تحت الحكم المرينيّ إلى تاجر قطلانيّ صديق خاصّ له مقرّب من ملك أراغون، وكان أرسله التّاج الأراغوني مرّات عديدة سفيرا مفوّضا لدى السّلطان المرينيّ.

طلب منه السّلطان إبراهيم أن يُحسِن استقبال مبعوثه يعقوب الرّقاني، ويساعده في مهمّته لدى ملك أراغون، ويقدّم له أقصى ما يمكنه من المساعدات حتّى يوفّق في هذه المهمّة. ووعد السّلطان برناط قبريرة التّاجر القطلانيّ بأنّ

---

(1) ـ أبو الحسن المريني: السّلطان الموحّد لكامل الأقطار المغاربيّة والفاتح لتلمسان وإفريقيّة بعد موت صهره السّلطان الحفصيّ أبي بكر. توفّي سنة 752هـ ودفنه ابنه أبو عليّ بفاس. وكان ثار عليه وهو بتونس.

(2) ـ كانت تلمسان وقتئذ تحت سلطة المرينيّين. ولقد استولوا عليها ثلاث مرّات قضوا فيها على حكم بني عبد الواد. وفتحها السّلطان إبراهيم للمرّة الأخيرة سنة 765هـ. مثلما يتّضح من رسالة 24 جوان.

يكافئه أحسن مكافأة وأن يقدّم له ما يستحقّه من جزيل الجزاء.

- التّعليق

1 - نستنتج من هذه الرّسالة نوعيّة العلاقات الشّخصيّة التي كانت تربط بعض السّلاطين ببعض التّجّار أو السّفراء القطلانيّين والمعاملات المشبوهة والمريبة التي كانوا يعاملونهم بها: فيها الإغراء والعطاء الجزيل.

2 - نلاحظ دَوْر بعض هؤلاء التّجّار الذي كان يتجاوز عملهم المهني التّجاري ويتمثّل في الوساطات السّياسيّة والتّدخّل لقضاء بعض المصالح وتحقيق بعض التّحالفات.

3 - نرى من خلال هذه الرّسالة تداخل المصالح الخاصّة واستغلالها للقيام بأدوار سياسيّة أحيانا هامّة جدّا ووساطات وتدخّلات مشبوهة. فالسّلطان إبراهيم حاكم تلمسان كان بعد وفاة والده أبي الحسن السّلطان الكبير يتنافس وبقيّة الأمراء المرينيّين على السّلطة. وقد تكون

لهذه الرّسالة وهذه السّفارة صلة بهذا الوضع وبهذا التّنافس القائم.

فنَرى أنّ السّلطان المرينيّ إبراهيم يحاول ضمان حياد أراغون في حربه مع بني عبد الواد والحصول على وعْد بعدم مساعدته لهم ومدّهم بالأجفان والسّلاح.

4 ـ كان ملوك أراغون يستغلّون المنافسة القائمة بين الأمراء والسّلاطين المرينيّين والحكّام المغاربيّين بصفة عامّة للتّدخّل في شؤون هذه الدّول ومحاولة السّيطرة على بعضها. وكانت هذه الطّريقة هي التي اعتمدها هؤلاء الملوك القطلانيّون مع السّلاطين الحفصيّين وملوك عبد الواد أنفسهم.

ويبدو أنّ بترو الرّابع قَبِل التزام الحياد خوفا من غارات المرينيّين وطلعاتهم برّا وبحرا لقوّة أساطيلهم بعد سيطرتهم على المضيق وجبل طارق. وحاول التّحالف معهم ضدّ أجواره المنافسين له القشتاليّين، كما تراءى لنا من خلال مراسلات سابقة تقدّمت.

خاتمة عامّة:

إنّ العلاقات القطلانية المرينيّة الحادّة نسبيًا والمتميّزة بالمقارنة بالعلاقات القشتاليّة المغربيّة ساعدت ولا شكّ على نموّ التّجارة وازدهارها وعلى ثراء التّجّار بالبلدين المغربيّ والقطلانيّ ومكّنت السّلاطين المرينيّين والملوك الأراغونيّين من الحصول على ثروات طائلة وتنمية خزائنهم وعتادهم وإمكانيّاتهم وقدُراتهم، فكانت ثرواتهم المتجمّعة وأموالهم المتكدّسة داعمة لطموحاتهم ودافعة لتحقيق مخطّطاتهم في الهيمنة والسّيطرة: السّيطرة الإمبراليّة الاقتصاديّة بالنسبة لأراغون والتّوسّع التّرابيّ خاصّة ببلاد المغرب الكبير والأندلس بالنّسبة للمرينيّين.

ولقد نتج عن ذلك في القرن الرّابع عشر ميلادي وخاصّة في الثّلثين الأوّل والثّاني منه، في عهد جاقمو الثّاني وبترو الرّابع والسّلطان يوسف وأبي الحسن وآخر السّلاطين العظام أبي فارس بن أبي عنان، توازنٌ بين القوّتين المتقابلتين الإسلاميّة المغربيّة والقطلانيّة الإسبانيّة والمسيحيّة بأروبا.

بل لقد وفّر هذا الوضع حماية لمسلمي الأندلس ولدولة غرناطة المهدّدة ـ رغم مناوأتها الدّائمة للمرينيّين ومنافستها لهم في دون تبصّر ـ وأجّل انهيار غرناطة وسقوطها إلى آخر القرن الخامس عشر 1498م تاريخ سقوط الدّولة المرينيّة نفسها.

فتمثّل حلقات هذه العلاقات الإسبانيّة المسيحيّة مع المرينيّين والمسلمين بالمغرب العربيّ في القرن الرّابع عشر م مرحلة هامّة في تاريخ العلاقات الإسلاميّة المسيحيّة، وتؤكّد عجز العصبيّة الدّينيّة النّصرانيّة في النّيل من الإسلام وتحدّيه بشمال إفريقيا خاصّة والبلاد الإسلاميّة عامّة.

وإن كان هذا الحلم السّرابيّ ما زال يلازم المتعصّبين والرّافضين للتّعايش السّلميّ بين الشّعوب ـ أحرارا متساوين ـ فتبرز العقيدة الإسلاميّة عبر كلّ هذه المسيرة صرحا شامخا متجدّدا منيعا لا تؤثّر فيه الهزّات والتّقلّبات والمؤامرات، مُشعّا بمناراته عبد العصور، ولعلّ من أهمّها منارة السّلطان المرينّي أبي سعيد المخطّط لسياسة التّعايش والتّقارب القطلانيّ المريني ونبراس ابنه السّلطان العظيم أبي الحسن زارع بذرة الوحدة الطبيعيّة والسّياسيّة لشبه الجزيرة المغاربيّة وأساس اتّحادها المنشود اليوم.

القسم الثالث

الفهارس:

فهرس الأعلام

فهرس الأماكن

المصادر والمراجع

محتوى الكتاب

فهرس الأعلام

الاســـم رقم الصّفحة أو أرقام الصّفحات

فهرس البلدان

اسم المكان - رقم الصّفحة أو أرقام الصّفحات

ميـورقة Majorque : 9-28-82-100-102-105-108-112-
113-117-118-124-175-176-218-220-241-249-256-
263-275-300

ندرومة : 34-48

هنتاتة : 7-52-217-230

هنين : 300

وادي أمّ الرّبيع : 52

وادي سَبو : 17

وادي لُك : 30

وادي ملوية : 42

وادي نكور: 16

وطاط: 21-63-300-305

وهران "بالجزائر" Oran : 34.

المصادر والمراجع

ـ أرشيف التّاج الأراغوني

- A.C.A: Archives de la couronne d'Aragon

ـ أرشيف التّاج الأراغوني: خرائط عربيّة: نصوص منشورة ترجمها إلى الإسبانيّة ألركون

- A.C.A...: Cartes Arabes : Textes publiés et traduits en espagnol par ALARCON.

ـ كتاب التّاج لجيميناز سولار. ط. برشلونة. ج3.

Ginninez Soler: La Corona

ـ روض القرطاس

ـ تاريخ إسبانيا. لسولديفيلا ج 2

ـ أريباس بلو: كتاب الاحتلال. برشلونة 1962

Arribas Plau : La conquista

ـ المراسلة الملكيّة الدّيبلوماسيّة

- A.C.A (C.R.D): Correspondance royale diplomatique

ـ الأرشيف التّاريخي لميورقة

- A.H.M: Archives historiques de Majorque (Palma, Majorque)

ـ السّلاوي أبو العبّاس النّاصريّ: الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى

- ENNAÇIRI: El Istiksaa

- لوي دو ماس لاتري: معاهدات تخصّ علاقات المسيحيّين مع عرب إفريقيّة الشّماليّة في العصر الوسيط. باريس 1866

- Mas-Latrie (Louis de): Traités concernant les realions des chrétiens avec les arabes de l'Afrique septentionele au moyen- âge

- بيار فيدال: يهود الرّسيليون - باريس 1888

- Pierre Vidal: Juifs de Roussillon - Paris 1888

- برودال: البحر الأبيض المتوسّط

- Braudel: La Méditerranée

- ليفي بروفانسال: تاريخ إسبانيا الإسلاميّة. ج 1. باريس 1950

- Levi Provençal: Histoire de l'Espagne Musulmane

- دوفورك: (شارل ايمانويل): المسيحيّون والمسلمون في القرون الأخيرة للعصر الوسيط

- Dufourq Charles Emmanuel : Chretiens et Musulmans durant les derniers siècles du moyen âge

- دوفورك: (شارل ايمانويل): إسبانيا القطلانيّة والمغرب في القرنين الثّالث عشر والرّابع عشر. باريس 1966.

- Dufourq Charles Emmanuel : L' Espagne Catalane et le Maghreb durant le 14è et 15è siècles.

- إلْماني: ميليسياس: المِليشيات: - Alemany Milicias :

- عبد الرّحمان بن خلدون: المقدّمة والتّاريخ. ترجمة دو سلان. باريس 1862.

- لسان الدّين بن الخطيب: الإحاطة في تاريخ غرناطة.

- Ibn El Khatib Lisan Eddine

- ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب. ج II.

- عمر سعيدان: مراسلة الحفصيّين والقطلانيّين في عهد جاقمو الثّاني ملك أراغون: دراسة ووثائق. منشورات سعيدان سوسة 1988.

- SAIDANE Amor : Correspendances des Hafsides et des Catalans pendant le reigne de Guillaume II roi d'Aragon.. Ed. Saidane. sousse. Tunisie 1988.

- عمر سعيدان: علاقات إسبانيا القطلانيّة بالحفصيّين في الثّلثين الأوّل والثّاني من القرن الرّابع عشر م. منشورات سعيدان. نوفمبر 2002.

- عمر سعيدان. علاقات إسبانيا القطلانيّة بتلمسان في الثّلثين الأوّل والثّاني من القرن الرّابع عشر م. منشورات سعيدان. نوفمبر 2002.

محتوى الكتاب